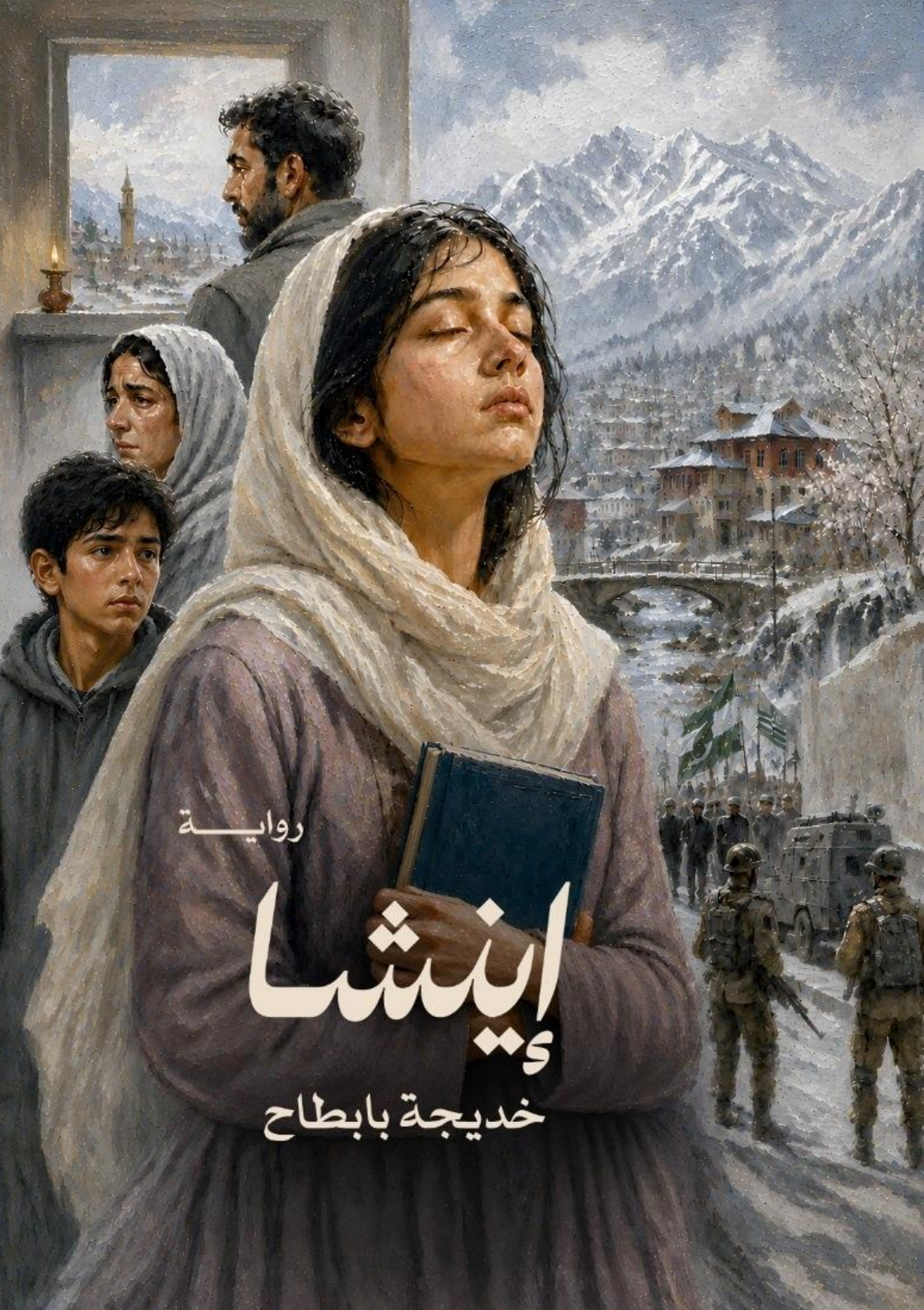
رواية
إينشا
خديجة بابطاح

إنشاء

بيانات رواية إينشا:

- الرواية: إينشا
- الكاتبة: خديجة بابطاح
- النوع: رواية
- مراجعة وتدقيق النص وتصدير الغلاف: رياض الحَمّادي
- لوحة الغلاف بالذكاء الاصطناعي: رياض الحَمّادي
- تنفيذ الغلاف: أمنية محمد
- إخراج داخلي: سليل الفراعنة
- سنة الإصدار: ٢٠٢٦
- الناشر: مؤسسة حزاوي للتنمية الثقافية، سبتمبر ٢٠٢٦
- رقم الإيداع في الهيئة العامة للكتاب، صنعاء: ٤٢٢ لسنة ٢٠٢٦.

فازت هذه الرواية بجائزة السرد اليمني (حَزاوي)، الدورة الرابعة ٢٠٢٥، برعاية بنك اليمن والكويت. والرواية متخيل أدبي ولا تُعبر بالضرورة عن رأي كاتبها ولا رأي الجائزة وممولها.

حقوق هذه الطبعة محفوظة لمؤسسة حزاوي للتنمية الثقافية وللمؤلف. يُسمح الاقتباس في حدود الدراسات والمقالات مع ضرورة الإحالة إلى اسم الكتاب والكاتب وناشره "مؤسسة حزاوي للتنمية الثقافية"، ما عدا ذلك من استعمالات يُرجع للناشر وللمؤلِف لأخذ إذن خطي.

YKB
بنك اليمن والكويت يُلهم المستقبل
YKB Inspiring the future
yk-bank.com

HAZAWI
جائزة السرد اليمني

(روايـــة)

إيشا

خديجة بابطاح

٢٠٢٦

YKB
بنك اليمن و الكويت يلهم المستقبل
YKB Inspiring the future
yk-bank.com

حزاوي
HAZAWI
جائزة السرد اليمني

كعجوزٍ لم يُكسبها الدهرُ إلا جمالًا، تروي أسطورةً حقيقية لنسجٍ يشبه الخيال، حاكته يدُ القدر. بلدٌ يبتسم ألمًا، ويرقص على أنغام البؤس، وكأن قلوبًا طاهرةً عشقته قد انعكست مروجًا وأنهارًا على ضفافه، تُخفّف عنه وطأة الحنين... تلك هي كشمير.

❊ ❊ ❊

إهداء أول:

إلى من جعل لحياتي معنى، وزاد طموحي رقيًا، إلى القمرين المضيئين دائمًا وأبدًا: أبي وأمي.

إلى فتيل حماسي ووقود أملي، إلى إخوتي وأخواتي.

إلى كل من كان سببًا لاستمراريتي ولو بكلمة.

إلى رفيقتي الكشميرية التي ساعدتني كثيرًا في سبر أغوار ذلك البلد العريق، وفرقنا الزمن قبل أن نكمل فصول الحكاية.

أهدي هذا العمل.

❊ ❊ ❊

"لم تنته أيام عيد الفطر بعد، ربما كانت يومًا واحدًا في الحقيقة، لكنها في مدينتي أكثر من ذلك؛ فنحن لا نكاد نصدق أن تمتلئ أحياؤنا وأزقتنا بتلك الأشياء المبهجة؛ بالألعاب النارية، بدلًا من فرقعة الرصاص المطاطي، وروائح التوابل الممتزجة باللحم وأبخرة الأفران التي تطهو الكعك بأنواعه المختلفة وأحجامه المتنوعة، بدلًا من أبخرة الغاز المسيل للدموع. كان الأمر خارجًا عن سيطرتنا حين تستمر فرحة العيد أسبوعًا أو أكثر.

لكن هناك من لم يرق له ذلك، كانت الزينة لا تزال معلقة على طول الطريق الممتد من مدخل المدينة حتى قلبها، ولا يزال الأطفال يرتدون ملابسهم الجميلة والملونة بسعادة ويلقون بأغلفة السكاكر هنا وهناك غير عابئين بالآداب التي ما فتئ أهاليهم بتلقينهم إياها. كنت في الرابعة عشرة، وحتى ذلك اليوم كنت أحسب أنني مصنفة ضمن الأطفال، حتى بدأ ذلك النذير المشؤوم الذي إن لمحناه علمنا جميعًا أن كل شيء انتهى وأن الغمامة لن تغادرنا حتى تمحو كل تلك المباهج. لم يكن ذلك النذيرُ بالشيء الكبير؛ ربما كان صرخةً أو عراكًا مفتعلًا، أعقبه سقوطُ شخصٍ على الأرض، وقد

انتفخت عيناه إلى الأعلى وبرد جسده حتى وصل صقيعه إلى قلبي، ثوانٍ أو أقل من ذلك حتى احتد الشارع وتدافع الناس وامتلأت السماء بالأبخرة الكريهة والفرقعات المرعبة. هرعت مبتعدة قدر الإمكان ولسبب أجهله لمحت واحدًا من أصحاب البدلات، دهنية اللون، يلحق بي. فزعت وهرعت إلى الأمام لا ألوي على شيء حتى وجدت البحيرة تركد أمامي. مقتُّها كثيرًا ذلك اليوم رغم عشقي الكبير لها. وقبل أن أهمّ بتغيير الوجهة لمحت ثوب أمي البنجابي الأسمر يطفو على سطحها. استدرت محاولة أن أصرخ بأحدهم لأشعر بحرارة حادة تخترق عينيَّ وقوة هائلة تدفعني إلى الخلف، أصبح كل شيء أسودًا، وغمرت المياه كل شيء".

❊ ❊ ❊

١

(آذار) مارس ٢٠١٠

دقت الساعة الثانية عشرة ظهرًا من يوم الفاتح من مارس. كان الطقس في أوج تحوّله المهيب، يغزو تلك السفوح المحاطة بـ "سبع شداد" من الجبال الشامخة، والتي تشكل عقدًا متلألئًا يطوّق جنة الله في أرضه. لطالما كان قدوم الربيع يحوّل "سرينغار" إلى لوحة فنية بديعة، يبسط فيها الخالق سبحانه ما شاء من ألوان زاهية، كسجاد كشميري استقى صانعه تمايلات نقوشه وألوان خيوطه من تناسق طبيعة بلاده وبديع ما جادت به.

نظرت حميدة إلى الساعة التي ترنّ رنينًا حادًّا متقطّعًا، معلنةً ذكرى لحظاتٍ سعيدة حظيت بها أسرتها الصغيرة في مثل هذا الوقت قبل ثمانية أعوام. ارتسمت ابتسامة على شفتيها وهي تنقل بصرها بين الساعة التي تكاد تسقط من فوق رفّ المكتبة، وباب المنزل المطلّ على الحقول الواسعة لذلك الوادي الفسيح.

توقّف المنبّه عن الرنين، بينما ظلّ الباب ساكنًا. بدأت الابتسامة تتلاشى حين ساورها ذلك الإحساس المخيف، فسارعت إلى ردائها وارتدته على عجل، ثم أحاطت رأسها بوشاحٍ كيفما اتّفق، مسدلةً ما تبقّى منه حول كتفيها لتتمكّن من تثبيته إن داهمتها بقايا رياح الشتاء المغادر، ثم انطلقت مسرعةً إلى خارج المنزل في ذعر.

- إينشا! إينشا! أين أنتِ؟!

تحرّكت يمينًا وشمالًا على غير هدى، وكادت تفقد صوابها من شدّة الخوف. وحين همّت باللجوء إلى السيد شريف، الذي لا يبعد منزله سوى بضعة أميال، لمحت خيال ابنتها يلوح أعلى الهضبة المقابلة للمنزل. تنهدت بارتياح، ثم بدأت تشقّ طريقها مقاومةً بقايا الثلوج العالقة على الأرض، وهي تشير إلى إينشا بالعودة.

صعدت الهضبة بصعوبة، وهي تواصل التلويح لها بالنزول، لكنّ إينشا الصغيرة أصرت أن تصعد والدتها إليها. وصلت حميدة أخيرًا وقد انقطع نفسها، فانحنت مسندةً يديها إلى ركبتيها، تلتقط أنفاسها بصعوبة. وحين همّت بالكلام، لم تقوَ على ذلك، حينها صاحت إينشا بابتسامة شقّت وجهها إلى نصفين:

- أمّاه، انظري! إنها زهرة نبتت وسط أكوام الثلج!

أمالت حميدة رأسها إلى أسفل قدميها لترى زهرة صفراء مشرقة تقف بشموخ، وتحيط بها أوراق خضراء صغيرة. أردفت إينشا:

- إنها شجاعة، أليس كذلك يا أمي؟

نظرت الأم إلى إينشا، وأخذت تتأمّل ملامح ابنتها البهيّة: عينان واسعتان تبرقان كالزمرد الأحمر، يرقد فوقهما صفّان منتظمان من الرموش الطويلة الكحيلة، وأسفلهما أنف ذو نهاية مستديرة أضفت على ملامحها براءة طفولة سترافقها أبدًا مادامت مستديرة.

انطلقت من فم حميدة ضحكة صغيرة حين رأت شفتي صغيرتها المكتنزتين وقد انفرجتا، لينفتح فمها على مصراعيه. استنكرت إينشا تلك الضحكة، فعقدت حاجبيها حتى بدا للرائي كأنهما متصلان.

استدركت حميدة الأمر بحنانها المعتاد:

- إنها تشبهكِ إينشا، تشبهك كثيرًا!

قالت ذلك وهي تقترب من ابنتها وتضمّها إليها، ثم أردفت بنبرة فيها شيء من العتاب:

- يبدو أنك نسيتِ شيئًا مهمًا.

أحاطت إينشا والدتها بذراعيها، كطقسٍ تمارسانه بين الفينة والأخرى، وكأنّ ذلك العناق يمدّهما بطاقة إضافية تقاومان بها تقلّبات الحياة وما تحمله من مشاق.

- أنا آسفة!

همست الصغيرة قبل أن ترتخي الأذرع، وتهمّا بالنزول.

أسندت حميدة كفّها إلى كتف ابنتها. كانت إينشا، كسائر فتيان وفتيات تلك القرية الصغيرة، تمتلك معرفةً بكل شبر يرقد على ذلك السفح. قالت باهتمام، وهي تنقل بصرها بين الطريق أمامها وموضع قدمي والدتها:

- أتعلمين يا أمي؟ أخذتني تلك الزهرة إلى عالم آخر. كنت أهمّ بالعودة إليكِ حين رأيت أشعة الشمس تضرب قمّة جبل "الهيمو"،

وكما تعلمين فأنا أحبّ صعود هذه الهضبة في طريق عودتي إلى المنزل، ثم النزول عنها وكأنني طائر يهبط سريعًا. وما إن بلغت قمّتها توقّف الزمن حين لمحت الزهرة. لم أستطع أن أبعد نظري عنها، وكأنها سحرتني! كانت تشعّ... نعم، كان هناك ضوء ينبعث منها جعلني أبحر في فضائها!

سكتت برهة، ثم أردفت:

- ولكنني قلقة عليها!

نظرت إليها والدتها، وقالت تستحثّها على المواصلة:

- ومِمَ أنتِ قلقة؟!

تنهدت إينشا، ثم استدارت برأسها إلى الخلف ناظرةً نحو الهضبة:

- ستذوب الثلوج سريعًا، وأخشى أن تنجرف زهرتي!

ابتسمت حميدة لأفكار طفلتها، وهي تمسد شعرها البنّي الثائر على كتفيها بحنان، وقالت مطمئنةً إياها:

- لا تقلقي، ستنحسر الثلوج الذائبة إلى أسفل الهضبة وستظل إينشا شامخةً في قمتها بإذن الله.

تساءلت إينشا وهي ترمق والدتها بنظرات حائرة:

- إينشا؟!

- نعم لقد أسميتها إينشا، أليس ملائمًا لها؟

برقت عينا الصغيرة سعادةً، وتهلّل وجهها؛ فلطالما أحبّت إطلاق

الأسماء، كما فعلت بقمة الجبل القابعة خلف منزلها. ثم رفعت بصرها إلى السماء قائلةً:

- السكون يملأ المكان.

قالت والدتها بملامح جامدة:

- إنه السكون الخادع!

أدارت رأسها نحو والدتها مستفسرةً، لكنها لم تسأل؛ ففي لحظة غفلةٍ منها، انزلقت قدمها، فتبعتها والدتها، ووقعتا على الأرض معًا. وبعد لحظات من استيعاب الموقف، غاصتا معًا في موجة من الضحك!

❊ ❊ ❊

٢

أنهى ألطاف واني صلاة الظهر مع رفاقه في حقل السيد محمد قادر، وهو رجل عجوز يستأجر بعضًا من فتية القرية لرعاية حقله، وقد دأب على تقليل عدد العمال حتى لا يكلّفه الإنفاق عليهم الكثير. لم يكن ألطاف واحدًا منهم، لكنّه، لفرط حبّه لهذا العمل، كان يشاركهم بين فينة وأخرى دون مقابل، ليكتسب بعض الخبرة.

كان الحقل يبعد عن منزل أخيه قرابة كيلومتر ونصف، قطعها ألطاف ركضًا وهو يتأبط صندوقًا جميلًا من الورق المعجّن، وهو ورق خاص يمكن تشكيله كالعجين. وحين أصبح قريبًا من هدفه، توقف ليستعيد أنفاسه ويهذّب ملابسه، ثم ألقى نظرة أخيرة إلى الصندوق يتفحّصه بعناية. وحين انتهى من ذلك، أسرع الخطى حتى لا تفطن حميدة إلى تأخره.

وأمام المنزل، وضع الصندوق على عتبة الباب، وأسرع بإخفاء حذائه المتّسخ حتى لا يفطن إليه أحد، وسط قالب مهمل من الألمنيوم أُلقي في إحدى زوايا الفناء. ثم عاد وأخذ الصندوق بين ذراعيه مجددًا، وطرق الباب بخفة ثلاث طرقات.

كان منزل أسرة واني يتوسط مجموعة من المنازل الصغيرة المتناثرة على بساط أخضر يزيّن سفح أحد الجبال الضخمة للسلسلة الجبلية البهية التي تُحيط المدينة. ولم يكن أهالي تلك القرية المستحدثة يريدون سوى الفرار من قلب المدينة الصاخب، الذي يطلقون عليه اسم "سرينغار البلد"، حيث

الحركة والمباني الخدمية. ثم إن حاجتهم إلى رعاية حقولهم، وقلّة الوظائف التي يعاني منها أغلب سكان ذلك الإقليم، دفعتهم إلى الانتقال والعيش في تلك الهضاب. كانت تلك هي الأسباب اللطيفة التي يسلّي بها بعضهم بعضًا عند الحديث، في حين كان كل منزل من تلك المنازل يختزن حكاية ألم لم تندمل جراحها بعد!

وقف ألطاف مليًّا بانتظار أن يُفتح الباب الخشبي الماثل أمامه، ثم جعل يمرّ ببصره على واجهة المنزل الذي بناه مع أخيه الأكبر نذير بمساعدة بعض الأصدقاء. كان المنزل، على ضيق مساحته، بديعًا من الخارج؛ إذ اعتُمد في بنائه على أخشاب مستقدمة من أدغال كشمير الكثيفة، وهي أخشاب صلبة مقاومة لتقلّبات المناخ. وكان يرقد على سطحه لوحان مائلان من الصفيح يمنعان تراكم أكوام الثلوج، ويسهّلان التخلّص منها. ويحيط بذلك كله سور من أعواد الخشب الصغيرة، يرسم حدودًا لا وجود لها، ويضمّ في داخله مسارات من نبات الخزامى المرصوص بعناية على كلا الجانبين.

ابتسم ألطاف وهو يستعيد في ذاكرته مرأى إينشا وهي ترتدي ثوبًا أخضر مطرزًا بخيوط ذهبية حول العنق، وتحمل دلوًا من الماء، وتصرخ فيه طالبةً منه المساعدة؛ فهي، حين تكفّلت برعاية تلك الأزهار، لم يكن لها من ذلك سوى الاسم! تمتم في نفسه:

"إينشا في الثامنة! لقد كبرت صغيرتنا."

قطع حبل أفكاره صوت مزلاج الباب وهو ينفتح ببطء. أطلت إينشا برأسها،

وقد جعلت من جسـدها حاجزًا حتى لا يتمكن من دفع الباب، وقالت وهي تحاول أن تضفي ملامح الجدية على صوتها:

- من أنت يا سيدي؟

خرج ألطاف من دهشـته سـريعًا، وعدّل هندامه محاولًا مجاراتها، وقال بصوت منمّق:

- لقد سمعنا أن في هذا القصر أميرة جميلة تحظى بيوم مميز، وقد أمر والي البلاد بإحضار هدية تليق بهذه المناسبة.

وصـاحب عبارته الأخيرة بانحناءة خاطفة بسـط بها ذراعه، التي تنتهي بكفّه حيث يرقد الصندوق المزخرف. شهقت إينشا وهي تتناول الصندوق برفق، وقد اتسعت عيناها الزمرديتان بدهشة بالغة:

- أنت صنعته؟!

لم تنتظر ردًا، بل دلفت إلى الداخل مسـرعة. تبعها ألطاف ضـاحكًا من منظرها، وهو يُحكم إغلاق الباب خلفه بحبل وضع للحماية.

"كان صندوقًا أزرقَ بحمرةٍ طافحة، لا يشبه سواه؛ لم أرَ مثله أبدًا، ولن أرى. حتى هذه اللحظة، لا أعرف كيف كسـاه بذلك الغلاف المبهج. وبكل رقة واحتراف، نُقشـت أربع زهرات من اللافندر على أعلاه. كانت تلك الزهرات هي كلَّ ما أملك: أبي وأمي وألطاف وأنا. كانت الوطن، أمرّر يدي عبر أخاديده المتقنة كل يوم، لعلّي أتذكّر."

٣

هدوءٌ يسود المكان، لا يقطعه سوى حيوية إينشا وحركتها الدؤوب. من الداخل، لم يكن المنزل يحوي سوى غرفة معيشة متوسطة الحجم تقابل الباب المفضي إلى الخارج. اصطفت فيها أربعة مقاعد خشبية تحيط بطاولة الطعام، وقد وُضعت هذه المجموعة على يسار الغرفة لتجاور نافذة واسعة مطلة على حقل السيد شريف، بينما يتوسط منزله ذلك المنظر الأخّاذ. وعلى الجانب الآخر من الردهة دولاب يضم بعض الأواني المنزلية في رفّه العلوي، تليه مجموعة من الكتب، ويتوسط الرف الثالث والأخير جهاز راديو قديم وُضع بعناية، وزُيّن بقطعة جميلة من الكروشيه. وإلى جواره صندوق أصفر يحوي قطع شطرنج محلية الصنع من الورق المعجّن، كالصندوق الذي يضمها، وعلى الجانب الآخر وُضعت بعض العرائس المستلقية كيفما اتفق.

ولا يمكن للداخل إلى ذلك المنزل أن يغفل رؤية آلة المغزل التي تقف بشموخ على يمين الغرفة. وبالرغم من أن حميدة تعمل على حياكة صوف الباشمينا يدويًا، فإنها كانت تستخدم الآلة أحيانًا لرسم بعض الخطوط المطرزة التي تمنح المصنوع جمالًا باهرًا يأخذ بالألباب.

أزاحت إينشا الصندوق الأصفر لتمنح صندوقها الجديد الموقع الأفضل، فتفاجأت بوالدتها تدفعها برفق قائلة:

- دعينا لا نحرك شيئًا من مكانه. اتفقنا؟

أومأت إينشا برأسها موافقة، وحين همّت حميدة بوضع الصندوق في الرف العلوي، صاحت إينشا رافضة:

- أريده في متناول يدي حتى أتمكن من رؤيته دائمًا يا أمي.

ردت والدتها مستنكرة وهي تهز رأسها:

- ستكسرينه. إنه جميل ولا يستحق ذلك!

إينشا فتاة مطيعة، لكنها هذه المرة خفضت رأسها غير راضية بقرار والدتها. حينها سمعتا صوت ألطاف يأتي من الخلف:

- لن تكسره، إينشا أصبحت كبيرة! وإن حدث ذلك فسأصنع لها آخرًا أجمل منه.

لم تجد حميدة بدًّا من الاستسلام لرغبة طفلتها، فقامت بتعديل العرائس لتصنع فراغًا يلائم الصندوق. وقبل أن تعود إلى المطبخ المجاور للدولاب، جعلت تتأمل القطع التي اصطفت عليه؛ كلٌّ في موضعه الذي وُضع فيه منذ خمسة أعوام، حين استقر بهم الحال في هذا المنزل، وكل قطعة تحمل ذكرى دافئة للحبيب الغائب.

أخذ ألطاف يداعب إينشا التي سارعت بالانضمام إليه على طاولة الطعام. وأقبلت حميدة تحمل أطباقًا في يدها، ثم أخذت ترصّها وهي شاردة الذهن. وفجأة قالت، وكأنها تذكرت شيئًا مهمًا:

- أين نمت البارحة؟ أنت لم تعد إلى المنزل!

حكّ ألطاف رأسه بينما كان يستدير ناحيتها ببطء، وهو موقن بأنه سيخوض تحقيقًا قاسيًا كالعادة، في حين لم يكن مستعدًا لذلك. ثم قال، حين رأى ألا مفرّ بينما هي تحدق في عينيه:

- لقد كنت في المحل أُنهي ما بدأته في الصندوق.

أسندت حميدة كفيها على الطاولة وتابعت حوارها:

- أنت تعلم أن السيد أفتاب لا يطيق وجود أحد بجواره أثناء عمله!

تحركت عضلة في صدغ ألطاف، وكأن صبره قد بدأ بالنفاد:

- أعلم ذلك، لكنه لم يكن موجودًا، وقد ترك لي حرية البقاء.

صمتت حميدة لهنيهة، ثم قطّبت حاجبيها وهي تمعن النظر في وجه ألطاف، وأتبعت ذلك بقولها، مدهوشة:

- هل ذهبت إلى الحقل مجددًا عوضًا عن المدرسة؟!

فقد ألطاف السيطرة على نفسه حين أيقن أن أمره قد انكشف من حيث لا يعلم، وقال صارخًا:

- تسألين وكأنكِ أمي! لا أعلم كيف عرفتِ، لكن نعم، ذهبت إلى هناك. لقد منعتِني من العمل مع السيد شريف، فلم أجد بدًّا من ذلك.

انهارت حميدة على الكرسي المجاور لها حين شعرت بألم حاد يخترق صدرها كطعنة خنجر، وكشريط أفلام دارت أحداث كثيرة في رأسها، وكأنها حدثت بالأمس. قالت وقد ارتسمت ابتسامة باهتة على شفتيها:

- لقد كنتَ في السابعة حين أتى بك نذير إليّ عقب زواجنا. اعتنيت بك، وكنت مشاكسًا كإينشا تمامًا.

صمتت لبرهة، تبعها سكون ساد بضع ثوان، قبل أن تردف:

- لم يخبرني أحد، أنا أعرف تعابير وجهك جيدًا. أنت لم تعتد إخفاء شيء عليّ.

أطرق ألطاف برأسه؛ لقد كانت على حق. نظرت إليه بتمعن؛ حاجباه الدقيقان يضمان عينين حادتين كعيني صقر، وأنفه المستقيم يمتد أسفلهما بكبرياء. كان نسخة من أخيه، نسخة لم تحظَ برؤيتها حين كان نذير في السادسة عشرة.

تابعت حديثها بجد بالغ، إثر نفسٍ كالأنين أطلقته من جوفها، قائلة:

- ألا تعتقد أن الوقت قد حان لترد الجميل يا ألطاف؟

رفع عينيه متسائلًا عن المطلوب، لكنها لم تترك له مجالًا للحيرة، إذ أردفت:

- أرجوك، لا تتركنا وحدنا في المساء. أرجوك، لا تتغيب عن المدرسة مرة أخرى؛ فأنت بحاجة إليها حتى تتمكن من الالتحاق بالجامعة. أنت تعلم جيدًا أنني لن أسمح لك بغير ذلك.

تمالكت نفسها بصعوبة، محاولة التغلب على رغبة عارمة بالبكاء. كانت فعلًا بحاجة إلى من يشعرها بالأمان؛ فقد واجهت الكثير، لكن ألطاف لا يزال يافعًا، لذا كانت بحاجة أيضًا إلى أن تُظهر له أنها متماسكة، ولم تفقد قوتها.

طأطأ الفتى رأسه مجددًا، لكنه كان خجلًا من قسوته هذه المرة. ثم التفت إلى إينشا، التي احمرّ وجهها من شدة الاضطراب؛ فقد كانت تكره مثل هذه اللحظات. قرص خدها مازحًا ليزيح عنها هذا التوتر، وقال برقة:

- وهل سأتمكن من النوم دون رؤية هذا الوجه الجميل!

ثم أدار رأسه إلى حميدة، وقال:

- لن أكرر ذلك، بإذن الله.

❊ ❊ ❊

٤

في صبيحة اليوم التالي، صعدت الخالة فاطمة الهضبة بصعوبة وهي تحمل سلةً متوسطة الحجم. وما إن اقتربت من بيت واني الذي يقبع هناك نادت بصوت مرتفع لتسمعها حميدة، التي كانت تكنس واجهة المنزل.

ألقت حميدة مكنسة القش من يدها ونفضت ملابسها وقالت لألطاف الذي كان يبحث عن شيء ما وهو يتأهب للمغادرة:

- إنها فاطمة، ويبدو أنها تحمل شيئًا. سأذهب لمساعدتها. وفي طريقك اطلب من إينشا العودة حتى تستعد للمدرسة.

أخرج ألطاف حذاءه من البرميل بعد أن تذكّر أين وضعه، ثم استدار ضاحكًا نحو حميدة، التي نظرت إليه شزرًا وقالت بعجلة:

- سأغسله لك بعد عودتك.

هبطت الصغيرة من التلة المفضلة لديها بعد أن اطمأنت إلى حال زهرتها التي حظيت ببعض الرفقة بعد انحسار الثلج عن أعلى التلة. وما إن رأت والدتها ترافق الخالة فاطمة حتى أسرعت راكضة، لعلها تحظى بشيء جميل من الخالة اللطيفة.

قالت فاطمة معتذرة وهي تناول السلة لحميدة:

- أحضرت لكم بعض الفواكه. أرجو أن تعذريني، لم أتمكن من القدوم بالأمس. لقد أرهق شريف نفسه كثيرًا، فلم يكن لي من حيلة سوى الذهاب عوضًا عنه إلى البلدة.

ثم سألت وهي تحدق في وجه حميدة: مالي أرى وجهك يكسوه الشحوب!

تناولت حميدة هدية جارتها وصديقتها الوحيدة وقالت شاكرة:

- جزاك الله خيرًا، ولا بأس على زوجك. آمل أن يستعيد صحته قريبًا. تفضلي إلى الداخل.

ضمت فاطمة طرفي ثوبها الفضفاض ثم جلست على عتبة الدار قائلة:

- الجو رائع هذا النهار، دعينا نجلس هنا.

استدارت حميدة لتنادي ابنتها، التي أقبلت راكضة، ثم طلبت منها مرافقتها إلى الداخل. قالت الخالة:

- أتيت لتهنئتك وتقديم هديتي المميزة لكِ بهذه المناسبة يا عزيزتي.

نظرت إينشا إلى يدي الخالة الخاويتين بخيبة أمل، لكنها أشاحت بوجهها خجلًا من أن تلاحظ ذلك. ضحكت فاطمة فاحتقن وجه إينشا، بينما تنهدت الجارة لتستكمل حديثها:

- لا تقلقي. هديتي من نوعٍ آخر. سأخبرك بعد أن تتأهبي للّحاق بدرسكِ.

أسرعت إينشا، وقد اعتراها الفضول، إلى داخل المنزل. وتزامن ذلك مع خروج والدتها، وهي تحمل أكوابًا من الشاي الكشميري الساخن، علّه يبعث بعض الدفء.

قالت فاطمة بعد أن رشفت من كوبها رشفات عدة:

- ستطير إينشا فرحًا حين تعلم بالمفاجأة التي تنتظرها.

ابتسمت حميدة، وهي تحرك كوبها بحركة دائرية منتظمة:

- أنتِ كريمةٌ معنا دائمًا، لا أعرف كيف أرد فضائلك.

قالت فاطمة بلطف:

- لا تقولي هذا. نحن أختان يجمعنا دم واحد ودين واحد، ولأني لم أُرزق بالأبناء فإينشا ابنتي أيضًا.

اطمأنت حميدة إلى هذا الكلام، وأشرق وجهها بابتسامة. ثم عاودت حميدة الكلام متسائلة بشيء من الحماس:

- تُرى ماذا في جعبتكِ؟

وضعت فاطمة كوب الشاي إلى جوارها، ثم استدارت قائلة، وهي ترفع حاجبيها الداكنين وتنظر إلى الصغيرة التي أقبلت تحمل حقيبتها وترتدي بذلة المدرسة الزرقاء:

- مؤكد بأنكِ ترغبين برؤية ذوبان بحيرة دال السنوي.

قفزت إينشا غير مصدقة بينما صاحت والدتها:

- ماذا؟!

حينها التفتت الصغيرة إلى والدتها باستسلام. وأيقنت أن ذلك لا يزال حلمًا بعيد المنال؛ فما تتذكره أن والدتها لم تسمح لها يومًا بالذهاب إلى البلدة منذ قدومهم إلى هذه القرية. غير أن الخالة فاطمة لم تكن لتقترح ذلك من دون أن تملك ردًا، وهي تعلم مسبقًا أن الرفض متوقع.

قالت، وهي تعاود التقاط كوبها واحتساء ما تبقى فيه:

- لا تقلقي، فلن تكون وحدها. ستأتين معها وإن أراد ألطاف مرافقتنا فلا بأس بذلك.

ثم عاودت النظر إلى حميدة، التي ظلت ساكنة وقد شحب وجهها، فقالت بقلق:

- هل أنتِ بخير؟

تذكرت حميدة مرأى البحيرة فسرت رعشة لم تترك عصبًا في جسدها إلا اقتحمته. لم يعد في ذاكرتها سوى شتات صورة مبعثرة: دموع تملأ عينيها فتفقدها القدرة على الرؤية، ونشيج ينطلق صاخبًا من جوفها، وتشنجات مصحوبة بألم يعصف بجسدها كله، وصوت "جاغديش" يخترق هذا الصخب: "أفيقي... أفيقي".

أفاقت من سرحانها لترى نظرات القلق في عيني فاطمة، بينما ارتمت إينشا في أحضانها باكية. فقالت لابنتها مطمئنة:

- أنا بخير، حبيبتي إينشا، اذهبي للمدرسة وسنتحدث لاحقًا.

قامت الطفلة وهي تكفكف دموعها بيديها الصغيرتين:

- كوني بخير أمي، لا أريد الذهاب إلى أي مكان، أريد فقط أن تكوني بخير دائمًا.

قالت حميدة، وهي تراقب ابنتها تغادر مبتعدة:

- لا أعرف... ربما من الأفضل ألا نذهب إطلاقًا.

ربتت فاطمة على كتف صديقتها وقالت:

- ألا يمكنكِ التفكير في الأمر؟ أم أنكِ تخشين أن يتكرر ما حدث؟

وضعت حميدة يدها على رأسها ونظرت إلى الأرض وقالت:

- لا أعبأ بنفسي، إنما أخاف على طفلتي. الوقت غير مناسب بعد

لتعرف ما حدث.

قامت فاطمة بمحاولة أخيرة قائلة:

- تعلمين أنها ليست الوحيدة، فهناك عشرات الأطفال مثلها. بإمكانكِ ألّا تخبريها، لكن دعيها تعيش طفولتها كبقية الأطفال.
- أنا آسفة يا فاطمة، لن نستطيع الذهاب.

قالت حميدة ذلك لتقطع الحديث في الأمر. ولم تزد فاطمة على ما قالته شيئًا، واكتفت بالنظر إليها مليًا.

نعم، إنها الفتاة التي كانت تضج بالحياة ذات يوم. ها هو شعرها وقد غزاه الشيب قبل أوانه، بعدما كان غضًّا مشرقًا، وكأنما نُسجت خصلاته من خيوط الشمس. ثم لمحت يدها وقد برزت عروقها، وأضحت جلدًا على عظم.

تنهدت فاطمة، ثم وقفت تستعد للمغادرة. اقتربت من حميدة، وربّتت على كتفها مجددًا قائلة:

- أما زلتِ تجهدين نفسك في الحياكة؟ لا ترهقي نفسكِ، فهما بحاجة إليكِ. وإن احتجتِ إلى أي شيء، فنحن بالقرب. لا ترددي أبدًا، وإلا غضبتُ!

ابتسمت حميدة وهزّت رأسها موافقة.

❊ ❊ ❊

٥

توسطت الشمس كبد السماء، وتحت أشعتها العمودية كانت إينشا تركض في طريق عودتها إلى المنزل من مدرستها المبنية من الصفيح، والواقعة خلف حقل السيد محمد قادر. في كل مرة تمر من ذلك الطريق تدعو الله ألّا تصادف العجوز الذي اعتاد أن ينهرها دومًا لذنبٍ لم تقترفه. ولسوء حظها، كان في حقله آنذاك. رآها مقبلة فصرخ حتى كادت العصا التي يتوكأ عليها أن تسقط منه:

- توقفي!

أسرعت إينشا تركض مبتعدة عنه، خائفة من أن يلقي عليها لعنة من لعناته، كما أخبرها زملاؤها في المدرسة. وعلى الرغم من أنها لم تره يمارس الشعوذة قط، فإن الأطفال يعشقون الحكايات التي يخيفون بها بعضهم بعضًا.

والحقيقة أن لإينشا نصيبها الخاص من ذلك الخوف؛ فكلما رآها هذا الرجل المسن صرخ فيها متوعدًا ألطافًا بأن يكسر قدميه إن عاد إلى الحقل مجددًا، حتى أضحت تشعر بأنها المعنية بهذا التهديد. ومع ذلك، لم تكن تعلم سبب غضبه، فعمها لم يُقدم يومًا على إلحاق الضرر به.

ابتعدت بالقدر الكافي وتوقفت تلتقط أنفاسها، وهي تدير رأسها ببطء لتطمئن إلى أنها لم تعد في مجال رؤيته. حينها سمعت ضحكات

زملائها وهم يركضون خلفها ويصرخون ساخرين:

- أيتها المنحوسة، أيتها المنحوسة!

صاحت بغضب وهي تضرب الأرض بقدمها:

- كفى، ما تقولونه هراء لا أساس له من الصحة.

اقتربت أنفال من إينشا، وقالت وهي تشبك ذراعيها:

- من كذب عليكِ؟ إنها حقيقة.

قالت إينشا بثقة:

- أمي لا تكذب. قالت إن النحس غير موجود، وإن أمرنا كله خير.

لم يفهم بقية الأطفال ما عنته الأم بهذا الكلام، لكن أنفال لم تستسلم، فقالت متحدية:

- نحن ذاهبون إلى البحيرة الآن. أرسلتني أمي لأحضر بعض الأغراض من سوق الخضار العائم، تعالي معنا.

تراجعت إينشا بقلق إلى الخلف، قائلة:

- أمي لا تسمح لي بالذهاب.

شعرت زميلتها بطعم الانتصار فقالت:

- ألم تقولي إن النحس غير موجود؟ إذًا تعالي معنا لتثبتي صحة كلامكِ.

صمتت إينشا، بينما دارت عيناها في محجريهما بتوتر وقلق. كادت تبكي من نظرات زملائها التي كانت تنطق باتهامها بالكذب، لكنها لم

تقوَ على مخالفة تعليمات والدتها. وحين شـعرت أنفال بالضـجر من الانتظار، قالت بنفاد صبر:

- سنرحل من دونكِ يا غريبة الأطوار!

استدار الأطفال نحو الطريق الرئيسي المؤدي إلى البلدة. كانوا ذاهبين حقًا! قدمت إينشـا قدمًا وأخّرت أخرى، لكنها في النهاية ركضـت باتجاههم وهي تصرخ:

- سأذهب معكم لأثبت أنني على حق!

انضمت إلى الجمع الذي بدأ يركض، بينما تعالت الضحكات المشوبة بالتوتر.

تركت حميدة قطعة الصـوف التي كانت تعمل عليها، ونظرت نحو قدر حسـاء اللحم الأحمر الحار "روغان جوش" الذي أعدّته. لا شـك أن إينشـا سـتكون سـعيدة حين تعلم أن والدتها ضـاعفت جهدها لتذوق صـغيرتها هذا الطعام بعد انقطاع دام طويلًا منذ آخر مرة تناولته فيها. وكالعادة، نظرت حميدة بقلق إلى السـاعة؛ فهي تراقب بحرص موعد عودة صغيرتها.

قطب جاغديش حاجبيه حين رأى مجموعة من الأطفال، لا يزيد عددهم على أربعة أو خمسـة، يركضـون باتجاهه، بينما كان يوقف "الأوتوركشا" الخاصة به، وهي وسيلة النقل الأقل تكلفة آنذاك. وما إن رأى أنفال تتزعم المجموعة حتى زعق بصوته الغليظ:

- يا ستار يا عليم!

لم تعبأ أنفال بطريقة كلامه، وقالت وكأنها تذيع خبرًا في الإذاعة المحلية:

- أرسلتني أمي لأحضر بعض الخضار من السوق.

قال جاغديش بنفاد صبر، وهو يشير إلى سوق القرية المغلق من دون أن يلتفت إليها:

- اذهبي وأحضري لها ما تريده من هناك.

- وماذا يوجد هناك لأحضره! صرخت بحنق.

استدار جاغديش عاقدًا ذراعيه بغضب:

- أحضري والدتك أو طلبًا مكتوبًا وأنا سأقلك إلى سوق الخضار العائم.

تراجعت أنفال إلى الخلف، ولم تدرِ ماذا تقول. فتابع الرجل كلامه، وهو يخرج هاتفه المحمول:

- حسنًا يا أحبابي الصغار، هلّا عدتم من حيث أتيتم، أم ينبغي لي أن أجري بعض الاتصالات السريعة؟

أسرعت أنفال تتشبث بملابسه صارخة:

- أرجوك يا عم جاغديش، لقد رفض أهلنا أخذنا لرؤية البحيرة. لم يتبقَّ سوى بضعة أيام وتذوب تمامًا.

نظرت إينشا بصدمة إلى زميلتها الكاذبة، وتمتمت وكأنها أدركت أخيرًا

فداحة ما أقدمت عليه:

- سأعود.

نظر جاغديش بفزع إلى الصغيرة، وقال وقد جحظت عيناه:

- ماذا تفعلين هنا يا إينشا؟! هل تعلم...

لم يُنهِ كلامه حتى صُعق الجميع برؤية حميدة تركض نحوهم، وكأنها فقدت صوابها. وما إن رأت إينشا حتى جذبتها بعنف من ذراعها، وشدتها عائدة من دون أن تنطق بكلمة.

حاول جاغديش إيقافها وشرح الأمر، لكنها لم تكن في حال تسمح لها بمناقشة أحد. وما إن وصلت إلى المنزل حتى هرعت نحو الحبل المربوط في أكرة الباب، لكن محاولاتها لفكّه باءت بالفشل. فاتجهت إلى الفناء، ومن دون وعي بما تفعل، كسرت أحد الحواجز المحيطة بالأزهار.

ولم تفلح محاولات إينشا المذعورة في طلب العفو والصفح، وسط موجة من البكاء المتقطع، في ثنيها عما عزمت عليه. ولأول مرة ارتفعت يد حميدة لتنهال ضربًا على أحد. ولم يكن ذلك الأحد سوى إينشا، السبب الوحيد الذي يمنح حميدة طاقة البقاء.

ألقى ألطاف حقيبته فور رؤيته ما يحدث، وركض بكل ما أوتي من قوة وأمسك بذراع حميدة التي كانت تصرخ بكلمات غير مفهومة. توقفت فجأة، وكأنها بدأت تدرك ما تفعله. فصاح بها:

- استعيذي بالله يا حميدة!

نظرت حمدة إلى العصـا التي تحملها، فألقتها فورًا على الأرض في ذعر، ثم استدارت لترى ابنتها تبكي بشهقات متقطعة. أسرعت نحو صغيرتها الجاثية على الأرض، وضمتها إلى صدرها بقوة، وعزفتا معًا سيمفونية البكاء.

"مؤلم... شعور التعرض للضرب مؤلم جدًا، لكنه ليس أشد ألمًا من شعور الفراق. أتعلمين أنني اشتقت إلى مذاق العصا في يدكِ؟ لقد حدث يومًا أن اشتقت إلى ذلك! اشتقت إلى أي شيء يُشعرني بقربكِ!"

❊ ❊ ❊

٦

في ركن الغرفة جلست إينشا القرفصاء، بينما كانت والدتها تُحضّر المكان استعدادًا للنوم في مساء ذلك اليوم الشاق. أخذت حميدة الفرش الملفوفة بعناية فوق بعضها، وبدأت تفردها واحدًا تلو الآخر بجوار النافذة الصغيرة. بعد أن انتهت أدارت رأسها نحو ابنتها الصامتة وقالت بعتاب رقيق:

- لم تساعديني اليوم بتحضير الفُرُش يا وردتي!

أطرقت إينشا بعينيها نحو الأرض، وهي تفكر بقلق فيما إذا كانت والدتها لا تزال غاضبة منها. استشعرت حميدة ذلك، فتابعت بلطف:

- حسنًا، كل شيء جاهز، تعالي واستلقي إلى جواري.

رفعت إينشا بصرها نحو والدتها وقالت بصوت متقطع:

- هل... سامحتني؟

ابتسمت الأم ابتسامة انعكس أثرها رضًا على وجه إينشا، ثم قالت وهي تضع يدها على فراش الطفلة:

- هيا، تعالي إلى هنا. سأرفع الستار لنراقب القمر ونتلو بعض آيات القرآن معًا.

أسرعت إينشا نحو والدتها، فضمّتها إليها واستلقت إلى جوارها. وبعد أن وضعت الغطاء عليهما وقرأت المعوذات، قالت:

- كان يومًا طويلًا، أليس كذلك؟

رفعت إينشا عينيها الواسعتين وقالت، وهي تنظر إلى السقف بشرود:

- هل أحكي لكِ ما حدث؟

هزّت حميدة رأسها موافقة، فبدأت إينشا تسرد الأحداث بكل تفاصيلها. ثم سألت بتردد:

- لماذا تقلقين من كل شيء يا أمي؟

سكتت حميدة لحظات، وعوضًا عن الإجابة سألت، وهي تعدّل خصلات ابنتها المتناثرة:

- هل أحكي لكِ حكاية لتنامي؟

استدارت إينشا مُصغيةً إلى حكاية أمها:

كانت هناك فتاة جميلة ومحبوبة، كان الجميع يتمنى قربها وصداقتها، لكنها لم تعشق سوى طائر وحيد وجدته جريحًا في أحد جناحيه، فأخذته وتكفلت برعايته. كان يائسًا فاقدًا للأمل، فكانت تنشد له كل مساء: "سيعود الربيع، وسنحلّق معًا إلى جولمارج، مرج الزهور، حين تصدح أجراس الحرية". فعادت ثقته بنفسه، وأراد معاودة الطيران. وحين خافت أن يُصاب مجددًا، رفضت إطلاقه. كان يدرك قلقها وحبها أيضًا، لكنه لم يعرف كيف يشرح لها أهمية الطيران بالنسبة إليه، فأخذ يغرد بصوت حزين، مرة بعد أخرى، دون جدوى. ثم ترك الطعام والشراب، لعلّها تفهم. وفي

أحد الأيام، اقتربت من قفصـــه وفتحته. تردد الطائر: أهو إذْنٌ أم اختبار؟ لمحت تردده، فأخذته بيديها ورفعته عاليًا. فرد جناحيه وغرّد بسعادة هذه المرة، ثم انطلق في الأفق. ومنذ ذلك اليوم، تقف الجميلة كل مساء قرب النافذة، وتغني: "سيعود الربيع، وسنحلّق معًا إلى جولمارج حين تصدح أجراس الحرية..." لكنه لم يعد.

تغير صوت حميدة واختنقت عبرتها وهي تنظر في شرود إلى القمر الذي يتوسط السماء في سكون، لكنها تمالكت نفسها حين رأت صغيرتها وقد أخذت تغط في نوم عميق.

❊ ❊ ❊

٧

(أيار) مايو ٢٠١٠

في عصر أحد أيام مايو الربيعية، كان صوت آلة المغزل يقطع سكون الغرفة، يصاحبه صوت حميدة وهي تردد: "أستغفر الله، أستغفر الله".

وفجأة قطعهما صوت إينشا وهي تصيح من الباب المفتوح سلفًا:

- أمي، أمي! الخالة فاطمة قادمة، وبرفقتها زميلتي أنفال وامرأة أظنها والدتها!

تركت حميدة ما بيدها وهرعت إلى الداخل قائلة:

- هل أنتِ واثقة؟ لقد نسيتُ أن أفرش الردهة!

لحقت إينشا بوالدتها، وطفقتا تحملان الفُرُش وترصّانها بجوار طاولة الطعام. ثم أسرعت حميدة إلى المطبخ لتشعل النار تحت قدر الشاي.

وما هي إلا لحظات حتى سُمع طرق فاطمة المألوف على الباب.

جلست حميدة مع ضيفتيها، وصبت لهما الشاي في جو متوتر. ثم جلست قبالة الفرش وقالت بخجل:

- لم أكن أعلم بقدومكِ وإحضاركِ لصديقتكِ الطيبة يا فاطمة، اعذراني، فالمنزل خالٍ، ولا شيء لديّ أقدمه لكما.

ضحكت فاطمة ببساطتها المعتادة وقالت بسعادة:

- لا يا عزيزتي، بل اعذرينا نحن على مجيئنا المفاجئ. هذه أم أنفال،

وقد رغبت بشدة في زيارتكِ.

كانت إينشا تنظر بصمت إلى أنفال، التي حاولت جاهدة أن تُبعد عينيها عن تلك النظرات الغاضبة.

قالت أم أنفال، وقد أزاحت غطاء وجهها جانبًا بعد ترحيب حميدة بها:

- علمتُ مؤخرًا بما حدث. أنا آسفة لما تسببت به ابنتي من مشاكل لكِ.

ثم التفتت إلى ابنتها قائلة:

- هيا، اعتذري أيتها المشاغبة!

بسطت حميدة ذراعها قائلة:

- لا عليكِ، فقد أخطأت ابنتي أيضًا، وانتهى الأمر. ستكونان صديقتين جيدتين، أليس كذلك؟

وجّهت سؤالها إلى إينشا، التي هزّت رأسها موافقة، وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة صافية بعد هذا الصلح المفاجئ. وفي الحال، نهضت الفتاتان وخرجتا للعب في الخارج.

قالت أم أنفال، وهي تضم إحدى يديها إلى الأخرى وتضعهما قرب فمها محاولة كبح عبرة اختنقت بها:

- ابنتي فتاة مؤدبة، وليس ذنبها ما حدث، بل ذنبي أنا. فمنذ إصابة ابني البكر إقبال وفقدانه إحدى قدميه، لم أعد أستطيع الاهتمام بها كما ينبغي.

شاركت فاطمة في الحديث قائلة لحميدة، وهي تشبك كفيها:

- إنه شـاب رائع رغم كل شـيء. لقد أصـيب بعيار ناري، واضـطر الأطباء إلى بتر الجزء السـفلي من سـاقه اليمنى. تتذكرين احتجاجات العام الماضي وما تعرض له الشبان من قمع شديد؟

أطرقت حميدة نحو الأرض وقالت بحزن:

- أتذكر جيدًا... هل استطعتم الحصول على طرف اصطناعي؟

تنهدت الضيفة بألم قائلة:

- بعنا كل ما نملك، حتى الحُليّ التي كنت أجمعها لزواجه، كي ندفع تكاليف العلاج ونشـتري الطرف الصـناعي. لكن بعد أقل من عام صـار متعبًا وغير مريح له. ومن أين لنا بثمن آخر أكبر حجمًا؟ إنه مكلف للغاية.

صمتت لحظات ثم تابعت:

- سمعنا بوجود مركز طبي مجاني افتُتح مؤخرًا برعاية الأمم المتحدة، وعندما ذهبنا إليه سُجّل اسمه مع عشرات غيره، ومنذ ذلك الحين ونحن ننتظر بقية الإجراءات.

أطلقت فاطمة ضحكة ساخرة قصيرة وقالت بحنق:

- يشـاهدوننا نقتل بصـمت ثم يأتون لمعالجتنا! لمَ لا يمنعون ذلك قبل حدوثه؟

ضربت الضيفة كفيها ببعضهما في حيرة، بينما قالت حميدة:

- كان نذير يقول دائمًا: لا أحد سـيأبه لنا ما دمنا متفرقين. وكما قيل: "نحن بحاجة إلى صحوة أمة، لا إلى صحوة أفراد تخذلهم الأمة".

هزّت المرأتان رأسيهما موافقتين، ثم أمالت الضيفة رأسها إلى الخلف، وأخرجت كيسًا أحمر ملفوفًا بإحكام، ومدّت يدها نحو حميدة قائلة:

- سـمعت أنكِ تعملين بالحياكة، وهذه قطع جميلة من الخرز المشكّل، ربما استطعتِ استخدامها في عملكِ.

تناولت حميدة الكيس بحرج وقالت:

- أوه، لمَ كلَّفتِ نفسك؟ هذا لطف منكِ.

ثم التفتت يمينًا وشمالًا، ونهضت معتذرة للحظات. وما لبثت أن عادت وهي تحمل قطعة ملفوفة من صـوف الباشـمينا الناعم، وقالت وهي تقدمها للمرأة التي أشرقت عيناها لرؤية تلك القطعة الثمينة:

- اقبلي مني هذه الهدية.

قالت المرأة متظاهرة بالتمنع:

- لكنكِ بحاجة إلى ثمنها، كيف يمكنني أخذها بهذه البساطة؟

ابتسمت حميدة وقالت:

- إنها ليست من متعلقات العمل، وأنتِ تستحقينها.

أخذت المرأة القطعة شـاكرة، ثم نهضـت وهي تنادي ابنتها اسـتعدادًا للمغادرة. ورافقتهما حميدة مودعة حتى الباب.

عادت حميدة إلى حيث تجلس فاطمة وقالت:

- كنت أود المجيء إليكِ لأسألكِ: متى يناسبك أن نذهب معًا إلى البلدة؟ أريد لإينشا أن تنال بعض التغيير، ثم إنني بحاجة إلى تسليم شالات الصوف بنفسي هذه المرة.

أطلقت فاطمة صيحة فرح لهذا القرار وقالت بحماس:

- الأحد القادم بإذن الله. ستفرح الخالة شاميما كثيرًا لرؤيتكما. إنها لا تبعد سوى بضعة كيلومترات، ومع ذلك لم تزوراها منذ سنوات!

نظرت حميدة إلى الجهة الأخرى بطيف ابتسامة سرعان ما تلاشت وهي تفكر في تبعات القرار الذي عقدت العزم عليه.

❊ ❊ ❊

٨

تنهد ألطاف بحيرة وهو ينظر إلى الجبل الذي يسد أفق الصورة الماثلة أمامه من نافذة الردهة، وقال:

- هل أنتِ متأكدة أنكما لستما بحاجة لحضوري؟

قالت حميدة وهي تظفر شعر إينشا في عجلة:

- إنها فرصتك للتعلم من السيد شريف، لا تتأخر عن اللحاق به قبل انقضاء النهار، ولا تقلق علينا ففاطمة معتادة على الذهاب لوحدها إلى البلدة.

تمتم وهو مستمر بالنظر إلى قمة الجبل:

- أتمنى لو أعبر هذه القمم العالية!

ثم رفع صوته قائلًا لحميدة وقد استدار ناحيتها:

- أتتوقعين أن أحدًا يمتلك ما نمتلكه نحن من الجمال الطبيعي الباهر؟

قالت شاردة دون أن تلتفت إليه:

- أعتقد أن أجمل شيء في الوجود، هو أن تكون برفقة من تحب!

وكالعادة يتوقف الحديث وتسكن الأرواح حين تنطق المشاعر العصيّة على النسيان.

قفزت إينشا بعد أن انتهت والدتها من مشط شعرها واتجهت إلى صندوق

تقلب ملابسها القليلة رأسًا على عقب بغية الاهتداء إلى الثوب الملائم لهذه المناسبة العظيمة. دخلت والدتها ورأت الفوضى تعم المكان فقالت بدهشة:

- ما هذا؟ ابتعدي، سأختار لكِ ثوبًا. أخشى أن تحضر فاطمة ولم ننتهِ من الاستعداد بعد.

أعادت الأمُّ كلَّ شيءٍ إلى الصندوق، مستثنيةً ثوبًا أصفرَ وبنطالًا أزرقَ، وقالت مخاطبةً ابنتها:

- أسرعي بارتداء هذا الفستان مع البنطال. سأذهب لتحضير قطع الصوف.

ظهرت إينشا والسعادة تملأ وجهها وهي تنظر إلى الملابس التي عليها. قال ألطاف منبهرًا:

- ما شاء الله إلى أين أنتِ ذاهبة! تبدين رائعة الجمال.

ضحكت إينشا ثم جعلت تدور حول نفسها بسعادة.

ارتدت حميدة ثوبًا كستنائيًا مطرزًا من الأسفل بمثلثات منبعجة. كان يبدو رثًا بالرغم من أنه أفضل ما تملكه. أخذت حقيبتها الضخمة الممتلئة بقطع الصوف المحاكة ثم انطلقت بصحبة ابنتها إلى منزل فاطمة.

لحق ألطاف بالسيد شريف في حقله بينما غادرت النسوة المنزل، وأمام الخط الرئيسي نظرن إلى الطريق الخالي بخيبة أمل. قالت فاطمة

مستغربة وهي تنظر إلى ساعة يدها:

- هذا غريب! إنها التاسعة ولا وجود لأي حركة.

قالت حميدة وهي تلتفت يمينًا وشمالًا علها تجد سيارة ما:

- ربما لأنه يوم الإجازة الأسبوعية.

أطلقت فاطمة نفسًا غاضبًا وقالت بحيرة:

- بل إنهم يكثرون طلبًا للرزق في هذا اليوم، ياللحظ!

- لا أعتقد أنكن ستطلبن إيصالكن إلى البلدة!

استدارت النسوة بسرعة إلى مصدر الصوت، وعلى وجوههن مشاعر الفرح والفرج. قالت فاطمة بلهفة:

- سيد جاغديش، أنت متفرغ أليس كذلك؟

أوقف جاغديش الأوتوركشا بمحاذاتهن ودعاهن إلى الركوب. جلست إينشا إلى جواره في فسحة صغيرة؛ فقد كان الرجل بدينًا، بينما ركبت أمها وفاطمة في الخلف. قال لها مباركًا:

- أنا سعيدٌ لأجلك، ستقضين وقتًا ممتعًا في المدينة ولا تنسي إحضار تذكار لي من أحد الأكشاك المنتشرة.

قالت إينشا ببراءة وهي تعقد حاجبيها:

- ماذا تريد بالضبط؟ فأنا لم أعتد الذهاب إلى السوق!

ضحك جاغديش بصوته الصاخب ثم ضرب بخفة على كتف الصغيرة قائلًا:

- أنتِ مرحة جدًا، بعكس والدك تمامًا!

نظرت إليه إينشا بدهشة وقالت متسائلة:

- هل تعرف والدي؟!

أدار الرجل رأســه بينما يدير مقود مركبته أمام أحد المنعطفات وهو يقول بتأثر:

- ومن لا يعرفه، لقد كان كابوسًا للاحتلال، لقد...

قطعت حميدة الحوار قائلة:

- إينشا هل قرأت دعاء الركوب؟

حينها سكت جاغديش واستمر السكون على الأوتوركشا الصفراء حتى دخلت المركبة سرينغار البلد بعد مرور ساعة من انطلاق الرحلة.

فغرت إينشــا فاهها وهي ترى تلك المدينة الكبيرة ذات المباني الكثيرة والطرق المتشـعبة، بينما نزلت المرأتان شـاكرتين وأخرجت فاطمة من جيب ثوبها بعض الروبيات وقدمتها لجاغديش الذي امتنع عن أخذها في أول الأمر ثم أذعن لإصرارها.

خرجت إينشا من دهشتها قائلة بحيرة:

- أين نحن؟ أنا لا أرى البُحيرة!

ضحكت المرأتان بينما قالت فاطمة وهي تدفع إينشا إلى الأمام:

- وهـل كنـتِ تعتقـدين أن البلـدة تحوي البحيرة فقط؟ صــحيح أن البحيرة تأخذ المسـاحة الأكبر في المنتصـف، لكن سـرينغار أكبر من

مجرد بحيرة.

جعلت إينشـــا تتلفت برأســـها كثيرًا لتشـــبع عينيها من تلك المحلات المنتشرة على جانبي الطريق بمعروضاتها المختلفة، ثم ازدادت دهشتها لرؤية الأشـــجار التي تقف بانتظام على أحد الأرصـــفة وبدأت دون أن تشـــعر بعدِّها الواحدة تلو الأخرى لتفاجأ بذلك الصـــف ينتهي ببوابة سوداء ضخمة، وإلى جوارها بناء من الحجارة المطلية باللون الأخضر تســـتند عليه لوحة متوســـطة الحجم كتب عليه بالخط العريض (قصـــر الحرفيين).

قالت فاطمة وهي تشير إلى المبني خلف السور:

- هناك يا إينشا تُعرض أعمال والدتكِ، أليس هذا رائعًا؟

قالت حميدة التي لم تفلت يد ابنتها طيلة الطريق وهي تشـــدها إلى الداخل:

- لم يتغير شـــيء على الإطلاق! دعينا نريها المكان من الداخل، سوف تنبهر!

تقدم أحد الرجال منهن مرحبًا وهو يقول:

- هل بإمكاني خدمتكن؟

قالت فاطمة وهي تقلب أحد السجاد:

- لا، سنلقي نظرة فقط.

بدأت إينشا تجول ببصرها والدهشة لم تفارقها منذ وطئت قدماها هذه

المدينة. آلات مغزل ضخمة بحجم الضعف عن الآلة الخاصة بوالدتها، سجاجيد بالمئات رُصت الواحدة فوق الأخرى، ألوان كثيرة مختلطة ببعضها. صاحت وهي تنظر لهذا التنوع الباهر:

- إنها مدينة الألوان!

ضحكت حميدة بينما قالت فاطمة:

- ماذا ستقولين عند رؤية مصانع الخشب!

توقّفت المرأتان لتتحدّثا إلى العامل عن أسعار القطع ونسبة ارتفاع السعر، بينما واصلت إينشا السير في أرجاء المصنع. وأمام أحد الجدران وجدت سجادًا أحمرَ نُسجت خيوطه المتقنة لتصبح صورةً جميلةً للكعبة المشرفة، تحيط بها بعض النقوش الجميلة كإطارٍ للصورة، وإلى جوارها عُلِّقت قطعةٌ أخرى تحمل صورةً ملوّنةً لمسجدٍ تعلوه قبةٌ ذهبية. لمعت عينا إينشا لرؤية القبة بلونها الفاقع، ولم يقطع انجذابها إليها إلا صوت والدتها، التي تبعتها منذ لحظات، قائلةً:

- إنها قبة الصخرة المشرفة.

استدارت إينشا وهي تقول متسائلة:

- أهي موجودة بجوار الكعبة؟

تقدمت والدتها من الصورة وجعلت تمر بأصابعها على الخيوط المتشابكة بانتظام:

- إنها في فلسطين المحتلة، إنها مغتصبة منذ أكثر من ستين عامًا، مثلنا تمامًا!

عادت إينشا تنظر إلى القبة مجددًا. كان هناك شيء ما في الصورة يجذبها بشدة، حدثت نفسها بأن الألوان كانت السبب.

في ذلك الوقت، كان ألطاف قد خرج من الحقل وقعد على أحد الصخور المجاورة وهو يتصبب عرقًا، ثم راح يشرب من ثلاجة الماء التي أحضراها معهما. قال شريف ضاحكًا وهو يخطو ناحيته بهدوء:

- هل تعبت يا ابن المدينة؟

نظر إليه ألطاف بجمود وقال معاتبًا:

- إنها حراثتك البائسة، أشعر أنني أُقوم بالحرث وحدي!

ضحك شريف بصوت عالٍ ثم قال وهو يتناول كأس الماء من ألطاف:

- ها أنت تلقي اللوم على حراثتي المسكينة.

نظر ألطاف إلى الساعة في معصمه ثم قال:

- لقد قاربت على العاشرة، فلنسترح قليلًا قبل أن نستأنف العمل.

قال شريف وهو يهز رأسه مشيرًا إلى منزل واني:

- هناك رجل يتجه نحو منزلكم.

استدار ألطاف بخفة ليرى رجلًا يقف ساكنًا أمام المنزل يلبس ثوبًا بنجابيًا ناصع البياض وعلى وجهه لحية خفيفة. يبدو الرجل كما لو أنه في العقد الثالث من العمر، قال ألطاف بابتسامة متعجبة: مظفر!

بعد استكمال جولتهن؛ خرجت إينشا من المصنع تتبعها حميدة وفاطمة. استغربت إينشا لوجود ثكنة عسكرية في الجانب الآخر من الشارع وقالت متسائلة:

- هناك مجموعة من الجنود!

قالت والدتها وهي تجرها بالاتجاه الآخر:

- لا تطيلي النظر إليهم.

صرخ أحد الجنود من الخلف بصوت مرعب:

- توقفوا!

توقفت النسوة دون الالتفات إلى الخلف، اقترب الشرطي الهندي برفقة بعض زملائه وهو يتأملهن من الأعلى إلى الأسفل، استدارت فاطمة وقالت بصوت ثابت:

- هل هناك شيء ما؟

أطال الرجل النظر إلى حميدة التي لم ترفع رأسها، كانت تتشبث بمعصم فاطمة بينما كانت ترتجف بشدة، قال بصوت جاف:

- ارفعي رأسكِ يا هذه!

قالت فاطمة محاولة إلهاءه عنها:

- هل ارتكبنا خطأً؟ لماذا أوقفتنا؟!

حاول الشرطي أن يرفع يده ليمسك حميدة فأوقفته فاطمة بينما صرخت حميدة بجزع وهي تضم ابنتها بقوة إليها ولسانها يلهج بدعائها المحبوب "أستغفر الله، أستغفر الله"!

جاء مجند آخر وأسرّ إلى زميله المعتدي ببعض الكلام، فغادرا بعد أن توعد حميدة ببعض الكلام القذر. أخذت فاطمة أختيها المفجوعتين، حميدة

بذكرياتها الأليمة، وإينشا بصدمتها الأولى!

وأمام أحد المطاعم الشعبية جلسن للاستراحة لبعض الوقت، لم تفارق الصدمة إينشا التي ظلت ترقب الثكنات المنتشرة في حين تملأ الأرتال العسكرية أرضها هنا وهناك، والتي لم تلحظها سابقًا لانبهارها بالمدينة!

"في هذه المدينة، تشعر وكأنك تعيش في عنق زجاجة مُحكمة الإغلاق. تنظر إلى الأفق عبر فراغها اللامع فتبتسم، وتسير في عمقها مستبشرًا، لكنك كل عشرة أمتار تتذكر أنك لا تزال عالقًا. حين ترى ذلك؛ لا تفقد الأمل، فعصافير الرفرف الملونة لا تزال تحلق على البحيرة."

❊ ❊ ❊

٩

وضــع ألطاف بعض الأوراق أمام زائره المفاجئ الذي يجلس أمام الطاولة في غرفة المعيشة، وقال وهو يُقلبها:

- هذه أوراق القضـية العجيبة! لقد مكث في السـجن هنا أسـابيع عدة ثم اختفى فجأة دون أن يطلعونا على مكان أخذه أو أي معلومات عنه وعللوا ذلك بقولهم إنه سـجين سـياسـي خطر! كان ذلك منذ أربعة أعوام.

قبض مظفر على معصـم يده، حين لفتت انتباهه إحدى الأوراق وقال بعد أن أخذها وقرأ بعضًا من محتواها:

- وهل السـجين السياسي بلا حقوق! يريدون منا الركوع بشتى الوسائل. التهم جميعها خالية من المنطق!

سكت لهنيهة وهو ينظر في الأوراق، ثم أردف قائلًا:

- هل بحثتم عنه في الهند؟

تنهد ألطاف وهو يتذكر تلك السـنوات التي خلت، سـعل ثم قال بنبرة حزن طغت على صوته:

- بحثنا عنه في معظم السـجون، وكدنا نبيع المنزل لنحصـل على نقود كافية لدفع الرشـاوي لنتمكن من الحصـول على أي معلومات تدلنا على مكانه.

ثم أردف مبتسمًا:

- لكن كما تعلم فهذا المنزل لن يساوي الكثير على أي حال!

أحنى مظفر رأسه وقال بعبارات متقطعة:

- لم يكن ينبغي عليّ أن أقحمه في الأمر. كانوا يبحثون عن ثغرة بسيطة حتى يتمكنوا من الانقضاض عليه!

سكت الاثنان، ولكن سرعان ما قال ألطاف باسمًا:

- ظللت أفكر بهذه الطريقة لفترة طويلة، لكنني تيقنت أن نذيرًا كان لا بد أن يشارك في تلك المعركة الفارقة؛ فشرف المحامي بالنسبة له هو وقوفه مع الحق وإلا فلا يحق له أن يدعي حب هذه الأرض أو أن يكتفي بترديد العبارات العاطفية الجوفاء في كل محفل.

ابتسم مظفر وهو يشبك أصابعه وينظر إلى الأرض. وأردف ألطاف:

- أنا سعيد لرؤيتك بخير بعد كل هذه المدة، لقد اعتقدت أنني لن أراك مجددًا.

رفع مظفر رأسه وقال:

- أخبرني متى توقفتم عن البحث عنه؟

أغمض ألطاف عينيه وهو يبتسم ثم فتحهما قائلًا:

- مكثنا عامين كاملين من البحث ثم توقفنا بسبب قلة المال، لكن حميدة لا تزال متشبثة بآمالها، نحن على يقين بأن الله معه.

وقف مظفر وأدار ظهره لألطاف ثم قال بصوت حاسم:

- أخبرني متى ستعود السيدة حميدة؟

أجاب ألطاف باستغراب:

- في المساء بإذن الله.

عاد مظفر إلى مقعده وقال بارتياح:

- هذا جيد. أريد التحدث إليك على انفراد.

وقف ألطاف واتجه إلى مظفر ممسكًا بكُم ثوبه وقال جاحظًا عيناه:

- هل تخفي شيئًا؟ هل لديك خبر ما؟!

نظر إليه مظفر وقد اغرورقت عيناه بالدموع وقال:

- لقد عثرنا عليه!

❊ ❊ ❊

١٠

نزلت النسوة من المركبة بعد إصرار إينشا على رؤية البحيرة أولًا، وعلى الرصيف المحاذي لها نظرت الصغيرة لمنظر أشبه بالخيال. كانت قمم جبال الهمالايا، المكسوة بالثوب الأبيض الأخاذ، تغطي خلفية البحيرة بشكل مثالي، ويصطف أمامها خط منتظم من الشجر فارع الطول، وكأن المدينة تحتفل كل يوم بالأعياد!

قالت فاطمة وهي تشير إلى نهاية الرصيف:

- هناك منعطف يؤدي إلى حدائق المغول، يمكننا السير عبره والاستمتاع بالمنظر عوضًا عن ركوب البحيرة.

قالت إينشا معترضة: لا! أريد ركوب الشيكارا أمي، أرجوك!

قالت فاطمة وهي تلوح بيدها إلى أحد مالكي تلك القوارب وتنظر بقلق تجاه حميدة الهادئة:

- لا بأس إذًا، اعتقدت بأنكما تريدان مراقبة البحيرة سيرًا.

وعلى متن شيكارا جميلة ذات مقاعد إسفنجية، وضعت حميدة حقيبتها، ثم ساعدت إينشا على الركوب، فانطلق القارب بهنّ متجهًا إلى حدائق المغول "نيشات جاردين" الواقعة على الضفة الأخرى من البحيرة.

بدت البحيرة لإينشا مدينةً مستقلةً تطفو فوق الماء؛ رأت فيها محالَّ تستند إلى ركائز خشبية، تحيط بها نباتات اللوتس التي تغطي سطح البحيرة، إضافةً

إلى المتاجر والفنادق العائمة ذات الشرفات المزخرفة، والتي يسمّيها أهل المدينة "هاوس بوت"، كما أخبرتها الخالة فاطمة. وحين أدارت بصرها حولها، رأت الباعة المتجولين بقواربهم الملونة الجميلة، فتلألأت عيناها من روعة المشهد.

استوقفت حميدة أحد القوارب الصغيرة، وكان على متنه بائع حُليّ ومجوهرات. فغرت إينشا فمها دهشةً أمام القطع التي أخذ الرجل يعرضها واحدةً تلو الأخرى. قالت حميدة وهي تنظر برقة إلى ابنتها المنبهرة:

- اختاري قطعة، سأشتريها من أجلكِ.

اتسعت ابتسامة الصغيرة وقالت بحماس:

- حقًا؟

ثم اقتربت من القارب الذي كان يطفو أمامها. كان الاختيار صعبًا، لكنها اختارت في النهاية إسوارة جميلة بلون السماء الزاهية.

دخل القارب بعد ذلك في منعطفات ضيقة. كانت البحيرة واسعة، غير أن تزاحم المحال المستندة إلى الأعمدة الخشبية جعل المكان يبدو كمدينة متداخلة تسبح فوق سطح الماء. ملابس وأطعمة وورود؛ كل شيء يُباع هنا، حتى ليخيَّل للمرء أنها جنة عائمة.

أشارت فاطمة إلى أحد المنازل العائمة قائلة:

- أترين هذا المنزل يا حميدة؟ إنه للسيد أفتاب.

قالت حميدة، بغير اهتمام، وهي تلبس إينشا الإسوارة:

- حقًا؟ اعتقدت أنه مايزال يعيش بجانب المحل!

ضحكت فاطمة وقالت:

- نعم، هو يعيش بجوار المحل، لكنه حوّل هذا المنزل إلى فندق للسياح. إنه رجل ميسور ويمتلك منازل عدة.

تأملت حميدة المنزل قليلًا ثم قالت:

- أسأل الله أن يحفظ له ما يملك. كان جارًا لنا سنوات طويلة، لكن نذيرًا لم يخبرني شيئًا عن أملاكه.

استدارت فاطمة نحوها وقالت بنبرة مشوبة بالشك:

- صحيح، فممتلكاته لا تتعرض لأي مضايقات! أما مؤسسة الخالة شاميما فلا تكاد تسلم من التفتيش ومحاولات الإغلاق.

ضحكت حميدة من شكوك صديقتها وقالت بلطف:

- إنهم يعرقلون كل عمل يخفف عنا هذا الضيق والبؤس. تخيلي أن تُغلق المؤسسة! ما يقارب ألفي امرأة فقيرة سيفقدن مصدر رزقهن في لحظة.

ضربت فاطمة على صدرها بقلق وقالت:

- أعوذ بالله! لا تتحدثي بهذا التشاؤم حتى لا يقع.

حينها توقف القارب عند الضفة الأخرى. قفزت إينشا مسرعة، وتبعتها المرأتان وهما تواصلان الحديث. قطعت إينشا كلامهما قائلة:

- أمي أنا جائعة!

قطبت حميدة حاجبيها وقالت:

- اصبري قليلًا حتى نجد مكانًا لتناول الغداء!

أشارت فاطمة إلى مطعم يطل على البحيرة وقالت:

- هذا مطعم صيني يرتاده السياح كثيرًا لأنه يقع في قلب المدينة، ما رأيكما أن نجربه؟

أمسكت حميدة بذراع فاطمة وقالت رافضة:

- يبدو من مظهره أن أسعاره مرتفعة، فلنبحث عن مطعم محلي.

لكن فاطمة أصرت بحماس، وهي تشدهما معها بسعادة:

- لا تقلقي، هذا اليوم هدية مني لكما. دعينا نجرب طبقًا صينيًا ولو مرة واحدة!

ما إن وضع النادل الأطباق على الطاولة وانصرف، حتى قالت فاطمة وهي تستنشق الرائحة بتلذذ:

- إنه النودلز الشهي! تناولته مع شريف ذات مرة. هيا، بسمِّ الله.

ضحكت حميدة وإينشا وهما تطبقان إرشادات فاطمة المازحة في تناول النودلز. غير أن السكون الرتيب الذي يسيطر على المطعم انقطع فجأة بصوت ارتطام كرسي بالأرض. تجمدت إينشا في مكانها ورفعت رأسها مذعورة، فرأت رجلًا ذا ملامح غريبة، بلحية طويلة وعمامة ضخمة تلف رأسه. كان يتقدم نحو طاولتهن محاطًا برجلين ضخمين هرعا خلفه ما إن تحرك. ولما بلغ محاذاة الطاولة، نهضت فاطمة واقفة، وقد تقابل كرسيها

مع موضـــع وقوفه، وقالت بصـــوت مرتجف، وقد انعقد حاجباها وانتفخ صدغها:

- أنت!

قبضـت حميدة على الشـوكة بين أصـابعها دون أن ترفع رأسـها. أما الرجل فرفع ذقنه ونظر إليها بطرف عينيه، وهو ينفث أنفاسًـا حادة من أنفه المعوج، ثم قال بصوت كصرير باب صدئ:

- أرى أنكِ ما زلتِ حرة طليقة!

ثم أمال بصـــره نحو إينشـــا، التي أرعبها منظره ونفرت من رائحته النفاذة، وابتسم قبل أن ينحني ممسكًا بذقنها، رافعًا وجهها نحوه:

- لا عجب أن تكوني بهذا الجمال الصاخب، فأنتِ ابنة أمك!

استدارت حميدة بسرعة، دون أن تنظر إليه، وجذبت إينشـا إليها تحتضـنها، بينما تقدم النادل متوترًا وقال متوسلًا:

- أرجوك، عد إلى مكانك يا سيدي.

رمقه الرجل بغضب، ثم أعاد نظره إلى حميدة وقال بنفاد صبر:

- سنلتقي مجددًا بلا شك، وحينها لن أتركك وشأنكِ.

بعد أن غادر المطعم يتبعه رجاله، جلست فاطمة مجددًا وهي تتمتم بحنق:

- المهراجا المجنون! أما زال ينفث سمومه على هذه الأرض؟

نظرت إينشـا إلى والدتها بدهشـة؛ فعلى غير عادتها، بدت حميدة متماسـكة هادئة، وعادت إلى طعامها وكأن شيئًا لم يحدث، ثم قالت بهدوء:

- أسرعا حتى نلحق بالمؤسسة قبل الإغلاق.

ابتسمت فاطمة وقالت بمرح:

- فعلًا، يجب أن ننهي مشوارنا هذا بسلام.

وقفت السيدة شاميما بسعادة غامرة حين دخلت النسوة إلى مكتبها الواقع في الطابق الثاني من مبنى المؤسسة البسيط. فتحت ذراعيها لتعانق حميدة التي أقبلت نحوها بشوق، وقالت:

- يا لها من مفاجأة سعيدة! مضى وقت طويل منذ رأيتك آخر مرة يا ابنتي.

ابتسمت حميدة وقالت:

- أردت أن تتعرف إينشا إلى مدينتها، ورأيت أن من المناسب أن أصطحبها معنا اليوم عند تسليم العمل.

التفتت السيدة شاميما نحو إينشا، التي كانت تبتسم ببراءة، وأشارت إليها قائلة:

- اقتربي يا عزيزتي. لقد كبرتِ وأصبحتِ تعبقين بطيب هذه الأرض.

كانت المرأة في أواخر الأربعينيات، ممتلئة الجسد، ترتدي ثوبًا بنجابيًا أخضر تزين أطرافه نقوش حمراء، وقد أسدلت على رأسها وشاحًا بلون النقوش نفسها، لكنه لم يخف شعرها تمامًا؛ إذ كانت خصلات بيضاء تتمرد بالخروج كلما انحنت إلى الأمام.

وضعت حميدة حقيبة الملابس التي حاكتها، وبدأت تخرج القطع واحدةً

تلو الأخرى، بينما تلألأت عينا السيدة شاميما إعجابًا بروعة التطريزات، غير أن ذلك البريق خبا سريعًا وهي تقول بقلق:

- لقد كانت مدة قصيرة، ومع ذلك أنهيتِ كل القطع! أعلم أنكِ ماهرة كعادتك، لكن لا ترهقي نفسك كثيرًا.

ابتسمت حميدة وقالت وهي تضع الحقيبة جانبًا بعد أن أفرغتها:

- لا تقلقي يا خالتي، أنا أجد في العمل تسليةً، فالفراغ يحطم الإنسان كما تعلمين.

وقفت السيدة شاميما، وأخرجت مفتاحًا من درج مكتبها، ثم اتجهت نحو خزانة بجوار المكتب وهي تقول:

- أفهم ذلك جيدًا. معظم نساء المؤسسة مثلك، وحتى العاملات في المصنع يسابقن الوقت دائمًا. عجلة الحياة تمضي بسرعة مخيفة، وأخشى أن تنحرف يومًا إلى طريق لا تُحمد عقباه.

جحظت فاطمة بعينيها وقالت متبرمة:

- ما بكِ متشائمة هكذا؟ ما الذي لم يحدث بعد حتى تنقلب حياتنا إلى الأسوأ؟ نحن نعيش في الجحيم فعلًا!

تنهدت السيدة شاميما، وعادت إلى كرسيها تحمل مظروفًا أصفر، ثم قالت وهي تعد المال الذي بداخله:

- لست متشائمة، لكن المداهمات والتفتيش ازدادت مؤخرًا، وأخشى أن تقع مواجهات جديدة قريبًا.

نظرت فاطمة بقلق نحو حميدة، لكن صوتًا اقتحم المكان قائلًا:

- ما دامت هذه الاجتماعات المشبوهة تُقام، فلا أمل في توقف حملات التفتيش المقيتة!

التفتت النسوة إلى السيد أفتاب، الذي كان يقترب منهن ضاحكًا بعدما خلع قبعته تحيةً لهن. كان قصير القامة، أصلع مقدمة الرأس، يرتدي قبعة تشبه قبعات الموسيقيين ليخفي صلعته اللامعة، ويستقر تحت أنفه شارب ضخم. قدّرت إينشا أنه في عمر السيد شريف تقريبًا، لكنه بدا أغرب أطوارًا بكثير.

رمقته فاطمة بحنق، بينما حبست حميدة ضحكة كادت تنفلت منها حين رأت ملامح صديقتها. أما السيدة شاميما فنهضت مرحبة به قائلة:

- أوه، سيد أفتاب! لم أتوقع حضورك اليوم، تفضل.

اعتذر الرجل بانشغاله بعدما شعر أن وجوده غير مرحب به، ثم التفت إلى حميدة مبتسمًا وقال:

- أشرقت المدينة بقدومك بعد هذا الغياب الطويل، إنه يوم مميز حقًا.

طأطأت حميدة رأسها بخجل شاكرة، بينما أخرج السيد أفتاب بعض القطع النقدية من جيب قميصه وقال لإينشا:

- تفضلي يا صغيرتي، هذه هدية من عمك!

هزت إينشا رأسها رافضة وقالت:

- أشكرك كثيرًا يا سيدي، لكنني لا آخذ مالًا دون جهد.

رفع السيد أفتاب حاجبيه، وجال بنظره بين النسوة في حيرة، ثم قال محاولًا إقناع إينشا:

- لكنها هدية. ألا تقبلين الهدايا؟!

قالت إينشا بصرامة أكبر:

- أقبل الهدايا، لكنني لا أقبل المال يا سيدي.

تدخلت حميدة لتخفف الموقف قائلة بابتسامة:

- إنها هكذا مع الجميع، لا بأس يا سيدي، وشكرًا لمشاعرك الطيبة تجاه هذه الطفلة.

ابتسم السيد أفتاب، وأعاد النقود إلى جيبه قائلًا:

- لا بأس.

ثم رفع بصره نحو السيدة شاميما وهو يغادر:

- سأعود في وقت لاحق!

وبعد خروجه، انحنت حميدة نحو ابنتها وهمست في أذنها:

- أحسنتِ.

❊ ❊ ❊

١١

استلقى ألطاف على فراشه وهو شارد الذهن يفكر فيما قاله مظفر. تمتم بقلق وحيرة: "سجن تيهار! لقد أرعبتهم يا نذير!"

قطع حبل أفكاره قرعٌ شديد على الباب، فتحه فرأى السيد شريف. قال وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة ويشير باتجاه البلدة:

- القوات الهندية تعتدي على الناس في الشوارع وتطلق الغاز المسيل للدموع. لقد سقط أحد الفتية شهيدًا.

هرع ألطاف ليرتدي حذاءه وانطلق خارجًا يركض باتجاه الشارع الرئيسي ولم يستطع السيد شريف إيقافه أو حتى مجاراته في الركض.

❊ ❊ ❊

١٢

نظرت حميدة إلى فاطمة الجالسة بجوارها في الأوتوركشا، بينما كنّ في طريقهن نحو الضفة اليسرى من بحيرة دال. قالت وهي تعيد بصرها إلى الشارع:

- إلى أين تأخذيننا يا فاطمة؟ وما بالكِ شاردة الذهن؟!

التزمت فاطمة الصمت، فيما راحت حميدة تراقب الشوارع المكتظة التي بدت، على غير عادتها، أكثر اضطرابًا وتوترًا، فقالت بقلق:

- أُفضل أن نعود الآن، تأخر الوقت.

قالت فاطمة وهي تربت على يدها:

- لا تقلقي. سآخذ غرضي، ونعود فورًا بإذن الله.

أطرقت حميدة برأسها، ولم تجرؤ على الإلحاح. وما إن توقفت العربة حتى اندفعت فاطمة، تتبعها حميدة وابنتها في حيرة. وحين ظهرت القبة البيضاء التي يشتهر بها مزار حضرتبال، توقفت حميدة وهتفت برفيقتها كي تتريث، لكن فاطمة لم تلتفت، وواصلت سيرها السريع. أسرعت حميدة خلفها، وقد اتسعت خطواتها، وهي تنادي:

- توقفي فاطمة، أريد أن أقول لكِ شيئًا!

وحين أدركتها، أمسكت بطرف ثوبها، فاضطرت فاطمة إلى التوقف وقالت بنفاد صبر:

- ما بكِ؟ انتظريني هنا إن لم ترغبي في المجيء.

هزّت حميدة رأسها نافية وقالت:

- لا، ليس هذا ما قصدته، ولكن... ماذا تريدين من المزار يا فاطمة؟ أنتِ لم تأتِ لأجل التمائم؟

استدارت فاطمة نحو حميدة، وأمسكت كتفيها وهي تقول:

- الأوضاع تنذر بالسوء، ويجب أن نحصّن أنفسنا. إنها أذكار مباركة، ولا بد أن نأخذ منها جميعًا!

أمسكت حميدة بكفي فاطمة وأنزلتهما برفق، ثم شدّت عليهما قائلة:

- احفظي الأذكار المباركة في قلبكِ يا فاطمة. التمائم لا تجوز يا عزيزتي، وقد نهى عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

رددت فاطمة الصلاة على النبي بصوت خافت، ثم قالت بإصرار:

- لكن المزار، كما تعلمين، مكان مقدس.

قطعت إينشا جدالهما الحاد وهي تشير إلى السماء:

- أمي... هناك أعمدة دخان تتصاعد في الأفق!

شهقت فاطمة مذعورة:

- يا إلهي! لنذهب إلى المزار حالًا.

ارتبكت حميدة، وشدت فاطمة في اتجاه العودة قائلة:

- لا، لا... لنعد الآن. لن أبقى هنا لحظة أخرى!

حاولت فاطمة إقناعها، لكن حميدة بقيت مصرة. وحين رأت إصرار فاطمة

على البقاء، أمسكت بيد إينشا وقالت:

- سنعود نحن إذًا.

صرخت فاطمة بها أن تنتظر، ثم تنهدت وانطلقت خلفهما.

❊ ❊ ❊

١٣

لم يجد ألطاف مركبة توصله إلى البلدة، فأخذ يركض هائمًا، تطارده الهواجس، بينما يقاوم عبرة تكاد تفر من عينيه، ويتمتم بالأدعية لعلها تطرد تلك الخواطر السوداء. وبعد مسافة طويلة لمح سيارة تسير ببطء، فأسرع نحوها صارخًا بالسائق أن يتوقف، ثم قفز إليها على عجل:

- خذني إلى البلدة أرجوك.

صاح به الشيخ الذي يقود السيارة:

- هل أنت مجنون!

وبعد أن لمح ذلك البريق في عيني ألطاف؛ بريق لا يعرفه إلا أبناء تلك البلاد: العجز، واليأس، وخوف الفقد. أشياء صارت لديهم مألوفة كالماء والهواء وشروق الشمس كل صباح. ترجل الشيخ من مقعد القيادة وقال:

- لا أجيد القيادة بسرعة... قدها أنت.

توقفت السيارة عند مدخل المدينة، فقال الشيخ معتذرًا:

- لن أدخل يا بني، فأنا متجه إلى نهر "جيلهم".

شكره ألطاف وانطلق راكضًا نحو المؤسسة. كان الطريق طويلًا، والعثور على مركبة وسط ذلك الاضطراب أمرًا عسيرًا، لكنه لم يفقد الأمل.

كان العصر قد انتصف، وحميدة تركض ممسكة بيد إينشا بقوة، بينما تتبعهما فاطمة وهي تلتفت حولها بحثًا عن مركبة شاغرة. كانت الشرطة الهندية

تملأ الشـوارع، تتحرك بعصـبية، وتنقض فجأة على أحد المارة فتنهال عليه ضـربًا، فيما يتجمع الناس في زوايا متفرقة، غاضـبين من تلك الاعتداءات المباغتة، ويهتفون بشعارات تطالب برحيل قوات الاحتلال عن المدينة.

كان الجميع يترقبون ما سـتؤول إليه الأمور، وكلما ازداد بطش الشـرطة، حمل الرجال والنسـاء العصـي والحجارة دفاعًا عن أنفسـهم. وفي قلب هذه الفوضـى كانت طفلة لم تتجاوز الثامنة ترى العنف لأول مرة، وتدور في رأسها أسئلة موجعة: لماذا؟

وصـلت النسـوة إلى أحد الأزقة، فإذا ببعض الجنود يطلقون قنابل الغاز نحوهن. سـارعت حميدة إلى تمزيق طرف وشـاحها، فلفّت به رأس إينشـا وغطّت أنفها، لكنها بدأت تسعل بعنف، فصرخت في فاطمة:

- خذي إينشا واذهبا من هذا الطريق!

قالت فاطمة وسط صرخات إينشا الرافضة:

- تعالي معنا، ماذا أصابكِ مجددًا؟!

صاحت حميدة بصوت متقطع من شدة السعال، وقد احمرت عيناها:

- استنشقت الغاز... سأذهب إلى الحمامات العامة هناك لأغسل وجهي، ثم ألحق بكما.

أذعنت فاطمة، وأمسكت بيد إينشا، لكن حميدة استوقفتها قائلة بوهن:

- لا تتركيها... أبدًا.

عمت الفوضى المكان، بينما كانت إينشا تركض مع فاطمة وهي تصرخ:

- أمي! أريد أمي!

وفجأة تجمدتا في مكانهما. كان ألطاف ممددًا على الأرض، يصرخ مستغيثًا، بينما أحاط به عدد من الجنود ينهالون عليه بالعصي والهراوات.

أفلتت إينشا يد فاطمة المصدومة، وركضت صارخة: اتركوه! أرجوكم اتركوه!

لم تعرف الصغيرة كيف تنقذه بجسدها الضئيل وصوتها المرتجف. جثت على ركبتيها، تتشبث مرة بحذاء أحد الجنود، ومرة ببنطال آخر، تستجديهم أن يتركوا عمها. دفعها أحدهم بعنف، ورفع عصاه ليضربها، لكن ألطاف قفز نحوه، رغم الرضوض التي تغطي جسده، ودفعه بعيدًا عنها، فزاد ذلك الجنود شراسة في الانقضاض عليه.

كانت فاطمة تستغيث بالمارة، بعضهم تراجع خوفًا، بينما اندفع آخرون بعصيهم لإنقاذ ألطاف. وبعد شد وجذب، انسحب الجنود أخيرًا، وقد تورمت عينا ألطاف واحمرّ وجهه بالدم والكدمات.

"لا أستطيع نسيان ذلك اليوم الذي رأيت فيه العنف بكل وجوهه؛ الضرب، والسحل، وإهانة الكبير والصغير. عمي ينظر إليّ بعينين متورمتين وجسد متقرح، وأمي لم تعد بعد. الداخلون والخارجون من المشفى لا ينقطعون، والأنين يملأ المكان. وعلى بعد سريرين من سرير عمي كان يرقد فتى في السابعة عشرة، ساكنًا كأنه نائم. قالوا إن استشهاده بقنبلة غاز كان الشرارة الأولى..."

١٤

سلّط الطبيب ضوء مصباحه الصغير في عيني ألطاف، ثم تفحّص الكدمات التي تغطي جسده، ودوّن ملاحظات سريعة في مفكرته قبل أن يوصي الممرضة الواقفة إلى جواره ببعض التعليمات ثم انتقل إلى السرير المجاور.

التفت ألطاف إلى إينشا. كانت الدموع قد جفّت في عينيها، فقال بألم:

- هل جننتِ؟ حتى لو رأيتِني أموت أمامكِ، فلا تقتربي منهم.

قالت بين شهقات كادت تتحول إلى بكاء:

- لم أشأ أن أفقدك أنت أيضًا.

استعاد ألطاف ما حدث، فصاح بها:

- لا تجثي على ركبتيكِ أمامهم أبدًا. أنتِ حفيدة المناضل الكبير مصطفى واني، وما فعلته لا يليق بكِ!

أجهشت إينشا بالبكاء، فاحتضنتها فاطمة وقالت غاضبة لألطاف الذي أدار وجهه للناحية الأخرى:

- ما بالك تخاطب الطفلة بهذه القسوة؟ لقد صدمنا جميعًا ما حدث.

تنهد ألطاف، ثم سأل بلهفة وقد انعقد حاجباه:

- أين زوجة أخي؟!

كانت الشمس قد غربت، ولم تعد حميدة بعد. أخرجت فاطمة هاتفها واتصلت بالسيد شريف، الذي كان قد وصل إلى المدينة قبل قليل. وبعد أن

دلّته على المشفى، قررت الخروج للبحث عن حميدة قبل أن يشتد الظلام. حاول ألطاف إقناعها بأن يرافقها، لكنها رفضت بحزم؛ فهو بالكاد يستطيع الحركة.

اشتعل في صدر ألطاف شعور قاسٍ بالذنب، ولم يفارق ذهنه هاجس واحد يردد: "لقد فرَّطتُ في الأمانة يا نذير."

أطلت إينشا من نافذة غرفة المشفى تراقب الخالة فاطمة وهي تغادر بحثًا عن صديقتها المفقودة، بعدما اطمأنت إلى توقف المناوشات في الخارج. ومع ذلك ظل القلق ينهش صدرها، وندمت على ترك حميدة وحدها.

كان المكان حيث افترقتا فيه خاليًا. بحثت فاطمة في أرجائه، وتفقدت الحمامات وما حولها، لكنها لم تجد أي أثر لحميدة. حدثت فاطمة نفسها قائلة: "لا شك أنها ذهبت إلى مكان ما، إنها حميدة.. قليلة الصبر."

وحين همت بمغادرة المكان سمعت صوت السيد أفتاب يخاطبها من الخلف:

- هل تبحثين عن السيدة حميدة؟ إنها في مكان آمن.

أشرق وجه فاطمة، وأسرعت نحوه قائلة بفرح:

- الحمد لله، الحمد لله، أرجوك خذني إليها.

قال السيد أفتاب وهو يقود سيارته باتجاه المؤسسة النسوية:

- كانت متيقنة أنكِ ستعودين للبحث عنها، لذلك طلبت مني أن أنتظركِ هنا. لقد فُرض حظر التجول، وقد تواجهين بعض

المتاعب.

قالت فاطمة ممتنة:

- هذا لطف منك. أنت تعلم ما مرت به من تجارب قاسية.

قاطعها السيد أفتاب منتشيًا:

- هذا واجبي، فنذير صديق عزيز.

صمتت فاطمة لحظات، ثم سألت:

- لكن ماذا حدث خلال هذا الوقت؟ ظننت أنها ستلحق بنا سريعًا.

زفر أفتاب بضيق وقال، وكأنه يريد إنهاء الحديث:

- اسأليها لاحقًا.

استندت فاطمة إلى المقعد في الخلف وهي تعض شفتها السفلى في غيظ؛ فقد عاد إليها ذلك النفور القديم الذي تكنّه لهذا الرجل.

❊ ❊ ❊

١٥

مرّ أسبوع على بداية الأحداث، وأربعة أيام على عودتهم إلى القرية. فبعد فرض حظر التجول ومحاولات كسره، بات الخروج من المدينة أو دخولها مهمة شاقة لا تخلو من التفتيش والاستجواب.

دخل ألطاف المنزل حاملًا صندوقًا كرتونيًا. ألقى السلام، ثم جلس على الأرض قرب حميدة وفاطمة، التي اعتادت المجيء يوميًا لتمضي بعض الوقت معها. أدار بصره في أرجاء الغرفة وسأل:

- أين إينشا؟

أجابت حميدة وهي تشير إلى المطبخ:

- تُرتِّب حُزم الحطب الذي جمعناه اليوم.

تطلعت فاطمة إلى الصندوق بين يديه وقالت:

- ماذا لديك؟

فتحه ألطاف ثم أخرج هاتفًا محمولًا صغيرًا أزرق اللون. قالت فاطمة بدهشة:

- هاتف محمول! ألست تملك واحدًا أصلًا؟

قال ألطاف وعلى وجهه ابتسامة المنتصر:

- هذا لحميدة. آن الأوان لتقتني هاتفًا، ولا مجال للرفض هذه المرة.

عقدت حميدة حاجبيها وقالت مستنكرة:

- تعلم أنني لا أحب هذه الأشـياء يا ألطاف. ثم ألم أطلب منك ألا تذهب إلى المدينة؟ إنهم لا يخافون الله فينا، ولسـنا مسـتعدين لفقدانك يا بني.

في تلك اللحظة خرجت إينشا من المطبخ مسرعة. وما إن وقع بصرها على الهاتف حتى اتسعت ابتسامتها وقالت:

- ما أجمله! أمي، أرجوكِ اقبليه، سنتمكن من الحديث مع ألطاف من أي مكان.

ضحك ألطاف، ثم التفت إلى حميدة وقال بجدية:

- الاحتجاجات ما تزال مستمرة، وكذلك القمع. كل يوم يسقط شهيد جديد، وحملات اعتقال الناشـطين السـياسـيين والحقوقيين لا تتوقف. هل تريدينني أن أقف مكتوف اليدين؟ أنتِ من علمتني أن القوة في الجماعة، وأن الله خير الحافظين.

صمت لحظة وهو يراقب إينشا تقلب الهاتف بين كفيها الصغيرتين بسعادة، ثم أردف:

- ثم إن ذلك المهراجا القذر عاد لمضايقتنا. ولن أطمئن ما لم أستطع الوصـول إليكما في أي وقت. احرصـا دائمًا على إبقاء الهاتف مشحونًا.

هزّت فاطمة رأسها موافقة وقالت:

- ألطاف محق. كان ينبغي أن تقتني هاتفًا منذ البداية. فلولا الله، ثم

السيد أفتاب، لما تمكنت من العثور عليكِ.

ضحكت حميدة وقالت:

- لا أعلم من أين ظهر ذلك الرجل. عندما خرجت من الحمامات وجدته يتجول في المنطقة، وما إن رآني بدا عليه الذعر، وأصرّ على أن ألحق به للاختباء، قائلًا إنهم ينفذون اعتقالات عشوائية.

تنهدت فاطمة وقالت وهي ترفع كفيها إلى السماء:

- الحمد لله أنك بخير، ورحم الله الشهداء.

ردد الجميع: آمين.

بعد قليل استأذنت فاطمة للمغادرة، فرافقتها حميدة إلى الخارج. واغتنمت إينشا الفرصة والتقطت الهاتف وهمست:

- هل فيه ألعاب؟ أريد لعبة كالتي في هاتفك.

ضحك ألطاف وهمس مقلدًا نبرتها:

- تقصدين لعبة الثعبان؟ نعم، موجودة. لكن لا تلعبي بها كثيرًا حتى لا تنفد البطارية.

هزّت رأسها موافقة في حماس. وعندما عادت حميدة إلى الغرفة، وجدتهما يتبادلان النظرات ويكتمان ضحكاتهما. فابتسمت وسألت:

- بماذا كنتما تتهامسان؟

انفجر الاثنان ضاحكين، فتوجهت حميدة نحو آلة المغزل وهي تضحك بدورها.

١٦

أوقف الشيخ سيارته العتيقة خلف هضبة تحجبها عن الطريق، ثم أنزل ما عليها من طعام وملابس واتجه نحو كوخ متهالك تكسوه أغصان كثيفة لأشجار باسقة. ألقى نظرة خلفه ليتأكد من أن أحدًا لم يتبعه، ثم دفع الباب المتآكل وألقى السلام.

وضع حمولته في أحد أركان الكوخ، ثم تناول قارورة ماء أحضرها معه واتجه نحو الرجل المستلقي في الجهة الأخرى قائلًا:

- قم يا بني واشرب، فالجو جاف هذه الأيام.

تحرك الرجل بصعوبة حتى استوى جالسًا. كان ضخم الجثة، عريض المنكبين، كثّ الشعر واللحية، تبدو على ملامحه آثار إرهاق شديد، من دون أن تنال من صلابة بنيته.

تناول القارورة وفتحها، ثم أخذ يشرب منها على مهل. وبعد بضع رشفات باغته سعال حاد، فكاد يختنق. أسرع الشيخ إليه وربت على ظهره بقبضته الواهنة حتى هدأ السعال.

قال الشيخ بقلق وهو يلتقط بعض الملابس من الحمولة التي أحضرها:

- هل اغتسلت بالماء الذي جهزته لك؟

لم يتلقَّ جوابًا، فاستدار ليجده شارد الذهن، فأردف:

- يبدو أنك مررت بالكثير من المتاعب. لا تقلق، ستتحسن تدريجيًا.

قم الآن وبدّل ملابسك بهذه النظيفة.

ابتسم الرجل شاكرًا، وأخذ الملابس بصعوبة، ثم قال وهو يحاول خلع ثوبه:

- ما آخر الأخبار؟

تنهد الشيخ بأسى وقال:

- انتفاضة مغدورة... وشعب يتضور جوعًا.

سكت الشيخ لحظة، قبل أن تتسع عيناه وهو يتأمل الجراح والكدمات التي تغطي جسد الرجل:

- ألا ترغب في الذهاب إلى المشفى؟

أطلق الرجل زفرة متألمة وهو يحاول ارتداء قميصه وقال:

- أريد منك أن تمهلني بضعة أيام، ثم سأغادر بإذن الله.

لم يُبد الشيخ اعتراضًا لكنه قال وهو يهم بمغادرة الكوخ:

- حسنًا أيها الشاب. لا أعلم ما حكايتك، لكنني آمل أن تتجاوز محنتك سريعًا وتجد مكانًا أفضل للعيش. فهذا الكوخ لا يقي من تقلبات الطقس.

توقف عند الباب واستدار نحوه قائلًا:

- هلا أخبرتني باسمك؟

صمت الرجل برهة، ثم قال ببطء:

- أنا... صادق.

ابتسم الشيخ بعفوية وقال وهو يهم بالخروج:

- وأنا اسمي سارفاراز، لكن الجميع ينادونني: رفيق شاه.

تابع الرجل بنظره الشيخ المغادر. كان يحمل عصًا تشبه غصن شجرة قُطع حديثًا، ويرتدي ثوبًا قديمًا وقبعة إسلامية، شأنه شأن معظم القرويين في هذه المنطقة. ورغم تقدمه في السن، كان يتحرك بخفة لافتة، كأنه شاب في مقتبل العمر.

❊ ❊ ❊

١٧

(آب) أغسطس ٢٠١٠

نظر مظفر إلى لوحة محل استوديو التصوير الرقمي المقابل للمقهى الذي يرتاده دائمًا. عاد بذاكرته إلى ذلك اليوم الذي جاء فيه لالتقاط صورة شخصية لإرفاقها بملف قضيته، ولأنه لم يكن مقتنعًا بتلك الخطوة، رافقه نذير ليمنحه الثقة الكافية لدخول المحل والتقاط الصورة. لطالما كان كثير التردد والقلق، قليل الثقة بنفسه، وكان نذير الأرض الصلبة التي استند إليها في أصعب أوقاته.

ارتسمت على شفتيه ابتسامة بائسة وهو يتذكر ملامح ذلك الرفيق المخلص، صاحب السمات الجادة والروح المتفائلة. كان دائمًا شعلةً متقدة. قطع تفكيره صوت الكرسي المجاور وهو يتحرك. أدار رأسه فرأى ألطاف وقد جلس وهو يقول:

- اعذرني على التأخير، فقد أوصلت بعض الأغراض إلى المؤسسة.

ابتسم مظفر وقال مازحًا:

- أنت تؤدي مسؤوليتك على أكمل وجه، أخشى أن يعود نذير فلا يجد له مكانًا!

ضحك ألطاف وقال وهو يحرك سبابته:

- احذر أن تسمعك زوجته.

سكت هنيهة، وشبك أصابع يديه، وأردف:

- جميعنا بحاجة إليه، وأنا أولهم يا أخي. لقد رُفع حظر التجول، وأتمنى أن نستعجل الخطوات القادمة ونغادر حالًا.

هز مظفر رأسه موافقًا وقال:

- وهذا ما سيحدث، ولكنني سأغادر وحدي.

تفاجأ ألطاف بالرد وقال وقد عقد حاجبيه غضبًا:

- لم نتفق على ذلك. سأذهب معك وإن كلفني الأمر حياتي!

وقف مظفر وأمسك كتفيه محاولًا تهدئته:

- أعلم أنك شجاع، لكنك قد تتعرض للخطر إذا عُرفت هويتك. ثم إنك ما زلت يافعًا، ولا أعلم ما الذي سيحدث بالضبط، لكنني لست متفائلًا بقدومك.

أسند ألطاف كفيه إلى وركيه وتنهد بضيق وهو يفكر في حيرة. وفجأة هز رأسه وقال صارخًا:

- لا، لا، لا. سئمت كل هذا. سأذهب معك. لن تغادر من دوني، وهذا قرار نهائي. إنها ليست المرة الأولى.

ثم غادر مسرعًا مثلما حضر. وعاد مظفر إلى مقعده وجعل يفرك لحيته في حيرة وهو يحدث نفسه: "شجاع ومتهور... كيف سأتعامل معه!"

****

صدحت صفارة القطار الموشك على الانطلاق من محطة سرينغار باتجاه

العاصمة نيودلهي. نظر مظفر إلى الساعة السوداء المحيطة بمعصمه بإحكام؛ كانت قد تجاوزت السابعة والنصف صباحًا. ثم حوّل بصره نحو الرصيف الممتد بمحاذاة السكة الحديدية. كان هناك كثير من الناس بملامح مختلفة، تخفي خلف أقنعة اللامبالاة حكايات وهمومًا عصية على النسيان. كان بين الحشود عدد لا بأس به من ذوي البشرة البيضاء؛ فقد أوشك موسم السياحة على الانتهاء، وها هم يغادرون تلك الجنة على عجل، وربما بلا عودة.

بينما كان مظفر يحرك ساقه بتوتر ملحوظ، التفت إلى ألطاف الجالس إلى جواره وقال عابسًا:

- ترى كيف أقنعت السيدة حميدة بمجيئك معي؟

ابتسم ألطاف وقال بزهو:

- حميدة لا تعلم شيئًا عن عودتك، فلا تقلق. أما إقناعها فلم يكن صعبًا.

هز مظفر رأسه معلنًا عدم اقتناعه، لكنه آثر الصمت، محاولًا التفكير في طريقة يجنب بها ألطاف تبعات هذه الرحلة الشاقة.

❊ ❊ ❊

١٨

في المنزل، كانت حميدة تسند رأسها إلى حضن فاطمة. قالت وهي تمسح دموعًا انسابت على خديها رغمًا عنها:

- هل تعتقدين أنهم قد وجدوه؟ هل هو على قيد الحياة؟

تنهدت فاطمة وابتسمت وهي تهز رأسها بالإيجاب، ثم ربّتت كتف حميدة. كانت إينشا ترتدي ملابس العمل حين سمعت صوت والدتها الحزين. أطلت برأسها إلى غرفة المعيشة. كان لديها تساؤلات كثيرة تخشى الإفصاح عنها، لكنها اكتفت بما تعرفه من معلومات قليلة عن أبيها. تعلم أن والدتها أكثر النساء تعقلًا، لكنها تفقد اتزانها كلما تعلق الأمر بالماضي.

أغلقت إينشا باب المنزل وغادرت بصحبة الخالة فاطمة بعد أن اعتذرت والدتها عن مرافقتهما ذلك اليوم. نظرت إلى الخالة وفكرت أنها قد تحصل منها على بعض المعلومات إن أطلقت العنان لأسئلتها المكبوتة.

تنحنحت كمن يريد قول شيء، فبادرتها الخالة قائلة:

- ماذا تريدين أن تصبحي حين تكبرين يا إينشا؟

ابتسمت الصغيرة وقالت وكأنها انتظرت هذا السؤال طويلًا:

- محامية مثل والدي.

اختفت الابتسامة من وجه فاطمة، مما أثار استغراب إينشا؛ فهي تعرف أن والدها كان محبوبًا من الجميع. قالت فاطمة بلطف وهي تنظر إلى إينشا

تارة وإلى الطريق تارة أخرى:

- لكن هذا العمل شاق عليك يا ابنتي. لِمَ لا تصبحين معلمة؟

هزت إينشا رأسها رافضة وقالت بثقة:

- أنا أجمع الحطب، وأحمل ثلاث حزم مجتمعة على ظهري دون مساعدة، وأساعدك في إزالة الأعشاب الضارة من الحقل، وإذا أردتِ فبإمكاني أن أقود قطيع أغنام السيد محمد قادر إلى المرعى وأعيده. فكيف يصعب عليّ أن أدافع عن حقوق الآخرين؟

ابتسمت فاطمة لطريقتها البريئة في المقارنة، وقبل أن تقول شيئًا أردفت الطفلة:

- هل سيعود أبي؟

صمتت فاطمة حين تذكرت الحماقة التي ارتكبتها بإخبار حميدة عن الرجل الذي حضر في غيابها، وتركت إينشا تغرق من جديد في ذلك الغموض القاتل.

❊ ❊ ❊

١٩

في الطريق، كان التوتر يهيمن على مظفر ما دفعه إلى التردد على دورة المياه أكثر من مرة. وحين عاد للمرة الثالثة استقبله ألطاف مازحًا:

- يُفترض أن أكون أكثر توترًا منك!

ابتسم مظفر، معللًا الأمر بأنه اعتاد ذلك أثناء السفر، بينما احتفظ بحقيقة مخاوفه لنفسه. كان القطار قد قطع جلّ المسافة، ولم يبقَ سوى القليل قبل أن تطأ أقدامهما أرض العاصمة الهندية؛ المدينة التي كان كلاهما يكره مجرد التفكير في سمائها وهوائها وضجيج سياراتها. فلم يكن لهما فيها سوى البحث المضني عن الحق المفقود.

هبطا سريعًا من القطار واتجها إلى مطعم صغير مجاور لمحطة السكك الحديدية. وما إن رآهما شاب حتى نهض مرحبًا بمظفر. كان طويل القامة، نحيل البنية، حليق الذقن، خفيف الشارب، يرتدي نظارة ذات إطار أسود سميك، لا يفتأ يرفعها بإصبعه الأوسط.

قال مظفر مخاطبًا الشاب:

- هل سنتمكن من الدخول إن ذهبنا الآن؟

قال الشاب وهو يعدل نظارته مجددًا:

- لكنكما وصلتما للتو! لمَ لا تأتيان إلى منزلي لتناول الطعام وأخذ قسط من الراحة، ثم ننطلق صباح الغد في مشوارنا الكبير؟

راقت الفكرة لهما؛ فقد أرهقهما الجلوس الطويل في القطار. استقل الثلاثة سيارة أجرة انطلقت تشق طريقها في عمق المدينة حتى انتهت إلى أحد الأحياء البسيطة. وأمام منزل متواضع ترجل الشاب، فتبعه مظفر وألطاف.

همس ألطاف في أذن رفيقه متسائلًا عن هوية الشاب، فأجاب مظفر بصوت منخفض:

- اسمه أحمد وسيساعدنا في الوصول إلى مكان أخيك.

كان الشاب مهذبًا، وعلى الرغم من بساطة حال أسرته، فقد أحسن ضيافتهما. وبينما هم يتناولون الطعام قال الشاب لمظفر:

- حين أخبرت والدي بالاسم الذي طلبت مني البحث عنه، غاب عنا أيامًا. وحين عاد سألني عن صاحب هذا الاسم، فقد كان العثور عليه أشبه بالبحث عن براعم الخيزران في الشتاء!

ضحك مظفر وقال موضحًا لألطاف:

- والد أحمد يعمل في أحد مكاتب سجن تيهار، وبرغم أن السجن يُعد الأكبر في الهند ويضم أكثر من عشرة آلاف سجين، فقد استطاع، بفضل الله، أن يجد اسم نذير من بين آلاف الأسماء.

هز ألطاف رأسه بإعجاب، بينما قال أحمد موجهًا كلامه لمظفر:

- لم تعرفني بهذا الشاب اليافع!

قال مظفر باقتضاب وهو يتناول الطعام:

- يعمل في الحقل.

لم يشأ مظفر أن يزج بألطاف في أي متاعب محتملة، فابتسم أحمد وقد فهم قصده، ولم يعقب.

في اليوم التالي ترجل الثلاثة من الحافلة التي أقلتهم إلى الرصيف المحاذي للبوابة الرئيسية للسجن. لم يكن السور ضخمًا كما تخيل ألطاف، مما جعله يتساءل عن موقع السجن الحقيقي. أجاب أحمد وهو يتقدم نحو البوابة:

- هذه البوابة الخارجية، وهناك بوابات أخرى. لا تستعجل يا ألطاف، فستصاب بالذهول حين تراه من الداخل.

وقف الثلاثة خلف طابور الزوار أمام غرفة صغيرة تُفحص فيها الهويات، أخذ ألطاف يجول ببصره في المكان. كانت الساحة واسعة، وعلى مسافة غير قصيرة ارتفعت بوابة أضخم من سابقتها، يحيط بها سور شاهق تعلوه شرفات صغيرة ممتدة على طوله. وبرغم ارتفاع السور، كانت أبراج المراقبة تبدو واضحة على جانبي البوابة، يقف فوق كل منها جندي مسلح، بينما يخفي ما وراءها عالمًا ضخمًا وغامضًا في آن واحد.

وصل الدور إلى ألطاف. شعر بذراع مظفر تجذبه، فأدخل يده في جيب بنطاله بحثًا عن أوراقه. عقد حاجبيه حين لم يجدها، فأسرع إلى جيب قميصه، لكن يده عادت خاوية مرة أخرى. التفت إلى مظفر بغضب وهو يكاد يفتك به:

- أين أوراقي؟ أين بطاقتي المدرسية؟!

قال مظفر وهو يشده برفق خارج الصف:

- يجدر بك الانتظار في الخارج.

حدق ألطاف فيه بحدة، بينما كان يضـــم قبضـــته حتى برزت عروقها. كان متأكدًا أنه أحضـــر بطاقته معه، لكنه لم يتوقع أن يقدم مظفر على هذه الحيلة بعدما رفض اصطحابه منذ البداية. صرخ أحد الحراس مطالبًا إياه بالخروج، فانصاع للأمر وغادر من دون أن ينبس بكلمة.

ثم صاح مسؤول التفتيش بأحد الحراس:

- خذ هذين الاثنين إلى السجن رقم ثلاثة.

نظر الحارس إليهما بتأفف، ثم تقدم متجاوزًا الطابور نحو الساحة الداخلية. تبعه مظفر وأحمد الذي قال عابسًا:

- السجن الثالث؟ أشك في أنهم سيسمحون لنا برؤيته.

نظر إليه مظفر بدهشة، وقبل أن يسأل أردف أحمد:

- هناك يُحتجز الإرهابيون وأصـــحاب الجرائم الخطيرة، وعادة لا يُسمح بالزيارات.

تنهد مظفر وقال بقلق:

- ولماذا سمحوا لنا بالذهاب إليه إذن؟

قطع حديثهما صـــرير بوابة ضـــخمة فتحها الحارس. كانت المســـافة التي قطعاها طويلة، لكن القلق أنســـاهما ذلك. في أعلى البوابة كان هناك لوحة زرقاء كُتب عليها: "الســـجن رقم ٣- الجناح الثامن". دخل الحارس أولًا، ثم أشـار إليهما أن يلحقا به، قبل أن يتجه إلى مكتب صـغير تابع للجناح يقع

في مبنى مجاور.

همس الحارس ببضع كلمات للموظف الجالس خلف المكتب، ثم التفت إلى الرجلين وقال بتهكم:

- أتمنى لكما وقتًا ممتعًا.

لم يكن المكتب يحوي سوى طاولة حديدية تتوسط المكان، يجلس خلفها رجل بملابس مدنية، وإلى جواره خزانة ضخمة تضم مئات الملفات، بعضها أسود وبعضها أخضر.

وقبل أن يجلسا، سألهما الموظف:

- ما رقم السجين الذي تبحثان عنه؟

نظر مظفر بحيرة إلى أحمد، فأجاب الأخير وهو يعتدل واقفًا:

- السابع والأربعون بعد المائتين.

أخذ الموظف يقلب الملف الأخضر. وحين لم يعثر على ما يريد، نهض واتجه إلى الخزانة، وراح يمرر إصبعه على الملفات من أعلى إلى أسفل. وبعد دقائق من الانتظار الثقيل، عاد بملف أخضر آخر، ثم جلس وبدأ البحث مجددًا بين مئات الأسماء المصطفة على صفحاته. لم يتمالك مظفر نفسه، فسأله بلهفة:

- هل وجدته؟ هل يمكننا رؤيته الآن؟

قال الموظف بصوت أجش، وكأنه ينادي أسماء الطلاب في فصل دراسي:

- نذير مصطفى واني. التهمة: المشاركة في تكوين جماعات مسلحة.

الحالة: متوفى. سبب الوفاة: حريق. هل هذا من تبحثان عنه؟

لم يستوعب مظفر ما سمعه. نهض بعنف وضرب الطاولة وهو يقول متلعثمًا:

- ابحث مجددًا، لعلك أخطأت الاسم! إنه محامٍ، وليس له أي علاقة بأي جماعة.

التفت الموظف إلى أحمد، الذي بدت على وجهه علامات الحزن، وقال:

- وقعت أعمال شغب في السجن رقم اثنين قبل شهرين، واندلع حريق أودى بحياة عدد من السجناء الذين كانوا في مناوبة العمل بمعمل الخياطة ذلك اليوم. للأسف، يبدو أنه كان أحدهم.

جلس مظفر على المقعد واضعًا كفيه على رأسه، يئن من شدة الألم. تنهد أحمد ثم سأل الموظف:

- هل بقي شيء من أغراضه الشخصية؟ أو بعض رفاته؟ وهل صدرت شهادة وفاة بحقه؟

ابتسم الموظف بسخرية وهز رأسه نافيًا:

- احترق كل شيء. أما شهادات الوفاة فلم تصدر بعد، وبالنسبة للرفات فقد دُفنت مع رفات الآخرين.

انتفض مظفر من مكانه وصرخ:

- دفنتموه مع الآخرين! أليس لديكم حرمة للميت؟! ألا يحق لأهله أن يودعوه ميتًا بعدما حرمتموهم منه حيًا؟

صرخ الموظف في أحمد مقاطعًا ثورة مظفر:

- أخرجه من هنا، وإلا رميته في إحدى الزنازين، ولن يرى النور بعدها أبدًا!

نهض أحمد، مدركًا أنه لا جدوى من البقاء في ذلك المكان البغيض، وأمسك بمظفر وسحبه خلفه، وسط صرخاته المتوجعة ومحاولاته المستميتة للإفلات من قبضته.

خلال ذلك كان ألطاف في حالة عصيبة؛ يقضم أظافره، ويحرك قدميه بعصبية، ويجول ببصره في وجوه المارة. وكلما فُتحت بوابة السجن التفت إليها في لهفة، بينما تتنازع عقله أفكار متضاربة بين الأمل واليأس، ويعتصر قلبه مزيج من الألم والحنين.

"جدران حقيرة تفصلني عنك يا نذير. ترى ماذا تفعل الآن؟ هل يعذبونك؟ هل يحرمونك الطعام والنوم؟ أعلم أن ذلك لن يضعف عزيمتك، لكن لماذا أنا قلق إلى هذا الحد؟ وما لي أمقت الضعف الذي أعيش في كنفه؟ ولماذا لا تفارق الأفكار السوداء مخيلتي!"

وبينما هو يفكر سمع البوابة الخارجية تُفتح، ثم هب واقفًا حين رأى أحمد ومظفر يسيران على نحو غريب...

❊ ❊ ❊

٢٠

وقفت حميدة أمام المرآة المعلقة على جدار غرفتها، تحمل ثوبًا أصفر زيّنت أطرافه بشرائط من الدانتيل. رفعته إلى جسدها تتأمل هيئتها فيه، فارتسمت على شفتيها ابتسامة وهي تستعيد دفءَ عيني نذير حين أهداه إليها، وكيف كانتا تبرقان إعجابًا عندما رآها ترتديه للمرة الأولى.

مررت يدها على حافة الثوب، فاتسعت ابتسامتها قليلًا وهي تتذكر ما اعتراه من امتعاض حين قالت له إنها لم تكن تتوقع منه هدية بهذا الجمال. لكن الابتسامة ما لبثت أن انطفأت، وتحولت إلى شهقات بكاء متقطعة. وضعت يدها على فمها كأنها تحاول كتمان ألمها، ثم جلست في أحد الأركان تحدق في المجهول.

اكتست السماء بحمرة قانية، وكان الأفق يزداد قتامة كلما اقترب من الشمس الموشكة على الغروب خلف قمم الجبال. مسحت حميدة ما تبقى من دموعها، وأسرعت إلى الخارج، فرأت إينشا وفاطمة من بعيد تسرعان الخطى خشية أن يدركهما الليل وهما لا تزالان في الطريق.

نظرت إينشا إلى باقة الزهور متعددة الألوان التي تتمايل بين يديها بزهو، ثم رفعتها إلى أنفها تستنشقها قبل أن تقول بخيبة وحيرة:

- إنها بلا رائحة يا خالتي!

ولما لم تجد جوابًا، أعادت السؤال وهي تنظر إلى فاطمة التي التزمت

الصمت طوال الطريق. عندها التفتت الأخيرة من شرودها وقالت:

- حقًا؟ لا بأس، يكفي أنها جميلة.

حين اقتربتا من المنزل هرولت إينشـــا نحو والدتها، تلوّح بيديها وتصـــيح فرحًا. تقدمت حميدة واحتضـــنتها، ثم تناولت منها الباقة ورفعتها إلى أنفها تستنشقها بعمق، وقالت وقد انفرجت أساريرها:

- يا لها من رائحة جميلة!

قطبت إينشا حاجبيها وقالت مستنكرة:

- أي رائحة يا أمي؟ إنها بلا رائحة!

ضحكت حميدة، وأدنت الزهور من أنفها مرة أخرى وقالت:

- إنها تحمل رائحة يديك، وهذا يكفيني.

أخذت إينشا، كعادتها، تسرد لوالدتها ما فعلته خلال مساعدتها نساء القرية في حصـاد الزعفران، وكيف اسـتطاعت أن تحمل سـلة الخوص بمفردها طوال المساء. ثم راحت تصف ما رأته من مشاهد أخّاذة لحقول الزعفران الممتدة على أحد سفوح السهل؛ حقول أرجوانية زاهية تبدو كأنها مقطوعة موسيقية متناسقة، رغم ما مرت به من تقلبات جوية كادت تودي بها.

سـألت حميدة عن حال المحصـول وما إذا كان الموسـم سـيكون مجزيًا، فتنهدت فاطمة بضيق وقالت:

- إنني أرثي لحالنا. تعلمين أن الزعفران يوزن بالذهب، ومع ذلك لا يصل إلينا منه إلا الفتات.

تأملت حميدة إحدى الزهرات بين أصابعها وقالت بشرود:

- أضيفي إلى ذلك صعوبة الري وقلة الإنتاج. لم يعد الزعفران مجديًا كما كان. أخشى أن تأتي أجيال تقضي على هذه الحقول نهائيًا.

صرخت إينشا مقاطعة حديثهما المتشائم:

- مستحيل! أنا أعشق أزهار الزعفران. سأصبح مزارعة، وسأزرعه دائمًا!

ضحكت فاطمة وقالت وهي تشير بإبهامها إلى الخلف:

- إذًا فقد تخليتِ عن حلمك السابق!

تلعثمت الصغيرة، ثم سارعت إلى التوفيق بين الحلمين:

- بل سأكون الاثنين معًا إن شاء الله، مثل أبي؛ محاميًا ومجاهدًا!

انفجرت حميدة وفاطمة ضاحكتين، وأخذتا تغمرانها بكلمات التشجيع والمداعبة. وبعد برهة قالت فاطمة:

- ينبغي أن أعود إلى المنزل الآن. آمل أن تكوني بخير يا حميدة.

ابتسمت حميدة وهي تتأمل الباقة بين يديها، وقالت:

- أحاول أن أكون كذلك.

❊ ❊ ❊

٢١

بعد ذلك اليوم الطويل والشـــاق، وبينما كان ألطاف ومظفر يســـتريحان أتى أحمد بأكواب الشاي ووضعهم على الطاولة وقال مخاطبًا رفيقيه:

- لم تتناولا شـــيئًا منذ العشـــاء. اشـــربا الشـــاي، فبقاؤكما جائعين لن يفيدكما. يجب أن تستعيدا قوتكما، فمهمتكما لم تنتهِ بعد.

تناول مظفر أحد الأكواب وقال بصـــوت واهن: "أنت مُحق"، ثم التفت إلى ألطاف، الذي ظل منذ جلوسه مطرقًا، دافنًا رأسه بين كفيه. وقال له:

- أين إيمانك بالله يا أخي!

رفع ألطاف رأســـه، فبدت عيناه كجمرتين متقدتين، وقال بصـــوت تخنقه العبرة:

- لا أريد أن أعود! ماذا ســـأقول لهما؟ ســـتنطفئ آخر شـــمعة أمل في قلبيهما، إن لم ينطفئ القلب نفسه قبل ذلك.

صاح مظفر به وهو يهز كتفه:

- اســـتعذ بالله يا ألطاف! لم أعرفك هشًّـــا إلى هذه الدرجة، لا تجعل نذير يخجل من تصرفاتك وهو في قبره.

انتفض ألطاف وأبعد كتفه عنه، ثم انفجر باكيًا، يتلوى من الألم والحسرة:

- حتى قبره مجهول! في أي بقاع الأرض ألقوك يا أخي؟

وضع مظفر كوبه جانبًا، ثم أشار إلى أحمد أن يذهب ليستريح حتى الصباح.

كان يرجو أن يجعل الله من ضوء النهار ممحاة تمحو بعض ما خطّه الليل من أوجاع.

****

"في عقولنا ترقد آلاف الذكريات؛ قد تكون مهمة وقد لا تكون، لكنها تمضي تاركةً أثرها في النفس. تظل مهملة زمنًا، حتى تأتي مناسبة تستدعيها بإلحاح، فتستنزف ما بقي فيها من طاقة لتخرج أخيرًا مغبرة، وقد لطخها الزمن بيده الثقيلة. أتذكر وردة الزعفران في يدي، لكنها ليست أرجوانية مائلة إلى الحمرة كما ينبغي؛ بل حمراء تمامًا. هل كانت كذلك حقًا؟ لا أدري. أتذكر قمة جبل الهيمو وقد ارتدت قبعتها الشتوية البيضاء. هل خلعتها يومها فبدت القمة حمراء؟ لا أدري. أتذكر خالتي وهي تنظر إليّ. أتذكر الطريق الترابي وقد تحول إلى أشواك وحجارة. أتذكر الباب الموارب الذي كان يخبئ خلفه رائحة الموت. أتذكر أمي، تتأرجح في الردهة كالمخمورة، ثم تهوي إلى الأرض. أرض كشمير... حيث ترى قاعًا بلا قرار."

*** * ***

٢٢

استفاقت حميدة من غيبوبة استمرت يومًا كاملًا، لتجد الجميع ملتفين حولها. حاولت أن تجلس، لكن فاطمة منعتها قائلة:

- أنتِ في المستشفى، وقد أوصى الطبيب بالراحة التامة.

سأل ألطاف بقلق:

- هل أنت بخير؟

"الحمدلله" قالت حميدة وهي تبتسم وتجول ببصرها في المكان، ثم تساءلت على عجل:

- أين ابنتي؟ أين إينشا؟

أمسكت فاطمة بذراعها وقالت مطَمْئنة:

- لا تقلقي، إنها في المدرسة، وسيحضرها شريف إلى هنا فور انتهاء الدوام.

طأطأت حميدة رأسها وملامح القلق لا تزال مرسومة على وجهها، أردفت فاطمة:

- لقد علِمت بالأمر.

رفعت حميدة رأسها وقالت:

- كيف حدث ذلك؟!

نظرت فاطمة في عينيها المذهولتين، ثم عدّلت وشاحها وهي تحدق إلى الأسفل بأسف وقالت:

- سـمعتني وأنا أحدث شـريف في الحقل، وكانت في طريقها إلى المنزل. سـامحيني، فمن هول الصـدمة لم أنتبه إلى أنها كانت قريبة منا.

تنهدت حميدة وهي تضـغط بأصـابعها على الوريد النابض في ظهر كفها، ثم قالت:

- لا بأس يا أختي، لقد سهَّلت عليّ المهمة.

❊ ❊ ❊

٢٣

انتفض صـــادق حين دوّى طرقٌ مفاجئ على باب الكوخ. وقبل أن ينهض، انفتح الباب ودلف رفيق شـاه بصـحبة فتاة شـابة لم يرَ منها سـوى شـعرها الأحمر المعقوص إلى الخلف، يحيط به شـال ألقي بإهمال على رأسـها. رد التحية، ثم عاد إلى الخريطة التي أحضرها له الشيخ في وقت سابق.

تقدم رفيق شاه نحوه بهدوء وقال بفخر:

- هذه ابنتي ألفت. تخرجت من جامعة كشـمير، وتعمل ممرضـة في مسـتشـفى سـرينغار. أحضـرتها لتعاين جراحك وتقدم لك العلاج اللازم.

التفت صـادق نحو الفتاة. كانت تحمل صـندوقًا صـغيرًا بين يديها. وجهها نحيل، تتجلى فيه ملامح حادة تنضح بضيق من العالم كله.

- أنا بخير، أشكرك على كل هذا الاهتمام.

قال صادق بامتنان وهو يضع كفه على صدره، ثم أعاد بصره إلى الخريطة.

اقترب منه الشيخ وشد طرف قميصه وهو يقول:

- لا تستهِن بجراحك! الصديد يكاد ينفجر منها. ألفت لديها خبرة في مثل هذه الإصابات، فلا تقلق.

ابتسم صادق، ثم عدّل جلسته معطيًا الفتاة ظهره، قبل أن يفتح أزرار قميصه بهدوء وقال بصرامة:

- آمل ألا يطول الأمر، فأنا مغادر الليلة.

شهقت الفتاة، بينما طرق رفيق شاه عصاه بالأرض حين ظهر الجرح الغائر في جنبه الأيمن. قالت ألفت أخيرًا، بنبرة امتزج فيها التهكم بالألم:

- إلى أين ستغادر وهذا الأخدود الصغير يكاد يفتك بك؟
- لقد توقف النزيف، وهذا أهم ما في الأمر.

وضعت الفتاة حقيبتها على الأرض وقالت:

- أنت بحاجة إلى مستشفى، لكنني سأحاول تنظيف الجرح ورتقه قدر المستطاع.

أغمض صادق عينيه بقوة، متحملًا الآلام التي عادت تنهش جسده بعد أن خدر الموضع لبعض الوقت. لمح الشيخ دموعًا في عيني ألفت. برغم اعتيادها هذا المشهد، فإنه يؤلمها في كل مرة كما لو أنها تراه للمرة الأولى. سألت ألفت:

- إلى متى سيستمر هذا؟
- نحن نعمل ولا ننتظر النتيجة.

هزت رأسها وقالت:

- تعملون لأجل شعب لا يستحق!

حاول العجوز أن يتدخل، لكن صادق سبقه قائلًا:

- نحن الشعب... ونحن نستحق.

ساد الصمت بعد ذلك، حتى انتهت ألفت من عملها. وضعت بعض أشرطة

الدواء على السرير، وشرحت طريقة استخدامها بكلمات مقتضبة، ثم قالت مخاطبة والدها وهي تعيد أدواتها إلى الصندوق:

- سأعود إلى المستشفى. لدي مناوبة ليلية، ولن أنتهي منها حتى ظهر الغد. أوصل تحياتي إلى إقبال، وسأحاول الاتصال به لاحقًا.

تنهد رفيق شاه ولوّح لها مودعًا، ثم استدار نحو صادق، الذي كان يرتدي قميصه بصعوبة قبل أن ينهمك مجددًا في دراسة الخريطة أمامه. قال الشيخ دون مقدمات:

- قضيت ثلاثة عشر عامًا في السجن. وبعد الإفراج عني تزوجت، ورزقني الله بسعادتي الأبدية؛ ألفت. لكن دعني أخبرك أن إنجاب الأطفال في سن متأخرة ليس بالأمر الهيّن.

قهقه ضاحكًا ثم استطرد:

- أُلفت تعتقد أن صمت الناس هو السبب في بقائي سجينًا كل تلك السنوات. ما تزال قليلة الخبرة، لكنني موقن بأنها ستفهم كل شيء في وقته. لقد خبرت السجن جيدًا يا بني، وخبرت أدوات التعذيب أيضًا. ومن الجيد أنك خرجت حيًا، فمظهرك لا يوحي بأنك رجل عادي.

رفع صادق بصره نحو الشيخ المبتسم وقال متسائلًا:

- حركة كشمير الحرة؟

أومأ الشيخ برأسه وقال:

- مصطفى واني... كان رفيق دربي.

ساد الصمت بينهما برهة، قبل أن يهتف صادق بدهشة:

- رفيق شـــاه! كيف لم أنتبه إلى هذا الاســـم؟ أما زلت تدير الجناح العسكري؟

عقد الشيخ حاجبيه، واتسعت ابتسامته وهو يقول:

- معلوماتك ليست بالهيّنة. لقد استقلت من ذلك المنصب منذ زمن.
- ماذا عن تفجيرات مومباي؟ هل أصدرت الحركة بيانًا؟

هز رفيق شاه رأسه قائلًا:

- بالطبع. لقد نفت مسؤوليتها. إنهم يحاولون إلصاق هذه الأفعال بنا حتى يجرّونا إلى خانة الإرهاب، كما يفعلون دائمًا.

ابتسم صادق ثم همس:

- بالمناسبة، هل يمكنك أن تسدي إليّ خدمة؟

❊ ❊ ❊

٢٤

وضعت والدة أنفال إبريق الشاي على الموقد المشتعل في منزل واني، ثم التفتت إلى ابنتها الواقفة إلى جوارها وطلبت منها إحضار أكواب الشاي الفارغة.

ركضت الصغيرة إلى الردهة، حيث كانت حميدة تجلس وعلى وجهها ملامح باهتة وشاحبة. كانت تسند رأسها إلى كتف فاطمة، وإلى جوارهما جلست إينشا، تتأمل الداخل والخارج في صمت، فيما ألفُ علامة استفهام تدور في رأسها الصغير من غير أن تجد لها جوابًا. أما ألطاف فكان يقف في باحة المنزل الخارجية يستقبل المعزين من الرجال. وقد فُرش في الباحة بساط من الخيزران نُثرت فوقه وسائد عدة، ليرتاح عليها الزائرون فلا يترك الحصير آثارًا على أقدامهم.

بدأت أنفال تجمع الأكواب من أمام النسوة المغادرات، ثم هرعت إلى الباب وفتحته، وبعد دخول معزيات جدد طلبت منها فاطمة أن تتركه مواربًا. استمر العزاء لثلاثة أيام؛ وجوه تدخل وأخرى تخرج، وكلمات عزاء تتكرر حتى فقدت معناها. ولم تستطع أي منها أن تُخرج حميدة من حزنها الذي استولى عليها، ولا أن تُنقذ إينشا من أسئلتها.

"ما من إنسان على هذا الكوكب الضئيل، إذا ما قورن بغيره من العوالم، إلا وراودته بعض تلك الأسئلة الوجودية والمصيرية.

ولأنني وجدت إجابتي متأخرة في وجوه البؤساء من حولي، أيقنت أن هذه ليست الحياة كلها، وأن هذا ليس العالم الذي تستحقه تلك الأرواح المكافحة. أيقنت أن كل ما نراه بأعيننا المحدودة من قبح وألم يحمل في داخله ما يكفي من اليقين بأن هذا ليس كل شيء، وأن هناك نورًا يُستبصر ولا يُبصر، لا يتجلى إلا في مرحلة متقدمة من التضحية بالذات. لكنني في ذلك الوقت كنت لا أزال طفلة هشة، يطاردها سؤال أحمق: لماذا أبي من بين جميع الناس؟"

❊ ❊ ❊

٢٥

سحق السيد أفتاب نصف السيجار المتبقي بين أصابعه ثم ألقاه في سلة المهملات. كانت تلك عادته كلما داهمه التوتر. أخذ يذرع محله المستدير جيئة وذهابًا، ويحك صلعته اللامعة بين الحين والآخر. وألقى نظرات متفحصة على اللوحات التي تزين جدران المحل يمينًا ويسارًا، قبل أن تستقر عيناه على لوحة منسوجة بخيوط صوف رقيقة.

كانت اللوحة محاكة بإتقان مدهش، حتى ليخيل للناظر أن المرأة الجميلة ذات الأهداب المتلألئة، المرتدية ثوبًا كشميريًا مطرزًا بحرفية عالية، والحاملة على رأسها طنجرة كبيرة مملوءة بحليب ماعز الباشمينا الرقراق، تبتسم وترمش بعينيها وهي سابحة في ملكوت الله. غير أن أفتاب لم يكن يرى تلك المرأة؛ بل كان يرى امرأة أخرى بعينين واسعتين تترقرق فيهما الدموع دائمًا، كحورية غامضة تقبع في الأعماق وتذرف لآلئ ثمينة لا يراها أحد سواه. كان يراها في كل شيء، وفي كل مكان.

قطع شروده صوت مركبة تزأر بمحاذاة المحل. اندفع إلى الخارج عبر الدرج المعتم، وما إن رأى جاغديش يترجل من مركبته حتى أسرع نحوه. وبعد تحية مقتضبة، سأله عن أحوال القرية.

نظر إليه جاغديش، وهو منهمك في ترتيب الخضراوات في المقعد الخلفي للعربة، ثم قال وهو ينتقل إلى الجهة الأخرى من العربة:

- كل شيء على حاله. لم أرك في العزاء، لعلّك حضرت في غيابي؟

أجفل أفتاب للحظة، ثم ارتسم الحزن على وجهه وقال:

- آلمني الخبر كثيرًا، لكنني كنت غارقًا في مشاغلي حتى أذنيّ، وخشيت أن يتعرض محلي للمداهمة، ولم أكن قد دفعت الضرائب بعد.

ابتسم جاغديش ابتسامة ساخرة وقال:

- كنت تفتخر دائمًا بصداقتك المميزة مع نذير، ثم تتغيب عن وداعه لسبب كهذا!

انتفخ عرق في صدغ أفتاب، وحاول أن يتمالك أعصابه وهو يستمع إلى الرجل الذي يشكك في صدق كلامه. لكنه تمالك نفسه أخيرًا وقال مبتسمًا:

- الأمر خارج عن إرادتي. ثم إنني أرى أن ذلك أفضل؛ فالدموع لا تليق بالأبطال، وسأذهب في أقرب فرصة.

- كما تشاء!

قالها جاغديش بلامبالاة، ثم صعد إلى مركبته وانطلق مبتعدًا، مخلفًا وراءه نظرات أفتاب الغاضبة تلاحقه في الطريق.

❊ ❊ ❊

٢٦

(أيلول) سبتمبر ٢٠١٠

جلست إينشا تحتضن ساقيها وتتأمل نبتة خزامى تزين حديقتها الصغيرة. كانت الحياة قد نضبت منها، فبهت لونها حتى غدا قريبًا من لون بشرتها التي لفحتها رياح الخريف المحملة بالغبار. سرحت بخيالها بعيدًا، وعقدت بعقلها البريء مقارنة قاسية بينها وبين الزهرة. فمنذ شهر واحد فقط أصبحت تنتمي إلى فئة مختلفة تمامًا عما كانت عليه من قبل. منذ أن أُدرج اسمها في قائمة الأيتام التي تزخر بها بلدتها، أخذت روحها تشبه كثيرًا شحوب تلك الزهرة وبؤسها. لم تألُ حميدة جهدًا في إقناع صغيرتها بأن والدها مات بطلًا، وأن يومًا سيأتي يفخر فيه الجميع به ويشيرون إليها بالبنان. تذكرت إينشا ما قالته أمها فتمتمت وهي تحدق في الزهرة المشرفة على الذبول:

- أي بطولة هذه التي تجعله يتركنا ونحن في أمس الحاجة إليه؟ ألا يعلم أنه لم يرافقني ولو مرة واحدة إلى الجبال؟ ألا يعلم كم تعاني أمي في تحمل أعباء الحياة وحدها؟ أتمنى لو أفهم يا رب!
- أنتِ على حق!

خرج الصوت كزفرة كريهة مألوفة، فانتفضت إينشا واقفة. كان المهراجا يقترب منها، يحمل في يديه أسياخًا طويلة تبعث على الرهبة.

تراجعت الصـغيرة خطوة إلى الخلف وهي تراه يدنو ببطء، مطلقًا قهقهات مزعجة. وفجأة توقف، ثم التفت بعينيه الحادتين نحو المنزل، وزفر من جديد بصوت أشد قبحًا ورعبًا:

- نصـحته مرارًا أن يكف عن التدخل فيما لا يعنيه، وأن يعيش حياة هادئة مع زوجته الجميلة وابنته المفعمة بالحيوية، لكنه أصـر على أن يذوق شيئًا من غضبي!

اتسعت عينا إينشا. للحظة بدت لها الكلمات وكأنها مشهد من فيلم يعترف فيه المجرم بجريمته بكل وقاحة، لكن الحقيقة كانت أشد تعقيدًا وأقسى من أي فيلم.

تابع المهراجا كلامه وهو يصوب نظره باتجاه الصغيرة:

- هل أمكِ في المنزل؟

ولما ظلت صامتة تحدق فيه بذعر، تابع:

- أخبريها أنني علمت بعودة مظفر، وإن فكرتما في تدبير أي حماقة مرة أخرى فسأدفنكم جميعًا تحت هذه الأرض العفنة.

لم تنبس إينشا ببنت شفة. كانت ركبتاها ترتجفان وتتصادمان ببعضهما من شـدة الخوف، بينما ارتسـم الرعب واضـحًا على ملامحها. وظلت لدقائق تراقب ذلك الرجل الذي هددها بالمصير ذاته الذي انتهى إليه والدها. وحين اطمأنت إلى أنه يتجه نحو مزارع السيد محمد قادر، تنفست بارتياح رغم ما انتابها من شـفقة على ذلك العجوز، الذي اعتاد أن يكون هدفًا لإهانات

المهراجا المتكررة، والتي وصـلت في إحدى المرات إلى حد ضـربه حتى سال دمه.

أسرعت إلى داخل المنزل. وعندما وقفت عند فراش والدتها وجدتها ما تزال نائمة. وبرغم أن حميدة لم تنعم بنوم هادئ منذ سـنوات، فإن الضـجة التي أحدثها المهراجا لم توقظها، فأيقنت إينشا أن أمها تعيش حلمًا قد لا يتكرر. ربما هي الآن مع والدها على متن الشـيكارا، يجدفان فوق مياه البحيرة ويبتعدان ما اسـتطاعا عن هذا العالم المظلم. وربما يحتسـيان الشـاي الكشـميري السـاخن على أطراف لداخ، حيث تبدو السـماء أقرب من أي مكان آخر.

استلقت إينشا إلى جوارها في هدوء، وعقدت العزم على أن تبوح لها بكل ما يضـج به خاطرها من أسـئلة حين تسـتيقظ، وأن تبدأ بالسـؤال الذي بات يطاردها أكثر من سواه: متى سننعم بالهدوء؟

❊ ❊ ❊

٢٧

وقفت ألفت أمام مبنى حركة "كشمير حرة" تقلب في هاتفها النقال بحثًا عن رقم تحفظه عن ظهر قلب، لكنها تكاسلت عن كتابته. وبينما كانت تعبث بالشاشة، قطع شرودها الصوت الذي أحبته، بتلك اللثغة الخفيفة التي كانت تزيده جمالًا في نظرها:

- ألفت! فيم أنت شاردة؟

استدارت بخفة، تخفي ابتسامتها الخجولة، وقالت برصانتها المعهودة:

- إقبال! كنت أنوي الاتصال بك. والدي يريد التحدث إليك الليلة. كان يرغب في لقائك منذ وقت أبكر، لكنه آثر أن يتريث قليلًا.

عقد إقبال حاجبيه باهتمام وقال:

- سألقاه بإذن الله. أخبريني عنك، كيف تسير الأمور في المستشفى؟
- كل شيء على أحسن حال.

ثم أضافت وهي تنظر إلى قدميها وتشد بيدها على ذراع حقيبتها السوداء اللامعة، التي لم تكن تتناسب مطلقًا مع حذائها البني ذي الخيوط المتشابكة، لكنها لم تكن تملك غيره:

- وأنت؟ كيف حالك؟ هل تواظب على جلسات العلاج الطبيعي؟ وكيف حال أنفال والخالة؟ آمل أن يكون الجميع بخير.

ابتسم إقبال لتوترها الواضح، ثم مد ساقه إلى الأمام وكأنه يريد أن يبدد

مخاوفها كلها دفعة واحدة، وقال:

- ألا ترين إنني أركض هنا وهناك كالحمار ولا أشــعر بأي فرق بين الساقين!

ثم انفجر ضــاحكًا. ولم تملك ألفت إلا أن تضــحك بدورها. وبعد لحظات ودع كل منهما الآخر، فدخل إقبال إلى المبنى، بينما ظلت تتبعه بنظرات قلقة قبل أن تعبر الشارع إلى الجهة المقابلة.

وكالعادة، كان اللقاء في منزل رفيق شاه. فمنذ استقالته من منصبه لم يعد يهتم كثيرًا بحضور اجتماعات الأحزاب المكونة للحركة. بل إنه لم يكن يومًا متحمسًا للجانب السلمي من النضال، إذ كان يؤمن بأن القوة لا يردعها إلا قوة تماثلها. ومع ذلك ظل حريصًا على تشجيع صهره المستقبلي للانضمام إلى الحركة، لما لمسه فيه من موهبة استثنائية في مجالات التكنولوجيا والحاسوب. ورغم محاولات ألفت المستميتة لإقناع خطيبها بالابتعاد عن هذا الطريق، خشية أن تعيش معه ليالي الخوف نفسها التي عاشتها مع والدها، فإن إقبال بعد الحادث الذي أفقده ساقه اليمنى لم يعد الرجل ذاته.

قال رفيق شاه وهو يحدق في عيني الشاب الجالس أمامه، في منزله المبني من الطوب الأحمر والمطل على الضــفة اليســرى لنهر "جيلهم"، فيما اســتقر أمامهما كوبان من الشاي الساخن فوق البساط:

- أريدك أن تطلب من ضــياء الدين مقابلة شــخص ما. الأمر بالغ الأهمية.

ثم شرح له ما حدث، وأوضح أن كل ما يريده هو استخراج أوراق رسمية جديدة لصادق، والمساعدة في تهريبه مؤقتًا إلى مظفر آباد.

تململ إقبال في مجلسه ثم قال في حيرة:

- هل تعتقد أنه سيوافق؟ إنه لا يرغب في إقحام الحركة في مزيد من التعقيدات من أجل رجل مجهول. هم محارَبون بما فيه الكفاية.

تنهد رفيق شاه والتقط كوبه بيده المرتعشة وقال بإصرار:

- لا تقلق، إنه ليس مجهولًا تمامًا. ثم إن ضياء الدين سيحتاج إليه في المستقبل. يجدر به أن يقابله الآن.

وانتهى الحديث باتفاقهما على إبلاغ ضياء الدين بالأمر وترتيب اللقاء بسرية تامة.

وبعد يومين، وفي المكان ذاته، كان ضياء الدين يجلس إلى جوار إقبال متسائلًا عن أحوال رفيق شاه، الذي أثار قلقه بطلب هذا اللقاء المفاجئ بعد انقطاع طويل. وبينما كانا يتبادلان الحديث، دخل رفيق شاه برفقة شاب قوي البنية، غريب الملامح. احتاج الأمر إلى بضع ثوانٍ فقط قبل أن تنطلق من الرجلين شهقة واحدة، قطعها رفيق شاه قائلًا:

- هذا صديقي صادق، وقد جاء ليسلم عليكما.

أجال صادق بصره بينهما. استطاع أن يتعرف إلى إقبال بسهولة، أما الرجل الوقور ذو اللحية السوداء الخفيفة والنظارة الطبية فبدا مألوفًا له على نحو ما. أخرجه رفيق شاه من حيرته وعرفه على اسم الرجل:

- هذا ضـياء الدين... ذلك الشـاب المتحمس الذي ظل ملازمًا للمناضل مصطفى واني منذ تأسيس الحركة.

أحنى ضياء الدين رأسه وقال مبتسمًا:

- كان ذلك شرفًا لي.

عانق صـادق الرجلين بحرارة، وبعد دقائق من التعارف السـريع انتقلوا إلى صـلب الموضـوع. وبعد مناقشـته من مختلف جوانبه، قال ضـياء الدين وهو يشبك أصابعه:

- من الصـعب جدًا استخراج أوراق رسـمية جديدة من هنا. فالقبضـة الأمنية اشـتدت مؤخرًا، خصـوصًـا في إقليم كشـمير. لكنني أضـمن لـك خروجًـا آمنًـا إلى مظفر آبـاد بـإذن الله، بحيـث لا تضـطر إلى الاحتكاك بالحكومة الهندية. آمل ألا يشكل ذلك خيبة أمل لك.

أطرق صادق برأسه، ثم رفعه وقال بحزم:

- لا بأس.

ابتسم ضياء الدين وقال بمكر:

- لكنك لم تخبرنا عن المقابل؟

ضـحك رفيق شـاه؛ فهو يعلم أن ضـياء الدين لن يدع أفضـل محامٍ في المنطقة يغادر دون أن يستفيد من خبرته.

تنهد صادق وقال بعد لحظة تفكير:

- لطالما كنت وفيًا للقضـية. لكنني فضـلت العمل مسـتقلًا بعيدًا عن

التزامات الاتحادات والتنظيمات. غير أنني أعتقد أن الوقت قد حان للتغيير. فعنجهيتهم المنظمة لا يهزمها إلا نضال منظم، يقف أفراده صفًا واحدًا.

قال ضياء الدين:

- ولهذا أنشأنا اتحاد المحامين. لتبادل الخبرات، ومتابعة القضايا التي يتعرض لها شعبنا بصورة أسرع وأكثر فاعلية. إن قضايا المعتقلين والمضطهدين، ونهب الأراضي بقوة السلاح، وغيرها من الملفات الشائكة التي تحتاج إلى محامين ثاقبي البصيرة، أقوياء الشكيمة.
- لا أظن أنني سأتمكن من مزاولة العمل قريبًا.
- بالتأكيد. عليك أن تختفي، وقد يطول هذا الاختفاء إلى أن تستقر بهويتك الجديدة. ويجب أن يبقى هذا اللقاء طي الكتمان، وستكون اتصالاتنا جميعًا في غاية السرية.

تحشرج صوت صادق وهو يقول:

- أخشى ألا أعود مجددًا،

شد ضياء الدين على يده وقال:

- أنت تعلم أنك ستنتقل من الرئة اليمنى إلى الرئة اليسرى. ليست آزاد كشمير سوى الذراع الأخرى لوطننا. وستعود موحدة بإذن الله. أنت لا تبتعد، بل تقترب من يوم التحرير الكامل.

ارتسمت على وجوه الثلاثة أمارات الرجاء، وقالوا بصوت واحد:

- بإذن الله.

وقف الجميع لتوديع ضـياء الدين بعد الاتفاق على انطلاق صـادق فور اكتمال ترتيبات خروجه وتماثله للشـفاء. وبينما كان رفيق شـاه يرافق ضـيفه إلى الخارج، أمسك صادق بذراع إقبال ونظر في عينيه. تأمل إقبال جاره كما عرفه دائمًا؛ رجلًا صـلبًا لا ينحني، لا يفر من نداء مظلوم، ولا يهاب بطش ظالم. عرفته القرية ثابتًا في سـاحات القضـاء، وعرفه هو أوّابًا إلى بيت الله، شـديدَ الثقة بربه. لكن عينيه في تلك اللحظة كانتا شـيئًا آخر؛ غارقتين في بحر من الأسى، وفي ذلك البريق المنكسر انعكست مرارة الفقد ووجع الرحيل.

تساءل إقبال في نفسه: هل أخبره أن حبيبته أصبحت نصف ما كانت عليه بعد رحيله؟ أم أحدثه عن نبتته الغضـة، تلك الطفلة التي تواجه قسـوة الحياة وجبروتها وحيدة؟

أطرق برأسه لحظة، ثم رفعه مبتسمًا ابتسامة شاحبة أخفى بها ما استطاع من ألمه. وهز رأسه ثلاث مرات ثم همس: {وَكَفى بِرَبّكَ وَكِيلًا}.

❊ ❊ ❊

٢٨

أمام المرآة، جعلت حميدة تجدل ضفائر شعرها بهدوء، بينما كانت إينشا قد فرشت فراشها وبدأت تراقب والدتها بصمت وحزن، حين تذكرت الحوار المقتضب الذي دار بينهما منذ مدة بشأن قضية والدها. ومنذ ذلك الحين، لم تتطرق أمها إلى ذلك الموضوع بتاتًا. لم تعلم الصغيرة أن إخبارها والدتها بقدوم المهراجا وما قاله لها قد وأدت فرصة معرفة الحكاية كاملة، بل ضاعف مخاوف أمها، واكتفت بإخبارها أن ذلك المهراجا المجنون كان السبب في إلقاء القبض على والدها، وإخضاعه لمحاكمة هزلية، ثم اختفائه قسرًا من الحبس الاحتياطي قبل تنفيذ الحكم الذي كان يقضي نقله إلى سجن كشمير.

❊ ❊ ❊

٢٩

في أحد أحياء سرينغار القديمة، وقف رفيق شاه بصحبة ابنته ألفت أمام أحد المنازل. أدار رأسه نحو ابنته التي تحمل حقيبة متوسطة الحجم وتنظر إلى الباب المغلق أمامها بفتور، وقال:

- سوف تمكثين هنا حتى أعود من مهمتي. ربما تطول قليلًا، لكنك صبورة. كما أن خالتك عناب ستسر لبقائك معها، فاحرصي على مساعدتها في شؤونها.

أطرقت برأسها إلى حقيبتها وسألت:

- هل يعلم إقبال إلى أين ستذهب؟

ربت الشيخ على كتفها وقال مبتسمًا:

- نعم، لا تقلقي يا حلوتي.

ابتسمت ألفت، أو لعلها تكلفت ابتسامة حزينة، ثم طرقت الباب ففتحته امرأة بدينة في العقد الرابع من عمرها. ابتسمت المرأة ببلاهة لطيفة وهي تقول:

- أهلًا وسهلًا. كنت بانتظاركم. هيا بسرعة فطعام الغداء على المائدة.

دلف الاثنان إلى الداخل. كان المنزل صغيرًا، يضم ردهة مربعة الشكل يتفرع منها بابان؛ أحدهما يفضي إلى غرفة نوم صغيرة، والآخر إلى الحمام.

وعلى أحد جوانبها يمتد درج ضيق يتسع لشخص ونصف، ويؤدي إلى الطابق الثاني حيث المطبخ، ومخزن لأدوات النجارة، وباحة صغيرة امتلأت بالأعمال الخشبية البسيطة، كالمقاعد والأدوات التعليمية.

جلس الاثنان إلى مائدة الطعام، وجلس طفلان إلى أحد جانبيها. قالت الخالة مرحبة:

- تفضلا، واعتبرا المنزل منزلكما. كم أنا سعيدة بهذا التغيير للعزيزة ألفت. فمنزلكم يقع في ناحية بعيدة وكئيبة، ورحلة العمل اليومية شاقة عليها بالتأكيد. سيكون مبيتها هنا فرصة رائعة لتقضي وقتًا ممتعًا معنا ومع نفسها أيضًا؛ فالعمل قريب، وكذلك الحدائق والأسواق. لكنني آمل ألا تكون قد أقحمت نفسك في المتاعب من جديد. كم كنت أشفق على أختي المرحومة، وكيف كانت تقضي أيامها وحيدة في تلك البقعة النائية.

تنحنح رفيق شاه، وقد اعتاد ثرثرتها، وقال معترضًا:

- كانت المرحومة سعيدة جدًا بالهدوء والصفاء الذي نعمنا بهما هناك.

ضحكت الخالة عناب وهي تقسم الخبز إلى نصفين، وتعطي كل نصف لأحد صغيريها المنشغلين بالطعام، وقالت:

- نعم، لقد كانت تحب الهدوء فعلًا، وتكره ضجيج المدينة. أسكنها الله جناته.

ردد الجميع بصوت واحد "آمين" فتابعت كلامها قائلة:

- مجيئك في هذا التوقيت مناسب تمامًا عزيزتي ألفت؛ فزوجي في الغابة مع رفاقه لقطع الخشب وسيغيب لأيام. لقد أفرغت غرفة النوم لتتسع لنا نحن الاثنتين.

قالت ألفت:

- لا بأس، سأنام هنا أو في العلية.

هزت الخالة رأسها باعتراض شديد وقالت:

- لا يا عزيزتي! علية؟ أي علية؟ لقد استولى عمك على العلية بأغراضه وخردواته، ولم يترك لنا سوى هذه البقعة الضيقة من المنزل. أقسم لك أنني أصعد لإعداد الطعام رغمًا عني، ولا ألتقط أنفاسي إلا بالعودة إلى الأسفل.

ثم تابعت وهي تهز سبابتها بإصرار:

- واعلموا أنني إن متُّ يومًا، فستكون العلية هي السبب! إن روائح الخشب ونشارته لا تُطاق!

حاولت ألفت كتم ضحكتها وقالت:

- لا تقولي ذلك يا خالتي.
- آه يا ابنتي، كم أنا سعيدة من أجلك. خطيبك شاب متعلم ومثقف، ويمتلك وظيفة محترمة، ولن تمري بما عانيناه أنا وأختي.

تنحنح رفيق شاه مجددًا وقال معترضًا:

- ما بالك تتحدثين باسم المرحومة بكل هذه الثقة! كانت راضية تمام الرضا عن حياتها، ولله الحمد.

ضحكت الخالة عناب وردت ببساطة:

- أستغفر الله يا والد ألفت، كم أنت حساس! إنني فقط أريد أن أسعد ابنتي ببعض الكلمات. أما نحن، فالرضا بقسمة الله هو غايتنا ومبتغانا. كما قلت لكِ يا ابنتي، سينام الصبيان هنا، فذلك أيسر لهما في الدخول والخروج؛ إذ لا يكفان عن إزعاجي كل يوم بمباريات الكريكيت التي لا تنتهي. أما نحن فسننام في الداخل. لا تقلقي بشأن شيء، واهتمي فقط بعملك. ما زلت قوية، وباستطاعتي إنجاز كل ما يلزم هنا. لم أُرزق بابنة تحمل عني بعض أعبائي، لذلك اعتدت تحمل كل شيء وحدي.

قال رفيق شاه:

- ستقوم ألفت بمساعدتك، فلا تترددي في طلب أي شيء منها.
- نعم يا خالتي، سأكون في خدمتك.

مسحت الخالة عناب عينيها وأنفها بطرف ثوبها بتأثر ثم قالت مبتسمة:

- كم هو جميل وجود الأقارب في الحياة. اذهب في مهمتك مطمئنًا يا أخي، فسنتدبر أمورنا على خير وجه.

بعد أن غادر رفيق شاه المنزل نظر إليه بحنين. كانت رائحة زوجته تملأ المكان، ولا تزال بعض ملامحها ترتسم بوضوح على وجه أختها الصبوح. تنهد بارتياح ثم مضى باتجاه الغرب.

٣٠

حزم صـادق أمتعته في حقيبة ظهر أحضـرها له إقبال، ولم تكن أمتعته سـوى بضعة سراويل وقمصان مما اعتاد سكان الجبال ارتداءها. لفّ رأسه بوشاح أخفى به النصف الأسفل من وجهه، ثم انطلق خارجًا من الكوخ. وبينما كان يهم بإغلاق الباب، سـمع وقع أقدام تركض خلفه، فاسـتدار ليرى إقبال يهرول نحوه لاهثًا وهو يقول:

- الحمد لله أنني أدركتك قبل رحيلك. السـيد ضـياء الدين يرغب في لقائك الآن.

اندهش صادق وقال:

- لِمَ هذا التغيير المفاجئ؟ من المؤكد أن السيد رفيق شاه قد انطلق.
- لا تقلق، لقد اتصلت به وأخبرته. هيا بنا، فالسيارة بانتظارنا.

قال إقبال ذلك وهو يشير إلى الطريق الذي يبعد قليلًا عن المكان.

صعد صادق إلى السيارة، وفوجئ بضياء الدين جالسًا في الداخل

- أردت توديعك يا أخي. هل شُفي جرحك تمامًا؟

أومأ صادق برأسه إيجابًا وهو مبتسم، فأردف ضياء الدين:

- سـنسـعى جاهدين إلى تبرئة اسـمك من الظلم الذي لحق به. فما حدث لك لم يكن سوى بداية لسلسلة من الاعتداءات التي ارتكبها المهراجا.

قال صادق:

- ذلك الحقير! يجب أن يوقفه أحد عند حده. لا يهم ما جرى لي، بقدر ما يهمني منعه من ارتكاب مزيد من الجرائم.
- سيحدث ذلك بإذن الله. أما الآن فكن حذرًا، ولا تنسَ، فور وصولك إلى هناك، أن تتذوق الحمص الباكستاني، فهو لا يُفوَّت.

ضحك الثلاثة، ثم ودَّعوا بعضهم عند مفترق الطريق المؤدي إلى مكان الموعد، والذي يعقبه مرتفع بسيط يعد بداية سلسلة جبال تربط سرينغار بمظفر آباد من الخلف.

تحرك صادق مسرعًا على طريق إسفلتي تناثرت على جانبيه أوراق الأشجار الصفراء والحمراء. نظر إليه الرجلان وهو يبتعد، وتساءلا في صمت: هل سيتمكن هذا الفقير الشريد من تحقيق هدفه؟

كان رفيق شاه يجلس على صخرة بجوار منزل قروي، يحتسي كوبًا من الشاي ويصغي باستمتاع إلى حديث صديق له، حين أقبل صادق نحوه. بادره الأخير قائلًا:

- ياللروعة! يبدو أنك تحظى بوقت ممتع!

نظر رفيق شاه إلى صادق، ثم قال مخاطبًا صديقه القديم الجالس إلى جواره:

- ها قد حضر الشاب. يجب أن نذهب الآن. سأشتاق إلى أحاديثك وقصصك.

رد الرجل وهو يحني رأسه مرحبًا بصادق:

- ستجدني دائمًا هنا يا صديقي. مرحبًا أيها الشاب، هل تريد بعض الشاي الساخن؟

شكره صادق بلطف، ثم انطلق بصحبة رفيق شاه. قال وهو يلتفت إلى الخلف:

- يبدو رجلًا طيبًا.
- نعم لدي الكثير من الأصدقاء هنا، الطيبون والخطرون أيضًا. قال رفيق شاه بمرح، ثم تابع:
- طريق الجبل خطير لكنه أقل خطورة من نهر "جيلهم" الذي يجري بقوة عاتية، إضافة إلى معرفتي بتشعبات الجبال. لم أخبرك بكل هذه التفاصيل في الرسالة من باب الحيطة والحذر.

هز صادق رأسه متفهمًا وقال:

- يؤسفني أن تترك أهلك في هذه السن لتخوض معي غمار رحلة غير مأمونة العواقب.

ضحك رفيق شاه بصخب وهو يزيح بعض الحصى عن الطريق بعصاه وقال:

- لن تصدقني إن قلت لك إنني استعدت شبابي حين رأيتك مقبلًا تتعثر في طريقك إلى الكوخ. لقد تذكرت نفسي يوم اختبأت في ذلك المكان وأنا مطلوب ومطارد، والذي هداني إليه آنذاك هو نفسه

الذي هداك إليه يومها.

استعاد صادق في ذهنه لحظات فراره المرعبة، ثم نظر إلى رفيقه الذي كان يسير أمامه بخفة وقوة. كانت الشمس موشكة على الغروب، وكان الاثنان لا يزالان في بداية الطريق، فما زالت بيوت القرويين تطل بنوافذها الخشبية على الجانبين.

توقف رفيق شاه عند مسجد صغير مطلي بلون برتقالي باهت. دخلا إلى الداخل، ثم خلع قبعته للوضوء، وأومأ إلى صادق أن ينتظر.

صلى الاثنان المغرب، ثم جلسا في أحد الأركان. أخرج صادق الخريطة التي كانت بحوزته، وأخذ رفيق شاه يرسم بإصبعه مسارات متعرجة بين قمم السلسلة الجبلية الممتدة كجسر شاهق عبر آلاف الكيلومترات. برز الحنين في عينيه بوضوح وهو يتحدث عن ماضيه بين تلك الجبال التي خَبِر هو ورفاقه دهاليزها وأخاديدها. في منتصف السلسلة أشار إلى وادٍ فسيح يفترش السفح، وهناك، حيث استقر إصبعه، كانت التدريبات العسكرية تُجرى سرًا.

تنهد بأسىً ثم قال:

- كان ذلك قبل المعاهدات التي أُبرمت بين البلدين. أما اليوم، فقد أصبح العمل الثوري بالغ الصعوبة. ليس لكشمير، بعد الله، إلا أبناؤها يا بني.

أخذ يشرح لصادق أماكن التوقف ومسارات السير على الأقدام، ثم سيستقلان عربة يجرها حمار في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، حتى

يبلغا نقطة يصبح اجتيازها على ظهر الحمار عسيرًا، فيتابعان الطريق سيرًا.

بعد خمسة أشهر رن هاتف ضياء الدين من رقم مجهول. أجاب فسمع صوتًا مألوفًا من الطرف الآخر:

- أخي، كيف حالك؟ أنا على خير ما يرام، وأمامي طبقُ حمّصٍ بالليمون أستمتع بتناوله على ضفاف النهر.

❊ ❊ ❊

٣١

الطريق إلى باغ

أمامك جبال، وخلفك أيضًا جبال. ولمسافات شاسعة تعلوك السماء الزرقاء. إن مروري بتجربة الصفاء تلك دفعتني إلى استعادة محطات في حياتي كانت علامات فارقة في تحولي من شخص عادي إلى آخر طموح ومتألق. ولست أمتدح نفسي، وإنما أمتدح تلك الأسباب التي كانت يومًا ما كابوسًا اقتحم حياتي الرتيبة.

كنت في سنتي الجامعية الأخيرة حين سافر والدي، كعادته، إلى باكستان. لم أسأله عن غاية ذلك السفر؛ إذ لم يكن ليخبرني على أي حال، وهذا ما اعتدت عليه منذ رفضت الانضمام إلى الحركة التي أنشأها هو ورفاقه في أيام شبابهم. ربما خاب ظنه فيّ، أو هكذا كنت أعتقد؛ فلم يكن يطلعني على شيء من نشاطاته وتحركاته.

اعتاد أن يحضر لي كتابًا أو حقيبة، وربما قبعة من أسفاره، أما تلك المرة فقد أحضر شيئًا أكبر حجمًا، يتحرك ويتكلم. وشرح أبي الأمر كله باقتضاب قائلًا: "إنها الآنسة حميدة... زوجتك."

توقف الزمن حينها. توقعت كل شيء إلا أن يجبرني والدي على الزواج. وممن؟ من فتاة باكستانية مجهولة، وربما غير متعلمة أصلًا، وأنا الذي كنت من أكثر طلاب الجامعة تميزًا بين رفاقي.

حاولت التملص بشتى الأعذار:

- أريد الزواج من كشميرية.
- إنها كشميرية الأَصل، تم تهجير أسرتها قسرًا.
- لكنها ليست متعلمة.
- ربما لم تحظ بتعليم كامل بسبب الظروف التي مرت بها، لكنها من أسرة معروفة بالعلم والعقل والحكمة... ووالدها من أكثر الناس وفاءًا للدين والقضية.

ثم أنهى الحوار بقوله: استعد، فالزواج سيكون هذه الليلة.

راودتني شتى الهواجس والأفكار، لكنني لم أهتدِ إلى سبيل للنجاة من قدري المحتوم، فاستسلمت وأذعنت. يومها لم أكن أعي ما كان يدور في ذهن والدي، الذي أدرك أنني ابنه في نهاية المطاف، وأن حياتي لن تكون سهلة أبدًا لهذا السبب.

تلك التجربة جعلتني أُيقن أن الحياة لا تسير دائمًا وفق ما نخطط له، بل وفق ما هو أصلح لنا وأسلم، إذا أحسنا الظن بالله وآمنا بحكمته.

كانت حميدة فتاة لطيفة وجميلة جدًا، قليلة الكلام، وربما كان ذلك بسبب شعورها الدائم بالغربة والوحدة. وعلى الرغم من كل ذلك، لم أرَ فيها آنذاك شيئًا استثنائيًا، وكان حب والدي الكبير لها وتعلق نساء الحي بها يثيران استغرابي.

وفي مساء ذلك اليوم المشهود كنت في حال يُرثى لها. كنا عائدين من جنازة

والديّ إثر تفخيخ سيارتهما في جريمة أنكر الجميع مسؤوليته عنها. كنت شبه فاقد للوعي من هول الصدمة، وكانت هي تمسك بيدي. لم تبكِ يومها؛ فقد ألجمت الصدمة عينيها فعجزتا عن ذرف الدموع، لكنها تحدثت كثيرًا على غير عادتها. تحدثت عنهما، وعن والدها الذي اغتيل أمام عينيها، وعن حياتنا أيضًا. كانت كالبالون الذي انفجر بعد أن امتلأ بالهواء حتى لم يعد يحتمل المزيد. تحدثت حتى أزالت الغشاوة عن عيني، وأفهمتني أن أننا في مواجهة شرسة ما دمنا على قيد الحياة. لم تكن كلماتها منمقة أو معقدة، بل كانت بسيطة إلى درجة بدت معها أكثر عمقًا وتأثيرًا.

أخبرتني يومها أن والدي كان يقول إنني شخص متميز. شعرت بالخجل من كلماتها؛ فهي تسمع ذلك من فم والدي ثم تنظر إليّ فترى رجلًا عاديًا يقسم وقته بين العمل والأصدقاء، ويدور معظم حديثه حول الدراسة والعمل، ويعيش حياة رتيبة. وإن كانت تراني متميزًا آنذاك، فذلك أمر يدعو إلى الحرج حقًا.

وبعد أن انتهت من استرجاع الماضي قالت:

- الحياة قصيرة، ولا يجوز أن نهدرها بعيدًا عن نصرة المظلوم وردع الظالم؟ ولنتعاهد على أن نواصل النضال، ونسلم أبناءنا من بعدنا الراية ذاتها.

ومنذ ذلك اليوم وضعنا لأنفسنا خطة حياة واضحة، تقوم على الوقوف في وجه الظلم مهما كان الثمن. وهكذا أصبح منزل والدي، الواقع في قلب

مدينة سـرينغار، والذي عشـت فيه مع زوجتي وأخي ألطاف الذي احتضـنته حميدة كأنه ابنها، مقصدًا لكل من لم يجد منصفًا يسمعه، في عالم لا يصغي إلا إلى الصوت الأعلى، حتى وإن كان صوت الظالم.

حميدة... يا ذات الصـفات الحميدة. اشـتقت إليكِ اشـتياق الحقول إلى الربيع. إن أنفاسي كحقل أكله الجفاف، وروحي كشجرة أحرقتها الشمس. لقد مررت بصـعاب كثيرة، وكانت تلك التي واجهتها برفقتك أهونها وأعذبها. ولم أكتشـف ذلك إلا بعد فراقك. لقد منحتِني حياة ذات معنى، وأملًا متدفقًا أنار دروبي، وبرعم زهرة أسميناه "إينشا" من غير خلاف. وإني لأتذكركما كلما بزغ فجر أو غربت شمس، وألمح بهاء وجنتيكما في صفحة كل زهرة تتشبث بالحياة بين الصخور.

***

خلال رحلتنا، طرح عليّ رفيقي، رفيق شـاه، أسـئلة دفعتني إلى الغوص مجددًا في أعماق ذاكرة كنت قد دفنتها منذ سـنوات. كان أحد تلك الأسـئلة بسيطًا في لفظه، عسيرًا في جوابه. سؤال لم يستغرق نطقه سوى ثوانٍ معدودة، بينما تختصر إجابته عامين من التيه، وبضع سنوات من الكفاح:

- لماذا أنت هنا الآن؟

آثرت الصـمت ولم أجبه؛ إذ قررت أن أصـوغ الجواب كلمات على الورق، لعلني أعوض طفلتي شيئًا مما حُرمت منه. ولعل أبسط ما تستحقه أن تسمع الحكاية مني أنا، لا من سواي.

اكتملت ثلاثة أعوام منذ انتقالنا إلى منزلنا الجديد القائم على سفح يطل على ضواحي المدينة. كنت قد قررت الانتقال إليه ليصبح عملي أكثر حرية، فقد أصبحت المداهمات وحملات التفتيش لا تُحتمل.

بدأ كل شيء حين طُرق باب المنزل في منتصف ليلة شديدة البرودة. أيقنت أن الأمر بالغ الأهمية؛ إذ لا شيء يدفع رجلًا إلى اختراق أكوام الثلوج المتراكمة في مثل ذلك الوقت إلا أمر جلل.

أحضر ألطاف أكواب الشاي التي أعدتها حميدة، وجلس إلى جواري كعادته؛ فهو يحرص دائمًا على مرافقتي حيثما ذهبت. لكنني طلبت منه الانصراف بعد أن وضع الأكواب على الطاولة.

قال الضيف إنه لا مانع من بقائه. كان ملتحفًا بالبياض؛ يرتدي قلنسوة بيضاء وثوبًا بنجابيًا فضفاضًا باللون نفسه. شكرنا بلطف، ثم أمسك كوب الشاي وأخذ يحدق أمامه شاردًا. حاولت أن أكسر الصمت ببعض كلمات الترحيب، فاكتفى بالابتسام، غير أن نظرة الخوف لم تفارق عينيه لحظة واحدة.

لم أشأ أن أضغط عليه بالأسئلة؛ فقد رأيت حالات مشابهة من قبل، يصبح فيها الإنسان على حافة اليأس، كمن وُضع رأسه تحت مقصلة وربط نصلها بحبل رقيق يوشك أن ينقطع.

بعد مضي بعض الوقت، عرَّف الشاب بنفسه ثم ختم حديثه بطلب المساعدة وإنقاذ الموقف.

علت وجهي ابتسامة واسعة حين علمت أن الشاب الجالس أمامي هو الإمام مظفر، المعروف بصوته الذي يأخذ بالألباب إلى مرافئ السمو والرفعة عبر جمال التلاوة وعذوبة اللفظ الإلهي المتجلي في آيات القرآن الكريم. كان قد عُيِّن حديثًا إمامًا للمسجد الجامع في قلب المدينة القديمة. ونظرًا إلى القيمة التاريخية التي يحظى بها المسجد، فقد كان تعيينه مسؤولية جسيمة أُلقيت على عاتقه، وهو ما فسّر لي شروده وقلقه خلال حديثه. وبعد أن حكى لي عن القضية التي أقضّت مضجعه ودفعته إلى القدوم في ذلك الوقت المتأخر من الليل، أجفلت من هول ما سمعت.

كان مسجد "الجامع"، الذي بناه إسكندر شاه، مكانًا مقدسًا للمسلمين هنا، ولم يجرؤ أحد من غيرهم على دخول باحاته. وما حدث في ذلك اليوم كان الشرارة التي أوقدت نار الغيرة في قلوب مرتاديه.

قال مظفر وهو يقلب مسبحة زرقاء تلتف حول أصابعه النحيلة:

- كان الوقت قبيل الزوال بقليل حين أقدم المهراجا- الذي يسيطر على بعض الأراضي في الشمال، وبرفقته مجموعة من الرجال الأشداء- على اقتحام المسجد. حاول بعض المصلين القادمين لصلاة الظهر منعهم من دخول الباحة الأمامية الواسعة، لكن محاولاتهم باءت بالفشل. اقتحم المهراجا المجنون ورجاله ساحة المسجد بنعالهم، ولم يكتفوا بذلك، بل واصلوا سيرهم حتى داسوا على السجاجيد المفروشة عند عتبة الباب الكبير. هرعت

محاولًا إيقافهم. حاولت التحدث إليهم بهدوء حتى لا أثير غضبهم فينتهكوا حرمة أخرى. وبعد جهد أقنعتهم بأن يكون الحديث في الساحة لا داخل المسجد. وحين استقر بنا المقام جلوسًا ألقى المهراجا قنبلته التي أعد لها بإحكام. قال وهو يفرش أمامي مجموعة من الوثائق المختومة بختم الدولة: "النصف الغربي من هذه الباحة هو ملك لي وتابع لأرضي التي تمتد خارجًا بضعًا وعشرين مترًا."

لا تعلم، يا سيد نذير، كم وددت حينها لو أهشّم وجهه المتبجح بقبضتي! فالعالم كله يعلم أن هذه الأرض موقوفة للمسجد منذ مئات السنين، بل إن ذلك كان ثابتًا حتى قبل التوسعة. الجميع يعلم هذه الحقيقة، لكن هذا الشيطان، وبقدرة قادر، أصبح يمتلك أوراقًا مزورة تثبت ملكية كاذبة.

توقف مظفر عن الحديث وقد خنقته العبرة. سألته عن إمكانية وجود وثائق تثبت وقفية المسجد، فأجاب بالنفي؛ إذ لم يمضِ على تسلمه العهدة سوى وقت قصير. وعليه قررنا أن ننطلق في صباح اليوم التالي إلى منزل الشيخ داؤود، الذي كان قائمًا على شؤون المسجد طوال الأعوام العشرة الماضية. استقبلنا الشيخ داؤود بحفاوة، وبدا غير متفاجئ بالواقعة. بل إنه سأل مظفر عن الموعد الذي حددوه لاقتسام الأرض، فقفز مظفر غاضبًا مستنكرًا تلك البرودة في رد الفعل. غير أن الشيخ داؤود أخبره أن هذه لم تكن المرة

الأولى، وأن محاولاتهم كانت تتكرر عامًا بعد عام، وأن غرضهم لم يكن سوى فرض السيطرة وإشعار المسلمين بسلطتهم القائمة عليهم.

أخذ مظفر الوثائق الخاصة بالمسجد تحسبًا لأي طارئ، ثم انصرفنا وظللنا نترقب ما سيحدث بحذر.

مرت أيام من الهدوء المريب، أعقبها اتصال من مظفر يخبرني بأن المهراجا حضر برفقة عدد من المهندسين، وأن جلبة كبيرة حدثت في المكان قبل أن تنتهي برحيلهم بعد أن توعد بالعودة مرة أخرى. عندها طلبت من الإمام مظفر أن يحضر أوراقه الثبوتية وبعض الصور، وأوضحت له أهمية الإسراع في اتخاذ الإجراءات القانونية ورفع دعوى قضائية قبل أن تتحول تلك التهديدات إلى واقع.

كان مظفر من أغرب الشخصيات وأكثرها تميزًا بين الحالات التي واجهتها في حياتي العملية. فقد كان كثير التساؤل والتردد في كل خطوة نتفق عليها، وهو ما جعلني أرافقه في معظم إجراءاته. ومع مرور الوقت اطمأننت إليه وإلى حرصه الصادق على أن يمضي الحق في طريقه.

سألته ذات لقاء عن سبب تردده الكبير في إيصال الأمر إلى المحاكم، فأجاب بعد لحظات من التأمل:

- لست أرفض ذلك؛ فقد جئت إليك لعلمي بطبيعة عملك، لكن المسألة ليست بتلك البساطة؛ فهذه ليست أرضي، بل أرض الله.

لم يكن جوابه سوى دفعة من القوة والأمل انبعثت في داخلي، وزادت يقيني

بصـواب الخيار الوحيد المتاح في ذلك الموقف. ومع أنني كنت أعلم يقينًا أن الجاني والحكم يقفان في الجانب نفسه، فإنني لم أركن يومًا إلى اليأس.

بعد اسـتكمال الوثائق اللازمة لرفع الدعوى، انطلقنا إلى مكتب الشـؤون الدينية، حيث اسـتخرج مظفر وثيقة تثبت تعيينه إمامًا للمسـجد الجامع من قبل المكتب. وفي آخر النهار وجدنا أنفسـنا أمام بوابة المحكمة، نسـتمد العون والمدد من الله بعد أن أتممنا كتابة الدعوى والتوقيع عليها، ثم أسرعنا إلى تسجيلها رسميًا.

كان كل شـيء يسـير بانتظام، وهو أمر لا يروق لأمثال المهراجا من مثيري الفوضـى. فما إن علم بعزمنا على رفع الدعوى حتى أقبل مع عصـابته إلى المسـجد في غياب الإمام، محاولين التخريب وبث الرعب في النفوس، بينما وقفت الشـرطة، التي كانت تملأ المكان، موقف المتفرج. ورغم محاولات الناس ثنيه عما أضمره، فقد سقط عدد من الجرحى، تراوحت إصاباتهم بين الخفيفة والمتوسطة. ولم تتدخل الشرطة الهندية إلا عندما أوشك الوضع على الخروج عن السيطرة، فأقدمت أخيرًا على فض التجمع.

في المحكمة سارت الجلسة بهدوء. ظننا أن المهراجا لن يحضر، أو أنه سيثير بلبلة، لكن شيئًا من ذلك لم يحدث. وانتهت الجلسة بإثبات صحة الوثائق التاريخية الخاصة بالمسجد، وعدم جواز نقضها بوثائق أحدث منها دون موافقة القائم على شؤونه. وصدر حكم تمهيدي يقضي ببطلان الوثائق التي كان المهراجا يسـتند إليها. لكننا فوجئنا بعد أسـبوعين بطلب المهراجا

استئناف القضية! وقبل المرافعة فوجئنا بقوة من الجيش تقتحم السفح الذي أعيش فيه وكانت وجهتهم واضحة. مرت بضع دقائق قبل أن نسمع قرعًا عنيفًا على الباب.

لن أنسى لحظات الرعب التي خيمت على منزلنا الصغير حين ظهر المهراجا برفقة عدد من الجنود، مشيرًا إليّ وهو يقول: "هذا هو الإرهابي" جرى تكبيلي واقتيادي بالقوة أمام أسرتي. ما زالت عيناي تحتفظان بصورة حميدة وهي تضم الطفلين المرتجفين إلى صدرها، كما لم تغب عني نظرات الحقد التي أطلقها المهراجا نحوهما. اندفع جنديان نحو ألطاف، الذي لم يكن قد أكمل عامه الثاني عشر آنذاك، فانتزعاه من بين ذراعي أمه وجرّاه معي إلى الخارج.

بعد أن هدأت الثورة المشتعلة في عيني المهراجا، بدا واضحًا أن الأمر لم يكن سوى انتقام شخصي دنيء. وكان آخر ما وقع عليه بصري وأنا أُساق بعيدًا، منزلنا الصغير وقد غرق في الظلام، وحميدة تركض خلفنا متعثرة، تجر ابنتنا إينشا وراءها.

كان تحول الأحداث عجيبًا؛ إذ وجدت نفسي فجأة في مكتب التحقيق الابتدائي متهمًا بتهمة لا تقل غرابة عن ملابسات اعتقالي: خلافة والدي في قيادة القوة العسكرية الثورية على حدود الهند وباكستان. ورغم علم الجميع بطبيعة عملي البعيدة تمامًا عن نضال والدي- المشروع- فإن الأمر بدا منسقًا بإحكام، بحضور الشهود والإثباتات، في محاكمة أشبه بمسرحية

هزلية أُعدت فصولها سلفًا.

مر يومي الأول عصيبًا وأنا محشور في غرفة حجز ضيقة. كانوا يقتادونني إلى التحقيق بين حين وآخر دون أدنى مراعاة للحقوق التي أحفظها عن ظهر قلب. كنت كلما طالبت بها أو رفعت صوتي احتجاجًا، أُقابل بالضرب والإهانة. حتى أخي الأصغر لم أتمكن من معرفة مصيره.

كنت في الحجز كيوسف، عليه السلام، في غيابة الجب؛ لا أعلم شيئًا عما يجري في الخارج، وإلا لطالبت من المعتصمين في الخارج الانصراف قبل وقوع الكارثة. لم يتمكن من زيارتي آنذاك سوى جار قديم يدعى أفتاب، طمأنني على أخي ألطاف، لكنه لم يخبرني بحقيقة ما كان يجري في الخارج.

كانت رحلتي إلى آزاد كشمير من أقسى ما مررت به في حياتي، بل أشد قسوة من الرحلة إلى نيودلهي، حين نُقلت فجأة مكبل اليدين والقدمين ومعصوب العينين بعد أن تقرر ترحيلي إليها سرًا عقب تلك المحاكمة الهزلية. كنت أجهل الوجهة والمصير، وأصبحت عاجزًا حتى عن المطالبة بحقوقي، فتسلل اليأس إلى نفسي. غير أن كل ذلك بدا هينًا أمام ما رواه لي رفيق شاه خلال الطريق. وأحسب أنه تعمد أن يقص عليّ تلك الحكاية ليشعرني بحجم المسؤولية الملقاة على عاتقي، وبمقدار الدَّين الذي أحمله لأولئك الأحرار.

بينما كنت قابعًا في الحجز، احتشد عدد كبير من شباب المسجد وأهالي سرينغار أمام مكان احتجازي، يرفعون الشعارات المطالبة بالإفراج عني

والرافضة لأي قرار يقضي باقتطاع جزء من أرض المسجد. واستمر الاعتصام ساعات طويلة، قبل أن تصل قوة كبيرة من الشرطة لمحاولة فضه دون جدوى. وعندما حان وقت الصلاة، وبينما كان أحد الشباب يقيم الأذان اخترقته رصاصة فسقط شهيدًا. ثم نهض آخر ليكمل الأذان، فلحق بصاحبه. وتكرر المشهد حتى ارتقى خمسة آخرون شهداء، واحدًا تلو الآخر، كلما سقط مؤذن نهض غيره ليكمل النداء.

اختتم رفيق شاه حكايته بقوله إن السلطات ألقت القبض على عدد كبير من الشبان، كان من بينهم الإمام مظفر، الذي عُزل لاحقًا من منصبه بتهمة مناصرة المتطرفين. وكانت حادثة بالغة القسوة، أُطلق عليها فيما بعد اسم "معركة مؤتة"، لما رأى الناس فيها من شبه كبير بالواقعة التي شهدها المكان نفسه عام ١٩٣١م.

لا تسألوني عن حالي بعد أن علمت بما جرى. مرت عليّ أيام هجَرني فيها النوم، واستعدت بوضوح حديث حميدة عن ذلك الإحساس الثقيل الذي لازمها طويلًا بعد استشهاد والدها وهو يحاول حمايتها من المجرمين الذين أُرسلوا لاغتياله.

إن احتمال الألم بعد فراق الأحبة أمر يفوق الوصف. هاجمتني تلك الصورة مرة أخرى؛ الصورة التي لم أشهدها بعيني، لكنني رأيتها في مخيلتي مرارًا: حميدة وإينشا تشقان الحشود في ذهول، وتبحثان بين الوجوه عن بصيص أمل. كان قلبي يتمزق كلما تذكرت ما تعرضتا له بسببي. أما علمي بأنهم

بخير الآن، فنعمة عظيمة لا أظن أنني أوفي حقها مهما قضيت من عمري ساجدًا لله حمدًا وشكرًا.

في نيودلهي نزعوا العصابة عن عيني بعدما أُدخلت إلى غرفة ضيقة رطبة تفوح منها رائحة عفن، كرائحة خبز ابتل بالماء ثم تُرك أيامًا طويلة. لم يكن فيها سوى مصباح أصفر باهت يؤذي النظر، وسرير حديدي مثبت في الجهة المقابلة للباب، وإلى جواره فتحة صرف تزكم الأنوف، وسطل صدئ بدا وكأنه كان يُستخدم لحفظ الماء.

أخبرني الشرطي، بعد أن فك القيود عن قدمي وثبت يدي اليمنى في قاعدة السرير، بأنني في سجن تيهار. لكن إحساسًا في داخلي كان يرفض تصديق ذلك. كانت طبيعة المكان، وهواؤه الخانق، توحيان لي بأنني محتجز في مكان تحت الأرض.

مضت ساعات طويلة على تلك الحال حتى تيبست أطرافي. ثم عاد الشرطي فجأة، ففك قيدي وأعاد تثبيته في يديّ، واقتادني إلى الخارج. وفي غرفة أخرى مربعة، ذات نوافذ زجاجية معتمة على الجانبين، دفعني بقوة من الخلف حتى سقطت على ركبتي. ثم ثبت يدي على الطاولة الموضوعة أمامي، بحيث أصبحت الطاولة الصغيرة حاجزًا بيني وبينهما، فلا أملك أدنى قدرة على الحركة. وبينما أنا في تلك الهيئة المهينة، دخل رجل أنيق يرتدي بدلة رسمية، وجلس قبالتي، ثم بدأ يمطرني بالأسئلة، فيما كنت أصارع صداعًا حادًا ودوارًا يكاد ينتزعني من هذا العالم. كانت أسئلته تدور

حول أنشـطة تنظيمية مزعومة قمت بالتخطيط لها، وعن العمليات القادمة التي ننوي تنفيذها، وعن علاقة باكستان بكل ذلك.

غبت عن الوعي دون إرادة مني. سارعوا إلى إفاقتي بسطل من الماء البارد، أعقبوه بوابل من الركلات وضربات الكرابيج. واستمر ذلك الحال أيامًا عدة. وحين أيقنوا أنهم لن يحصلوا مني على شيء، أهملوني في تلك الزنزانة الضيقة مدة طويلة أحسبها شهورًا متتابعة. حتى ظننت أنهم نسوني تمامًا. لم يكن للطعام موعد ثابت؛ فقد يحجبونه عني يومين أو ثلاثة أيام متتالية. وحتى الذهاب إلى دورة مياه حقيقية، غير تلك الفتحة النتنة المجاورة لسريري، كان يتطلب صراخًا وإلحاحًا طويلين. ولولا مصحف صغير نجحت في إخفائه عن أعينهم، لفقدت عقلي.

وفي صباح أحد الأيام تذكروني أخيرًا. اقتادني أحد الحراس- وقد تعاقب على حراستي كثيرون قبله- إلى الغرفة نفسها التي حفرت آلامها آثارها في جسدي وروحي. لكن المعاملة في ذلك اليوم كانت مختلفة. أجلسوني على كرسي دون قيود، ثم دخل محقق يرتدي بذلة عسكرية. جلس قبالتي ووضع أمامي كوبًا من عصير البرتقال الطازج، حتى عبقت الغرفة برائحته النفاذة. قال، دون أي تمهيد:

- وصلتنا معلومات تفيد بأن جماعتك مسؤولة عن تفجيرات مومباي التي وقعت في الخريف الماضي. ما الدور الذي قمت به في تلك العملية؟

أصابني ألمٌ حادٌّ في صدغي كان يباغتني بين وقت وآخر منذ بضعة أسابيع. أغمضتُ عينيَّ بقوة محاولًا تخفيف الألم، فضرب المحقق بقبضته على الطاولة حتى تناثر بعض العصير. قال بانزعاج وغضب شديدين:

أصابني ألم حاد في صدغي كان يباغتني بين وقت وآخر منذ بضعة أسابيع. أغمضت عينيَّ بقوة محاولًا تخفيف الألم فضرب المحقق بقبضته على الطاولة حتى تناثر العصير. قال بانزعاج وغضب شديدين:

- إنني أحدثك بلباقة ولكنكم لا تقدرون ذلك!

ثم خرج مزمجرًا. حاولت استعادة هدوئي بعد الصدمة التي تلقيتها؛ فلم أعد وريث أبي فحسب، بل أصبحت مسؤولًا أيضًا عن سلسلة تفجيرات لم أسمع بها قط، تستهدف أسواقًا عامة!

عاد المحقق ممسكًا بأداة ضخمة تتدلى منها أسلاك. صرخ بالحارس، فهرع لتثبيت يديَّ وقدميَّ بالقيود، ثم شرع الضابط المحقق في توصيل الأسلاك هنا وهناك. قاومت صارخًا ببراءتي، ومطالبًا بحقوقي وبمحاكمة عادلة، لكن دون جدوى! لم تكن تلك الإجابة التي يريدون سماعها، فاستمر التحقيق والصعق والضرب لأيام.

استمر حبسي لسنوات من عمري ذهبت هباءً. يقال إن السجن خلوة مع النفس، يتقرب المرء خلالها إلى الله... نعم، بلا شك، ولكن الإحساس بالظلم أمر مؤلم، ينهك الجسد والنفس، ويُذكر المظلوم بقيمة العدل وما كان ممكنا تحقيقه في ظلاله.

لم يعد جسدي القوي بطبيعته يتحمل أكثر من ذلك. ربما كان مظهري البائس يدفعهم إلى الاستمرار. في الغرفة الحقيرة ذاتها لم أكن أرى أحدًا سوى حارس يتغير، ومحقق تارة، أو ضابط تارة أخرى، حتى جاء الفرج أو هكذا ظننت أول الأمر، وتم تحويلي إلى السجن العام، كما سمعتهم يقولون ونحن في سيارة الترحيل.

حين وصلنا، حُشرت في غرفة مكتظة بالسجناء تآكلت جدرانها. كان أول سؤال وجهته إلى زميلي الجالس إلى جواري:

- هل نحن في سجن تيهار؟

تململ ببؤس ورفع رأسه، الذي كان يخفي عينين غائرتين تنظران بحذر، وقال بعد أن تفحص وجهي جيدًا:

- نحن لسنا في نيودلهي.

أظلم العالم في وجهي! أين أنا؟! وهل دخلت تيهار أصلًا؟ كنت آمل أن أكون في مكان يتمكن فيه أهلي من معرفة موضع احتجازي، رغم علمي بأن من يدخل ذلك السجن لا يخرج منه حيًا. تمالكت نفسي وسألت الرجل:

- منذ متى أنت هنا؟

لم يلتفت إليَّ هذه المرة، فحاولت إعادته إلى دفة الحديث قائلًا:

- هل تعلم متى بالضبط وقع انفجار مومباي؟

جحظت عيناه فجأة وانتفض جسده، ثم شدني من ياقة قميصي صارخًا:

- إنني عامل بسيط، بائع في محل ليس ملكًا لي! صادف وجودي أثناء

الحادث، فأُلقي القبض عليَّ كمشتبه به. ما ذنبي أنا؟

ثم جعل يبكي بحسرة وأردف قائلًا:

- لدي أبناء ووالدان كبيران في السن. كيف سيصبح حالهم بدوني؟ مضت ثلاثة أشهر وأنا هنا، ولا أعلم عنهم أي شيء.

ثم رفع نظره باتجاهي فجأة، وقد انطلق منه الشرر، وصرخ بي:

- هل أنت محبوس للسبب نفسه؟ من أنتم؟ هل أنتم السبب أخبرني؟!

أمسكت قبضته وقلت له مهدئًا:

- إنني في الحبس الانفرادي منذ عامين!

نظر إليَّ بشرود وقال بعد أن أرخى قبضته:

- ما تهمتك؟

ضحكت ساخرًا وقلت:

- المشاركة في التخطيط لتفجيرات مومباي الإرهابية!

أجفل المسكين ونظر إليَّ برثاء، ثم تركني وعاد إلى وجومه.

حاولت أن أضع النقاط على الحروف. ربما كنت مخفيًّا لسبب بسيط، هو عدم وجود أدلة على التهم الغريبة السابقة، ثم جاءت التفجيرات كمفتاح الفرج لورطتهم، فلقموني التهمة، وها أنا أتجرع تبعات ذلك. استراح بالي لهذا التحليل؛ فعلى الأقل أصبحت أستطيع أن أحكي حكاية مرتبة، حكاية تنضم إلى آلاف غيرها تُروى ويُبكى لأجلها ثم تندثر.

لن أخوض في التفاصيل الباقية التي سبقت ذلك النهار الذي أومض كخط

رفيع يفصل بيني وبين الموت. الموت؟ لم يعد هذا المسمى يبعث الرعب في قلبي، فقد رافقني طيلة المدة التي مكثتها في ذلك السجن، حيث كنت ألتزم الصبر بأقصى ما أستطيع. وكان وجودي برفقة آخرين مواساة عظيمة لي؛ فالإنسان يميل إلى الأنس بغيره حتى لو كان الحزن والألم هو كل ما يربطه بهم.

لكن للصبر حدودًا، وقد تجاوزها السجان مرارًا!

كنا ننتظر كل أسبوع تسرب إحدى الجرائد. لم نكن نستطيع اختيار نوع الجريدة، بل كانت تُحضر كيفما اتفق. ولأننا سجناء خطرون، في نظرهم، فقد كان الحارس يشير دائمًا إلى المصاعب التي يواجهها حتى يتمكن من القيام بذلك. وفي نهار يوم جمعة أقبل الحارس خالي اليدين وقال:

- لن تحصلوا على جريدة اليوم.

انتشرت الهمهمات الغاضبة بين السجناء. قال أحدهم بصوت خفيض:

- لماذا؟ بم أخطأنا؟

أجاب الحارس بسخرية وهو ينظر إلى المصحف في يدي:

- بينكم كشميري يريد أن يقسم بلادنا إلى أجزاء متناثرة.

أغلقت المصحف بعد أن أنهيت آية من سورة الكهف، والتفت إليه محاولًا السيطرة على أعصابي التالفة أصلًا:

- حق تقرير المصير كفلته الأمم المتحدة منذ عام ١٩٤٨، لكن بلدك يحرمنا هذا الحق. إن كان لديك ما تناقشه بعقلانية، فأنا على استعداد لذلك.

زمجر الحارس الذي اعتاد هدوئي وقال غاضبًا:

- هل تتهم الهند العظيمة بهذه الترهات؟

أجبته بهدوء مصطنع:

- لو كانت عظيمة لما استقوت على شعب أعزل لا يطالب سوى بحريته وحقوقه!

غادر الحارس لدقائق، ثم عاد بصحبة رفاقه واقتادوني خارجًا. كانت تلك آخر مرة أرى فيها زملاء الزنزانة. بلغت ساحة السجن فانهال الحرس عليَّ ضربًا، ثم جاء ضابط أعلى رتبة منهم وأمرهم بإدخالي إلى غرفة التحقيق حيث علقوني من يديَّ إلى الأعلى، ووضعوا غطاءً على رأسي فلم أتمكن من معرفة الأدوات التي استخدموها في تعذيبي. راح الضابط يكيل لي سيلًا من الشتائم ترافقها السياط الملتهبة، واستمر الأمر ساعات خُتمت بشعوري فجأة بشيء حاد يخترق جنبي الأيمن، قبل أن يسري خدر في أنحاء جسدي، توقفت بعده عن التنفس.

استيقظت بعد أسبوع في منزل ريفي. حدثني صاحبه على عجل بأنه رآني ملقى بين الأشجار السامقة على طريق السفر السريع، وكنت شبه ميت، فسارع إلى إنقاذي. وبعد أن استعدت وعيي طلب مني الرحيل على الفور. حاولت معرفة اسمه حتى أرد له معروفه يومًا ما، لكنه رفض، ورجاني ألا أعود ظنًّا منه أنني ضحية إحدى العصابات. فتفهمت ذلك ورحلت.

***

كانت السماء قد استحالت إلى السواد حين برزت أمامنا آزاد كشمير، وهي تتلألأ بأضوائها الساحرة في ذلك الليل البهيم. تدافعت الأسئلة في ذهني فور دخولنا مقاطعة باغ. لم يكن الأمر ممتعًا أن ندخلها بصورة غير رسمية، لكنني كنت منشغلًا بأسئلتي: ترى، هل كانت حميدة تسير على هذا الطريق؟ وأين كانت تذهب حين تشعر بالملل؟

كنت أرى حميدة في كل شيء، وأشم عبق رائحتها ينبعث من كل مكان، وكأنها لم تترك موضعًا إلا ووضعت فيه بعض لمساتها.

كنت مرهقًا من هذه الرحلة الطويلة، وكان رفيق شاه كذلك. وصلنا أخيرًا إلى منزل الصديق الذي سنمكث في ضيافته حسب الترتيبات، وهناك أوينا إلى النوم بانتظار الصباح الذي سيشهد الانبعاث من جديد.

نذير مصطفى واني

مظفر آباد ٢٠١٠

❊ ❊ ❊

٣٢

(آذار) مارس ٢٠١١

خرج ألطاف من مدرسته وهو يحمل دفترًا واحدًا. كان استقبال عامه الدراسي الأخير أشبه بحالة طوارئ اندلعت في منزلهم الصغير القابع على سفحٍ بعيد. حميدة، التي تُقدِّس العلم، حوّلت ذلك العام إلى كابوسٍ لازمه طويلًا. وعلى الرغم من محاولاتها الجاهدة، والخطط التي وضعتها لتوفير الهدوء والصفاء كي يدرس، فإن مرأى زملائه العابثين كان كفيلًا بإخماد تلك النار المشتعلة داخله.

لمح ألطاف شيخًا كبيرًا في أقصى الناحية الأخرى من البوابة يرمقه بحدة. أثار مظهره فضوله لكنه تجاهله ومضى ليلحق جاغديش الذي ينتظر طلاب السفح ليكدسهم في عربته.

تحركت الأوتوركشا، وما زال الشيخ محملقًا. زفر ألطاف بملل، بينما استدار جاغديش بالعربة إلى الوراء وقال مخاطبًا الطلاب:

- اسمعوني جيدًا، سأذهب لأعمل على حافلة صديقي في رامبان لمدة شهر كامل. يجب أن تبحثوا عمن يوصلكم.

تململ التلاميذ بضجر، وقال ألطاف وهو يتصنع الغضب:

- لماذا؟ هل وجدت مقابلًا مجزيًا أكثر مما نعطيك؟ ما هكذا عهدناك، ناكرًا للمعروف!

أرخى جاغديش ذراعه إلى الخلف محاولًا الإمساك بألطاف، الذي احتمى بزميله، وقال:

- اصمت أيها المشاغب. متى كانت آخر مرة دفعت لي فيها؟ لولا أنني أعود في هذا الوقت إلى منزلي لما أقللتكم، يا متحجري الرؤوس. لا أعلم هل هناك نتيجة من تعليمكم أم أنكم لا تختلفون عن الكرسي الذي تجلسون عليه!

ضحك التلاميذ وقال أحدهم معاتبًا:

- كم أنت قاسٍ، لقد جرحت مشاعرنا حقًا.

قال جاغديش بجدية:

- سأحاول أن أغطي مكان صديقي الذي أصيب بمرض. أما أنتم فلا تعبثوا في الجوار. لقد وضع أهاليكم آمالهم عليكم، فلا تحطموها. لم يبقَ لكم سوى بضعة أشهر فقط.

ثم راح يدندن لحنًا شعبيًا وهو مغتبط بما ألقى من نصائح، بينما سرح ألطاف بخياله بعيدًا.

استمر الأمر أسبوعًا؛ كلما خرج ألطاف لمح ذلك العجوز يحملق فيه ثم ينصرف. وحين همَّ مرَّة أن يتجه نحوه ليسأله عن خبره، أوقفه رنين هاتفه. أخرجه من جيبه بحنق وأجاب، دون أن يرى اسم المتصل، قائلًا:

- سيد أفتاب، كدت أن أفقد هاتفي بسببك! ما بالك اتصلت بي في وقت الدوام؟ لقد أخبرتك أنني سأهاتفك حين أنتهي.

رد الصوت من الناحية الأخرى:

- السيد أفتاب! ماذا أراد منك مرة أخرى؟

زال العبوس عن وجه ألطاف وهو يجيب مبتسمًا:

- لا أعرف يا جلالة الملكة، إنه يطاردني مؤخرًا لذلك سوف أمر اليوم إليه لأرى حاجته وربما أتأخر عن العودة قليلًا.

تنهدت حميدة ثم ردت:

- حسنًا يا بني، سننتظرك.

أغلق ألطاف هاتفه، ثم رفع رأسه ليجد العجوز قد اختفى. وبعد ساعة، كان ألطاف يقف على الشرفة الخاصة بالهاوس بوت الذي استضافه فيه السيد أفتاب. أخذ نفسًا عميقًا وهو يتأمل انعكاس أشعة الشمس الدافئة على صفحة البحيرة الساكنة، ثم التفت حين شعر بحركة أفتاب خلفه، وهو يضع كرسيًا إلى جواره ويطلب منه الجلوس. جلس الفتى، ثم بادر أفتاب قائلًا:

- فندقك العائم خالٍ من السياح على غير العادة.

ابتسم أفتاب وقال:

- لا تذكر ذلك أرجوك، إن العمل لا يسير على ما يرام مؤخرًا.

ضحك ألطاف وقال مازحًا:

- مؤخرًا! إنه لم يسر على ما يرام عندنا إطلاقًا.

حاول أفتاب تغيير دفة الحديث وقال، وهو يومئ برأسه إلى الأمام محدقًا في محدثه:

- هل تريد العمل عندي في المحل؟ أنت بارع في تشكيل الورق المعجن، وسأعطيك مبلغًا مجزيًا، ما رأيك؟

احتار ألطاف من كرم أفتاب المفاجئ؛ فلم يكن يومًا معطاءً، والعمال عنده يتركون العمل قبل إكمال عامهم الأول. سكت لحظات ثم أجابه قائلًا:

- هناك كثيرون يجيدون هذا العمل. أخشى ألا ألتزم بالحضور؛ فأنت تعلم وضعي كطالب ورب أسرة.

ابتسم السيد أفتاب بغرابة ثم قال مطمئنًا:

- لا تقلق، أعرفك جيدًا، ولهذا اخترتك. ثم ألست بحاجة إلى النقود؟ إنني أؤثرك بهذا العمل على سواك.

تذكر ألطاف حاجته للنقود كي يتمكن من ركوب الحافلة بدلًا من الركوب خفيةً في مؤخرة الشاحنات بعد رحيل جاغديش، وخشي أن يخبر حميدة فتتكلف الأمر وتعمل فوق ما تستطيع تحمله. أومأ برأسه موافقًا ثم قال:

- أنت على حق، إنني بحاجة إلى عمل الآن، ولكن...

قاطعه متلهفًا:

- ولكن ماذا؟

- أتمنى ألا تخبر أحدًا بأنني أعمل لديك!

صمت أفتاب محاولًا استيعاب ذلك الشرط، ثم قال متفهمًا:

- هل تخشى أن تعلم السيدة حميدة بالأمر؟ لا عليك، لن أخبر أحدًا. أنتظرك مساء الغد.

ثم وقف ليودع ألطاف الذي أضاف:

- وأرغب في استلام أجرتي يوميًا.

هز أفتاب رأســه موافقًا، وربت على كتف ألطاف، ثم جعل ينظر إليه وهو يغادر، بينما ظل يعبث بشاربه في توتر.

❊ ❊ ❊

٣٣

عدّلت ألفت وشـاحها وهي تهمّ بالخروج من المسـتشـفى بعد انتهاء نوبة عملها. وبينما كانت تسير في الطريق باتجاه السوق، لمحت والدها يمضي مسـرعًا في الاتجاه الآخر، فغيّرت مسـارها ولحقت به وهي تناديه ولما لم يسمعها وسّعت خُطاها حتى أدركته أخيرًا، وقالت لاهثة:

- أبي، فيم العجلة؟ ناديتك كثيرًا!

دُهش رفيق شاه وقال:

- خرجت وأنتِ نائمة، فظننت أنك لن تذهبي إلى العمل اليوم.
- أبي العزيز، منذ أن عدت من رحلتك وأنت كثير الخروج، هل هناك خطب ما؟ ربما أسـتطيع أن أنوب عنك فلا تتعذب بقطع كل هذا الطريق!

ابتسم الشيخ وربت على يدها مطمئنًا:

- بعض الأعمال... تجعلني أشـعر بالنشـوة والطاقة، فاتركيني في حالي. بالمناسـبة، ألا تريدين زيارة خالتك؟ لمَ لا تذهبين إلى السوق لإحضار هدية؟

نظرت ألفت إلى حقيبة يدها وقالت وهي تشير إليها:

- نعم، لقد أخبرتني بالأمس، وقد استلمت اليوم مرتبي وأنوي شراء هدية لخالتي عناب. سيسعدها ذلك.

- بالطبع، خالتك عناب قدمت لنا الكثير ولابد من رد جميلها. أحسنتِ التفكير.

ابتسمت ألفت قائلة:

- أبي، أنت صاحب الفكرة!

رفع حاجبيه وقال مستغربًا:

- أنا؟! لا أتذكر. على كل حال، هذا جيد. بالمناسبة، ألا تودين زيارة خالتك الأخرى؟ أفكر في أن نذهب يومًا لزيارتها.

أسعد هذا الاقتراح ألفت فقالت:

- لكن هل يليق أن نذهب دون مناسبة؟

هز رفيق شاه رأسه وقال منهيًا الحديث فجأة:

- جاءت لزيارتك حين كنتِ في بيت خالتك، ولا بد من رد الزيارة. سننهي حديثنا في المنزل، لا تتأخري.

ثم غادر وهو يلوِّح مودعًا بعصاه، بينما اتجهت ألفت منتشيةً باتجاه السوق وهي تحاول إحصاء ما ستنفقه من راتبها الصغير لشراء هديتين!

❊ ❊ ❊

٣٤

"... وهكذا واصـــل العالم تجاهلي. حتى ذلك العجوز المرعب كفّ عن إلقاء لعناته عليّ. لم يعد يؤذيني أن يغض الناس أبصـــارهم بأســـى كلما وقعت أعينهم عليّ، ولا يزعجني تربيتهم على رأســـي حين أمرّ بهم. كان كل ذلك محتملًا. إلا أن يعود عمي ألطاف من البلدة فيتجه مباشرة إلى المزرعة المجاورة، ولا يرجع إلا مع المغيب منهكًا. عندها كانت حكاياتي التي أعددتها له بعناية تذبل في صـــدري، وتخبو ألعابي التي رتبتها بفرح طوال النهار انتظارًا لعودته."

انتهت إينشا من ضفر جديلتها بعد أن أتقنتها أخيرًا. كانت والدتها قد أخبرتها بأنها ســتقيم لها احتفالًا حين ترتدي "الدوباتا" (غطاء الرأس التقليدي)، فكانت كلما سرّحت شعرها انشغل تفكيرها بالدوباتا الذي سوف تحيكه لها والدتها وتُلبسها إياه في مراسم البلوغ.

قطع تفكيرها صوت والدتها وهي تمسد شعرها برفق:

- فيم أنت سارحة؟

التفتت إينشا بلهفة وقالت:

- متى سنقيم مراسيم ارتداء الدوباتا؟

ضحكت حميدة وقالت محاولة إغاظة صغيرتها:

- أنت ترتدينه بالفعل، ألســـت تضـــعين وشـــاحًا على رأســـك كلما خرجتِ؟

قطبت حاجبيها وقالت بحنق:

- أمي! لا، لقد أخبرتني أنكِ ستقيمين حفلًا من أجلي لأشعر بأني كبرت.
- نعم يا حبيبتي، لننتظر حتى تكملي العاشرة. سأكون حينها قد جمعت المبلغ الكافي من أجل ذلك. أريده أن يكون احتفالًا رائعًا!

قفزت إينشا بسعادة بينما تابعت والدتها مبتسمة:

- تحدثت يومًا مع والدك، رحمه الله، عن هذه المراسم، فقال إنك ستظلين طفلته الصغيرة دائمًا مهما بلغ بك العمر.

جلست الطفلة وقد لمعت عيناها شوقًا، كعادتها كلما سمعت شيئًا عن والدها. وكانت سعادتها غامرة حين لم يعد الحديث عنه من المحظورات. قالت متسائلة:

- هل كان أبي يحبني؟
- بالطبع!

تابعت إينشا:

- إذًا لماذا تركني؟ أليس الأفضل أن نقضي الوقت مع من نحب؟

ابتسمت والدتها قائلة:

- لم يتركِكِ أبدًا. فعل ما يجب فعله لأنه يحبكِ كثيرًا، أكثر من أي شيء آخر.

لم تدرك إينشا مغزى كلام والدتها، لكنها ظلت مبتسمة لأن والدها قد

أحبها، وهذا يكفي.

في تلك اللحظة دخل ألطاف المنزل. ردت حميدة وإينشـــا التحية وهما ترقبان حركته الدؤوبة التي اعتادتا عليها منذ فترة؛ يبدل ملابسه بأخرى أكثر راحة ودفئًا، ويتناول الطعام الذي وضعته حميدة من أجله، ثم يغادر مسرعًا باتجاه مزرعة السيد شريف.

قالت إينشا بحزن:

- اشتقت لعمي، لماذا لم يعد يرجع باكرًا؟

تنهدت حميدة وقالت:

- إنه في عامه الأخير، وربما هنالك دروس مكثفة، لا أريد أن أضغط عليه.

ثم قامت لتنظيف المكان وهي تنظر من خلال النافذة إلى الحقل بقلق. لمحت حينها فاطمة وهي تقبل مسرعة باتجاه منزلها، فصاحت بإينشا أن تهتم بالباقي، بينما ذهبت لاستقبال جارتها وقد ازداد قلقها أكثر. صعدت فاطمة هضبة المنزل الصغيرة، ثم توقفت كعادتها لتلتقط أنفاسها، فبادرتها حميدة قائلة:

- خير يا فاطمة! ما بالك في عجلة من أمرك؟

ردت فاطمة وهي تلهث:

- خير، خير، إنه خير.

كان الجو شديد البرودة فأمسكت حميدة ذراع صديقتها وشدتها إلى الداخل

لشرب كوب من الشاي. جعلت فاطمة تجول ببصرها كمن يحن إلى المنزل الصغير الذي ألفته، ثم نظرت إلى الحصير الذي أصبح لا يختلف كثيرًا عن الأرض التي يغطيها. قاطعت حميدة تأملات فاطمة، وقد أفزعتها تصرفاتها:

- أختي، إن كان هناك من خطب فلا تقلقي، سأقدم لك كل ما أستطيعه من مساعدة. أرجوك، لا ترددي إطلاقًا.

ابتسمت فاطمة وقالت وهي تضع كوب الشاي بهدوء:

- لا تقلقي، فقط لا أعرف كيف أدخل إلى الموضوع.

ضمت كفيها وأردفت قائلة:

- في الواقع، ذهب زوجي صباح اليوم إلى سرينغار، وقد عاد قبل قليل وطلب مني أن أزورك لأسألكِ.

قاطعتها حميدة وهي تعقد حاجبيها:

- تسألينني عن ماذا؟

- السيد أفتاب، يعرض عليكِ الزواج.

أدارت حميدة رأسها إلى الخلف لتتأكد من غياب إينشا، ثم أطرقت تنظر إلى الأرض.

تابعت فاطمة وهي تقاوم عبرة ملأت عينيها:

- أعلم أنه رجل ميسور وستعيشين في حال أفضل مما أنتِ عليه الآن، ثم إنكِ لا تزالين شابة قوية، ولا بد أن يأتي ذلك اليوم الذي تفكرين فيه بالزواج مجددًا. تعلمين أنني سأفتقدك كثيرًا، لكنني أرى أن

الأفضل لكِ أن تفكري جيدًا في الأمر.

ابتسمت حميدة متفهمة وربتت على كتف فاطمة، وطلبت منها مهلة ثلاثة أيام للتفكير. وبعد أن تبادلتا أطراف الحديث في مواضيع مختلفة غادرت فاطمة. وبينما كانت تسير وسط الحقل، استدارت لتلقي نظرة إلى المنزل؛ منزل واني الذي كان وجهتها في معظم الصباحات. تنهدت بحزن، ثم واصلت المسير.

❊ ❊ ❊

٣٥

وضعت ألفت أكواب الشاي أمام والدها الذي اعتاد أن يشرب كوبين وهو يحدّق في النهر الذي كان ينساب بهدوء قبالة منزلهم. قال ممازحًا ابنته:

- سأشتاق إلى لحظات تأمل النهر برفقتك.

ابتسمت ألفت، وقالت بعد أن تذكرت شيئًا وهي تضع رداءً من الصوف على والدها:

- مرّت فترة طويلة منذ اقترحت الذهاب إلى منزل خالتي أم إقبال، هل نسيت؟

اعتدل رفيق شاه في جلسته وقال بمرح:

- ياه! لقد نسيت! متى تودين الذهاب؟ اليوم، أم غدًا؟
- أبي، أرجوك، حدد موعدًا ثابتًا.
- بعد أسبوع من اليوم إذن.

سرها تحديد موعد الزيارة وبينما هي متجهة إلى الداحل ارتطمت قدمها بعتبة الباب بقوة، فصاحت متألمة.

قال رفيق شاه وهو يكتم ضحكته:

- هل أنتِ بخير؟ كم أنتِ خرقاء يا ابنتي!

❊ ❊ ❊

٣٦

وضعت حميدة أطباق الطعام المكوَّن من الجبن والأرغفة على الطاولة، بينما ذهبت إينشا لإيقاظ ألطاف لينضم إلى العشاء. جلس الثلاثة يتناولون الطعام في جو دافئ كعادتهم، بينما كان ألطاف يجيب على أسئلة إينشا الكثيرة.

تأملت حميدة طفليها الصاخبين بارتياح. لم تكن تعلم أنها ستصبح أكثر استقرارًا بعد أن وصلها خبر يقين عن زوجها المختفي منذ سنوات. على الأقل، تستطيع أن تدعو لروحه التي آمنت بأنها في مكان أفضل.

لم يكن طلبها من فاطمة أن تمنحها مهلة ثلاثة أيام نابعًا من رغبتها في التفكير بالأمر؛ ففكرة الزواج لم تخطر ببالها أصلًا. ربما بعد سنوات، لا تعلم، أما الآن فهي راضية ومطمئنة بحياتها رغم صعوبتها. أما المهلة، فلم تكن سوى وسيلة لقطع أي محاولات أخرى لإقناعها؛ فالقلب ما زال مشغولًا.

فكرت في إخبار ألطاف، لكنها خشيت أن يزعجه الأمر، وحتى لا يعتقد أنه السبب في رفضها للزواج، فقررت أن تخفيه عن الجميع.

عادت فاطمة في صباح اليوم الرابع. سألت بلهفة بعد أن استوت جالسة:

- ها؟ ما قرارك؟ السيد أفتاب دائم الاتصال بزوجي، يبدو أن المهلة زادت من توتره.

كانت فاطمة تفرك يدها في توتر، أمسكتها حميدة برفق حتى تهدأ وقالت:

- أرجو منكم أن تبلغوه تقديرنا لهذا العرض الطيب، لكن ليس بيننا نصيب، والحمد لله على كل حال.

أشرق وجه فاطمة. وقالت وهي تتظاهر بالحياد:

- قدر الله وما شـــاء فعل! كنت أتمنى لو كان ذلك باب خير يفتح لأجلكم.
- لا أفكر في الزواج يا فاطمة، وأنت تعلمين أكثر من غيرك أن المال آخر ما أفكر فيه!

ابتسمت فاطمة بانبساط قائلة:

- نعم، أنتِ على حق. السيد أفتاب لا يناسبك إطلاقًا. في الحقيقة، لم أكن مطمئنة إلى الأمر منذ البداية، لكنني لم أشـــأ أن أحرمك من حقك في الاختيار.

لم يتوقع الســـيد أفتاب الرفض، فراح يذرع محله جيئة وذهابًا، ثم توقف فجأة أمام مرآة معلقة بجوار السلم، وأخرج سيجارًا وحاول إشعاله مرة تلو أخرى بيد مضـــطربة حتى نجح في ذلك. كان على اســـتعداد للتضـــحية بكل شيء، حتى الوطن، في سبيل الوصول إلى بغيته. سحب نفسًا عميقًا، ثم أخذ يشذب شاربه بتوتر وتمتم بحنق:

- نذير! أما زلت تبتليني حيًا وميتًا؟!

❊ ❊ ❊

٣٧

ارتدت ألفت فستانًا سماويَّ اللون مع بنطال أبيض، ثم لفّت وشاحها حول رأسها بإهمال، وجعلت تتأمل وجهها النحيل، وتمرر يدها على ثوبها المنسدل بإتقان على جسدها. ثم تذكرت آخر مرة رأت فيها إقبال حين أشار إلى حجابها قائلًا: "حبًّا لله، شعركِ جميل، ولا أرغب في أن يراه أحد!" تذكرت ذلك فسارعت إلى إخفاء خصلاتها الحمراء المتناثرة.

دلف والدها إلى غرفتها يستعجلها، وأمام العربة قالت بخيبة أمل:

- أبي! سنصل غدًا إن اعتمدنا على هذه العربة، لم لا نستقل حافلة؟

استند رفيق شاه إلى عربته وقال:

- لا تقلقي، سنقطع هذا الجسر، ثم نستدير من خلف تلك التلال (مصفقًا بيده)، ونكون قد وصلنا.

أدارت ألفت رأسها لترى التلال التي أشار إليها والدها، ففتحت فمها دهشةً وقالت:

- لقد عبّدوا الأرض ورصفوا الطرق؛ فمثل هذه المسالك باتت مرهقة وتستغرق أيامًا يا أبي. أرجوك، سأدفع الأجرة من مالي.

قالت ذلك وهي تبحث في حقيبتها. أمسك الشيخ بيدها وهو يضحك قائلًا:

- حسنًا، حسنًا، لنستقل حافلة. كنت أمزح فقط! أخفي نقودكِ الآن.

نزل الاثنان في نهاية الخط الرئيسي المقابل للسفح. وبينما كانا يسيران باتجاه

المنزل المنشود، لمح رفيق شاه رجلًا عجوزًا يصرخ في مجموعة من الفتية يعملون في أحد الحقول. دقّق النظر مليًّا، ثم صرخ بأعلى صوته:

- محمد قادر!

استدار العجوز الواقف في الحقل باتجاه الصوت، ثم علت وجهه ابتسامة شقّت طريقها بعد عمر طويل من التجهم. طلب رفيق شاه من ابنته أن تسبقه إلى منزل إقبال، ثم أقبل محمد قادر يحتضن صديقه بشوق:

- سارفاراز، أيها العزيز، مضت سنوات عديدة منذ آخر مرة رأيتك فيها.
- إنها الحياة؛ أخذت منا قوة الشباب وألقت بنا إلى الكهولة وما تحمله من سآمة وضجر.

ضحك محمد قادر وقال مازحًا:

- أما زلت تحن لأيام الجهاد؟ كنت ذئبًا شرسًا آنذاك.

ربت رفيق شاه على ظهره مواسيًا:

- نعم، هل مازلت تغار من حنكتي وسرعة بديهتي العسكرية؟

قهقه محمد قادر ضاحكًا، فانتبه فتية الحقل ونظروا مشدوهين إلى هذا الحدث النادر. سأل رفيق شاه:

- أتيت إلى هنا من قبل، لكنني لم أرك قط!

تنهد محمد قادر وقال متأملًا:

- لم أعد كما كنت في السابق، فلا أختلط بأهل القرية كثيرًا. أقضي

جلّ وقتي في المنزل، أو أتوارى في أعماق الحقل بعيدًا عن الأنظار.

مضى الصديقان إلى جذع خشبي ضخم وجلسا عليه يتبادلان ذكرياتهما.

تنهد رفيق شاه بحزن وقال:

- وضع الجهاد في وقتنا هذا أصبح صعبًا. قضيتنا باتت مجهولة لدى كثير من أبناء أمتنا، ولم يعد أحد يتذكر آلامنا وأحزاننا، وبدلًا من أن يكون الحق معنا صرنا في موضع الاتهام!

هز محمد قادر رأسه مؤكدًا، بينما أردف رفيق شاه:

- أتعلم أن الهند بدأت بإنشاء مستعمرة في غرب الوطن؟ إنهم يسعون إلى تغيير التركيبة السكانية والإكثار من غير المسلمين هنا.
- هذا خطر جدًا! هل تعلم الحركة بالأمر؟

تنحنح رفيق شاه بحسرة وقال:

- نعم، وقد أصدروا بيانًا يستنكر ذلك، ولكن ما الفائدة؟ هل سيصغون إلينا؟ هل نسيت تلك الفترة من الزمن حين منعونا من ذبح الأبقار؟ سيكررون حملاتهم مرارًا وتكرارًا، ظنًّا منهم أننا سنملّ ونسلّمهم أرضنا ورقابنا وديننا...

قطع حديثه متسائلًا:

- بالمناسبة، لقد سمعت أن نجل الشهيد مصطفى واني يعيش في هذا السفح؟

هز محمد قادر رأسه وقال وهو يشير إلى الجهة المقابلة:

- نعم، لا تزال أســرته تعيش في ذلك المنزل، هناك في أقصــى تلك الهضبة. لقد كان طيب الذكر، والطيبون يرحلون سريعًا.

راح رفيق شاه يتأمل المنزل البعيد وهو يهز رأسه في صمت، ثم حصل بعد ذلك على بعض المعلومات المفيدة من رفيقه. كان ألطاف يدرس في الثانوية العليا، أي إنه ذلك الفتى الذي كان يراه خارجًا منها أثناء عودته من مهامه المختلفة، والذي شبّهه من أول وهلة بصادق.

قطع محمد قادر الصمت قائلًا:

- ألم يخبرك إقبال عنهم؟

أدار رفيق وجهه إلى الناحية الأخرى قائلًا:

- ذلك المثابر! إنه لا يعود إلى منزله إلا قليلًا، ولا يختلط بصــبية الحي. ولا أراه إلا نادرًا!

❊ ❊ ❊

٣٨

أخذ صـابر رشـفةً من كوب النسـكافيه على طاولة مكتبه، ثم قال مخاطبًا الرجل الجالس أمامه:

- كـل شـيء جـاهز. لقـد مُنحـت هويـة لاجئ من قبـل الحكومـة الباكسـتانية، وبإمكانك الآن التنقل بحرية. لكنني لا أنصـحك بالعودة إلى الهند.

جعل صادق يقلب بصره في البطاقة التي بين يديه، ثم قال:

- أشكرك على جهودك، ماذا بشأن الحركة؟
- لم يصلني أي أمر من ضياء الدين، وحتى ذلك الحين فأنت مرحب بك في منزلي.

قال صادق:

- ممتن لعرضك الكريم لكني أفضل البقاء في السكن التابع للحزب.
- كما تشـاء، وسـأكون موجودًا دائمًا إن احتجت إلى أي شـيء. لكن من الأفضل أن تعيش في سكن مستقل. سأدلك على صديق تشاركه السكن.

في غرب مقاطعة بونش، كان صـادق يقف قبالة مبنى قديم مكوَّن من خمسـة طوابق. وبعـد أن سـأل حـارس المبنى، دلـه على الشـقة المطلوبـة. كـان هناك سـلم عتيق، لكنه أنيق. أمسـك صـادق بالدرابزين المنقوش وتأمله

لحظاتٍ في شــرود، كأنه تذكر شــيئًا أوقد لوعة الحنين في قلبه. هز رأســه ثم مضــى إلى الطابق الذي يقصــده؛ فماذا عســاه يتذكر من بلده، بلد النقوش والفن؟

❊ ❊ ❊

٣٩

أنهى ألطاف عمله، ثم وقف بجوار الباب منتظرًا أن يمنحه السيد أفتاب أجرته. حضر الأخير متأخرًا في ذلك اليوم، فبادره ألطاف قائلًا:

- هل كنت في الفندق؟ هل حصلت على زبائن؟

أجاب أفتاب وهو يخرج بعض المال من جيبه ويقوم بعده:

- لم يعد العمل مهمًا بالنسبة لي، فهي لم توافق على أي حال!

- من هي؟

تظاهر أفتاب بالدهشة وقال وهو يرمق ألطاف بنظرة فاحصة:

- ألم تخبرك؟ تقدمت إلى السيدة حميدة، لكنها رفضت عرضي للزواج.

فغر ألطاف فمه في دهشة:

- زواج؟! لم تخبرني بذلك!

ثم أضاف وهو يفتح باب المحل على عجل:

- لا بد أنها فكرت مليًّا في الأمر، ولديها أسبابها الوجيهة. آمل أن تقدر ذلك.

ثم هرع مغادرًا دون أن يأخذ ماله أو يستمع إلى الرد.

في البيت تمالكت حميدة أعصابها وهي تستمع إلى عتاب ألطاف الغاضب. وتملّكها الفضول لمعرفة رأيه، فسألته:

- ردة فعلك هذه توحي بأنك كنت ستوافق!

ضحك ألطاف قائلًا:

- بالطبع لا! لكنني كنت أعمل لديه. ولو علمت بموضـــوع الزواج لتوقفت عن العمل. حتى لا أتعرض للحرج!

وضعت حميدة كفها على رأسها وقالت:

- آه، إذًا كنت تعمل لديه طوال هذا الوقت، وأنا أظنك تدرس! اسمعني جيدًا، ستترك هذا العمل فورًا.
- لا تقلقي فلن أعود لمحله على أي حال.

تنهدت حميدة بارتياح، وهي ترى ابتسامة رضا على وجه ألطاف.

❊ ❊ ❊

٤٠

"كان المشهد من الأسفل خياليًّا؛ الجبال تتوشّح بالبياض وتذرف دمع الحنين رقراقًا، فينساب بتؤدة عبر الينابيع التي لا تنضب، ويشق طريقه في مجاري المياه الممتدة على طول الحديقة، ليصبّ أخيرًا في قلب بحيرة دال النابض بالحياة. كان اختيار توقيت تلك الرحلة مثاليًّا؛ ففي ذروة الربيع، وعلى ربوة باربات الواسعة، كانت الأسر تتدفّق من كل مكان، تحمل السخّانات لغلي الشاي تحت ظلال الأشجار. كان أكثر ما ميّز تلك الرحلة تنازل أمي عن بعض قواعدها الصارمة، وسماحها لنا بقضاء وقت ممتع."

حدث كل ذلك سريعًا؛ حضور أنفال في صباح ربيعي مشمس من أيام الأحد برفقة والدتها وشقيقها، بعد اتفاق الأسرتين على القيام برحلة إلى (نيشات جاردن). ترددت حميدة في البداية، خصوصًا وأن رفيقة دربها، فاطمة، لن تتمكن من الحضور.

نزلت النسوة من السيارة أمام بوابة الحديقة المبهرة بألوانها ونقوشها المغولية التاريخية. أخرج إقبال الأغراض من المقعد الخلفي، ثم انطلقوا إلى الداخل.

دهشت إينشا لرؤية المكان للمرة الأولى؛ سفوح جبل زباروان بدت كمدرّجات خضراء، ومروج آسرة الجمال تمتد على مسافات شاسعة. أشار

ألطاف إلى إحدى النوافير التي تتوسط القنوات المائية الممتدة على طول الحديقة، مقترحًا على الجميع الوقوف لالتقاط صورة جماعية. أخرج إقبال الكاميرا الرقمية من جيب معطفه، ووقف الخمسة على مسافة كافية لتظهر ملامحهم الباسمة التي تغلبت على كثير من لحظات اليأس والقهر والمعاناة. وكانت قمم الجبال البيضاء تحيط بهم كعجوز تحتضنهم بدفء ومحبة.

ركضت إينشا برفقة أنفال. تجاوزتا الحاجز المزيّن بقوالب الإضاءة المستديرة، الفاصل بين الطريق المرصوف والعشب المقصوص بإتقان، وتوقفتا لتأمل الشلال الصغير الذي يصب في المجرى. كان يحيط به سوران ضخمان تكسوهما الأشجار الخضراء المتسلقة، في مشهد أقرب إلى لوحة زيتية متناهية الدقة. وعلى جانبي الحديقة، ومن بعيد، كانت أشجار التشينار السامقة تطل بفروعها التي ترفرف في الأفق. ثم تراكضتا بمرح لتنضما إلى بقية الأطفال الذين يلهون في المكان.

مضى الوقت سريعًا دون أن يشعروا به، فقرروا الإسراع للعثور على مكان خالٍ في مرتفع باربات الأخضر قبل حلول موعد الغداء. وفي طريقهم إلى الخروج، لمحت إينشا شابًا يجلس على مسطبة وقد وضع أمامه صندوقًا مفتوح الجانبين يكتظ بملابس تبرق بزخارفها وألوانها الزاهية، وإلى جواره مرآة طويلة جميلة ولوح يعرض مجموعة صغيرة من الصور. أشارت إليه إينشا بلهفة، طالبة من والدتها الاقتراب لمعرفة ما يبيعه، لكن حميدة قالت رافضة:

- إنه يستهدف السياح يا ابنتي، يُلبسهم ملابسنا التقليدية ويلتقط لهم الصور.

قاطعتها إينشا برجاء:

- أمي أريد تجربة ذلك أيضًـــا! أنا لا أمتلك واحدًا من تلك الملابس الثقيلة.

شاركتها أنفال الرغبة فقالت والدتها:

- في عرس إقبال ســأشــتري لكما أجمل من تلك الملابس، أعدكما بذلك، نحن لا نملك المال الكافي للترف الآن!

قال إقبال وهو ينحني إلى الأمام محاولًا إرضاء الصغيرتين:

- سأذهب بصحبة ألطاف لإحضار بعض الذرة والبيض، هل ترغبان في شيء منهما؟

وافقتا بعد تردد. ضحك ألطاف وهما في طريقهما إلى أحد الباعة المتجولين قائلًا:

- يصعب إرضاء الفتيات.

ثم تغير لونه وحاول الاختباء خلف إقبال، وهو يقول:

- السيد أفتاب ماذا يفعل هنا؟!
- من هذا الرجل؟
- إنه جارٌ قديم لنا.

نظر اقبال نحوه متعجبًا وقال:

- ولمَ تختبئ منه؟!

- سيطول الشرح، دعنا منه الآن ولنسرع بالعودة.

سحب إقبال ذراعه من الخلف دافعًا إياه إلى الأمام وقال:

- سنشتري ثم نعود.

وضع الرجل الذرة على الفحم المتوقد، وهو يتحدث عن مصاعب الحياة اليومية في ظل المراقبة الشديدة التي تمارسها الشرطة الهندية على الباعة المتجولين. اندمج الاثنان في الحديث المكرر عن المعاناة، وقد اشتعلت في نفسيهما مشاعر الغضب والأسى إزاء ما تؤول إليه الأمور.

وفجأة، ربّتت كف على ذراع ألطاف، فانتفض، ثم قال متمالكًا أعصابه:

- سيد أفتاب! أنت هنا!

ابتسم محدثه وقال وهو يشذب شاربه:

- ألا يمكنني القدوم إلى هنا؟!

ثم ضحك وأردف مشيرًا إلى داخل الحديقة:

- أمتلك كشكًا صغيرًا هناك. بالمناسبة، لماذا توقفت عن القدوم إلى العمل؟ أعتقد أنني أعرف السبب مسبقًا. هل تعتقد أن لدي فرصة؟

أطرق ألطاف برأسه وقال:

- لا أعرف.

تنهد السيد أفتاب وهو يعدل قبعته، ثم ودعهما مغادرًا.

قال إقبال متسائلًا:

- هل بينكما تجارة مشتركة؟
- لا. كنت أعمل لديه، وقد تقدم طالبًا الزواج من زوجة أخي الشهيد فتوقفت عن العمل لديه.

نظر إقبال إلى ألطاف بصدمة:

- ماذا؟!
- ماذا دهاك؟

قبض إقبال على كُم قميص ألطاف وسأله:

- هل وافقَت؟
- والدة إينشا؟ لا لم توافق بالطبع! هل يهمك هذا الأمر؟

تلعثم إقبال وهو يقول:

- فقط... لا يبدو ملائمًا لكم. أعني أنكم أسرة ذات قضية وهدف. في الواقع، إنني أعز أخي نذير كثيرًا.

ابتسم ألطاف وهو يربت على ظهر رفيقه برفق، بينما تنهد إقبال في حيرة.

"ثم سرنا وذراع عمي ألطاف تتأرجح أمامي ذهابًا وإيابًا. لم يكفّ طوال تلك الرحلة عن مضايقتي حتى أصرخ وأشكوه إلى أمي، فتسعى الأخيرة إلى تبرير ذلك بامتحاناته المقبلة التي سببت له ذلك التوتر. أما أنا، فقد كنت أعلم أن ذلك لم يكن السبب؛ فهو لا يبدو كطالب يوشك على التخرج إطلاقًا. وبينما كنت أقضم حبات الذرة شهق الجميع من روعة المشهد ونحن نقف أمام أضخم

أشـجار الصـنوبر على الربوة. من حسـن حظنا أن المسـاحة تحتها كانت خالية. هرعنا للجلوس في ظلها، بينما كانت القلعة القديمة تشـرف علينا من الخلف، وأمامنا مشـهد رائع لحلقات من البشـر تشكلت كأنها أزهار توزعت بانتظام على بساط أخضر عابق."

جلس إقبال بمحاذاة ألطاف، ثم مدّ ساقه إلى الأمام معتذرًا. سأله ألطاف إن كانت تؤلمه.

أجاب إقبال:

- رغم أنها مبتورة، لكنها تؤلمني أحيانًا وكأنها ما تزال موجودة، لذلك أتناول المهدئات.

رد ألطاف وهو ينظر نحوه بدهاء:

- يجب أن تعجّل بزواجك، يُقال إن الزواج يحل كثيرًا من المشكلات!

ضحك إقبال، بينما بدأ الجميع باحتساء الشاي. أما الصغيرتان فلم تصبرا، وسارعتا إلى فتح علب البسكويت والحلوى.

التقط إقبال قطعة من البسكويت، ثم أمسك بهاتفه النقال وبدأ بكتابة رسالة قصيرة إلى رفيق شاه يطلب فيها لقاءه. بعد ذلك فتح شبكة الإنترنت، وجعل ينشـر في مواقع التواصـل بعض المنشـورات التي تدعو إلى الخروج في مسيرات مناهضة للمخيمات الاستعمارية التي تزحف بصمت.

قال ألطاف وهو يختلس النظر إلى هاتف رفيقه:

- هل تعتقد أن الجماهير ستنزل في اليوم المحدد؟

رد إقبال وهو يبحث في هاتفه عن صورة مناسبة يرفقها بالمنشور:

- نحن لا نعتقد، بل نؤمن! فهُم يحبون الوطن مثلنا يا ألطاف.

تنهد ألطاف وعدَّل جلسته ثم قال:

- كل المسيرات، مهما اختلفت مسمياتها أو شعاراتها، تواجه بالقمع والتفريق والعنف. فهل سينزل من يعلم مسبقًا بهذا؟ لماذا لا نترك كل ذلك ونركز على تطوير أنفسنا بالعلم، ونقتحم مختلف المجالات، ثم نعيد بناء وطننا بهذا الشكل؟

وضع إقبال هاتفه جانبًا واستدار باتجاه ألطاف وقال:

- وهل تعتقد أننا لا نعمل على ذلك؟ نعم يا أخي، قد تتبادر إليك مثل هذه الأفكار، فأنت الآن مقبل على الحياة بكل اتساعها؛ جامعة ثم عمل ثم وظيفة وما إلى ذلك. لكن كل هذا لن ينسيك أنك تعيش في سجن واسع. ألم تسمع عن لاعبي الكريكيت الذين أُعيدوا فقط لأنهم من كشمير؟! وما حدث لشقيقك ليس ببعيد. ما دمت تعيش في ظل هذا الحكم القمعي فلن تستطيع أن ترفع رأسك أو تلتقط أنفاسك. يجب أن نعمل على الجهتين؛ فلا نغفل قضيتنا وحقنا، ولا نُقصر في تطوير أنفسنا والرقي بمجتمعنا. نحن نحاربهم بالسلاح لأنهم يحتلون أرضنا بقوة السلاح، ونحاربهم بالسياسة لأن قضيتنا سياسية أيضًا. هل تتفق معي الآن؟

هز ألطاف رأسه موافقًا فسأله إقبال:

- حدثني عن مستقبلك، ما الدراسة التي تطمح إليها في الجامعة؟

شبك ألطاف أصابع كفيه وهو ينظر إلى المنحدر العشبي أمامه وقال:

- سألتحق بجامعة كشمير للعلوم الزراعية بإذن الله. لقد حصلت على متطلبات التسجيل مسبقًا.

ربت إقبال على ظهر رفيقه وهو يهتف بإعجاب:

- أوه يا عزيزي، أنت متحمس حقًا!

تظاهر ألطاف بالانزعاج وهو يبعد يده عن ظهره قائلًا:

- توقف عن هذا! لست طفلًا.

استمر إقبال في التربيت على ظهر ألطاف حتى قفز الأخير من جواره، متخذًا وضعية التحدي كأنه يدعوه إلى مواجهة. ضحك إقبال حتى أوشك على الوقوع، لكن هاتفه قطع تلك اللحظات وهو يرن، وقد ظهر اسم رفيق شاه على الشاشة.

❊ ❊ ❊

٤١

(أيار) مايو ٢٠١١

في ليلة مقمرة، كان إقبال واقفًا بجوار مقهى يقع على هضبة مجاورة لسفح القرية الكبير، وإلى جواره يجلس عددٌ من الرجال وكبار السن يتطلعون باهتمام بالغ إلى مباراة كريكيت على شاشة تلفاز صغيرة موضوعة على لوح خشبي مثبت في جدار المقهى. أخذ يوزع نظره بين شاشة التلفاز وشاشة هاتفه، ثم استسلم للجلوس على أحد المقاعد الخشبية وتنهد بملل. بعد لحظات لمح رفيق شاه يصعد الهضبة بصعوبة، فهب واقفًا وأسرع لمساندته حتى استقر بهما المقام على بضع حجارة كبيرة بجوار المقهى. سأله إقبال:

- كان أمرًا عاجلًا، لِمَ تأخرت بالرد يا عماه؟

تنحنح رفيق شاه وهو يأخذ نفسًا:

- كان لزامًا عليّ أن أبحث في الأمر قبل أن أعطيك الجواب. وكما أخبرتك من قبل، فمثل هذه الأمور المهمة لا يُتحدث بها عبر الهاتف.

ثم قطب حاجبيه وهو يقول بامتعاض:

- ما هذا المكان الصاخب الذي اخترته من أجل اللقاء؟ هل كان لزامًا أن يكون في أعلى هضبة؟

ابتسم إقبال بخجل:

- آسف، اعتقدت أنك ستفضل مكانًا بعيدًا كهذا.

رفع رفيق شاه يديه إلى السماء قائلًا:

- يا إلهي ارحمني!

اقترب إقبال محاولًا تغيير دفة الحديث:

- ما رأيك؟ هل الوقت مناسب لإخبارهم؟
- صـــادق يشـــك في وجود عميل للمحتل قريب من العائلة، ولكي يتأكد من الأمر فإنه يفضـــل إبقاءه طي الكتمان مع مراقبة الوضـــع. هذه مهمتك.

قال رفيق شاه ذلك هامسًا.

جال إقبال ببصـره في الأرض المحيطة وهو غارق في التفكير. وأضـاف رفيق شاه:

- يمكنك فقط أن تخبرهم بأن الحركة هي التي تشـــك في الأمر، وأن يلتزموا الحذر ويبتعدوا عن الارتباط بأحد خلال هذه الفترة حتى نكتشف الحقيقة.

اتسعت حدقتا إقبال وسأل:

- هل تقصد السيد أفتاب؟
- لا شيء مؤكدًا حتى الآن. لم يخبرني صادق باسم معين.

صـــمت الاثنان، وكل منهما يفكر في حيلة يتمكنان بها من لمّ شـــمل الأســـرة الجريحة.

❊ ❊ ❊

٤٢

تلقى صـادق اتصـالًا من صـابر يطلب منه القدوم إلى مكتبه. وبعد نصـف ساعة كان صادق في مكتب صابر. نظر إليه بترقب، فقال صابر بعد أن أجرى اتصالًا سريعًا:

- غياث بك يريد لقاءك.

أمسك صادق ذقنه وقال:

- غياث بك، هو قائد الجناح العسكري الحالي، أليس كذلك؟
- بـالضـبط. إنـه في طريقـه إلى هنـا. ويجـدر بـك أن تعرف أن لقبـه الحركي هو "الشبح".

طُرق الباب، فانتصـب صـابر قائمًا، وبعد أن رحب بالضـيف القادم وأدخله إلى الداخل غادر الغرفة مغلقًا الباب خلفه.

كان غياث بك ضـئيل الجسـم، قصـير القامة، على خلاف ما تخيله صـادق؛ فقد سبقته سمعته الذائعة. كان الشبح مشهورًا بحنكته وذكائه، وهو مطلوب للهند منذ أكثر من عشـرة أعوام، كما اشـتهر بأنه شـخص عملي لا مكان للمجاملات في تعاملاته.

بعد أن اطمأن غياث بك عن حال صادق قال له:

- من المسـتحيل في هذه الفترة أن تعود لاسـمك القديم، أو أن تعود للعيش في كشمير.

كان صـادق يدرك هذا الأمر، لكن سـماعه من شـخص آخر أشـعره بأن كل شيء قد أظلم من حوله. أغلق عينيه وتنهد بعمق ثم قال:

- أريد أن أتقدم لامتحان المحاماة وأحصـل على شـهادة تمكنني من العمل مجددًا.

شبك غياث بك أصابعه وقال:

- فكرة جيدة، ومهمة. هناك أيضًا اقتراح أريد أن أعرضه عليك.

تطلع إليه صادق متسائلًا، فانحنى غياث بك إلى الأمام وقال:

- أرغب في أن تنضم إلى الفرقة التي تنقل المؤن والسلاح إلى الناحية الأخرى. فكر في الأمر ثم أعلمني بقرارك.

انفرج وجه صادق بابتسامة واسعة وقال بلهفة:

- نعم، نعم سأقوم بذلك!

أسند غياث بك ظهره إلى المقعد وقال موضحًا:

- لا تستعجل. إنه أمر بالغ الخطورة، وأنا أعرضه عليك وأنك مررت بتجربة التسلل عبر الحدود. فكر بتمهل.

بعد أن غادر غياث بك دخل صـابر ليرى علامات الانشـراح بادية على وجه صـادق. ابتسـم فور أن تـذكر أمرًا، وقـال حين رأى صـادق يهم بالانصراف.

- وصلتني رسالة بريد البارحة وأعتقد أنها تهمك.

نظر صـادق إلى محدثه وهو يعبث في حاسـوبه، ثم أدار الشـاشـة باتجاهه

لتبرز صـــورة جميلة لخمســـة أشـــخاص يقفون جنبًا إلى جنب في إحدى الحدائق.

أمسك صادق بالشاشة بين كفيه واقترب بوجهه إلى الأمام، محدقًا في الناحية اليسرى من الصورة، حيث تقف حميدة وهي تبتسم بسعادة، وإلى جوارها إينشـــا متألقة، وإلى جوارهما ألطاف وقد أضـــحى شـــابًا وســـيمًا أطول من الجميع.

كانت ذراع صادق ترتجف كما ترتجف ملامح وجهه وهو يحاول التماسك، لكنه لم يستطع في نهاية الأمر واستسلم للبكاء لأول مرة منذ أن أُقحم في هذه المحنة. بكى كالأطفال حنينًا ووجعًا، وقد نسي أن هناك من يشاركه الغرفة.

كان كل ما يشغل باله آنذاك أن تبقى الصورة أقرب ما تكون إليه.

أطرق صـــابر برأســـه متأثرًا، ثم اســـتقام متجهًا نحو صـــادق وربت على كتفه مواسيًا، ثم تركه وحده حين أدرك أن ذلك هو كل ما يحتاج إليه.

"قد يكون أولئك السيئون هم أقرب الناس إليك".

تذكر صـــادق هذه المقولة التي كان والده يرددها، فازداد قلقه من تأخر قراره في إخبار أهله بأنه ما يزال على قيد الحياة.

مرت أيام منذ ذلك اللقاء، ظل صـــادق خلالها يفكر في الأمر الذي عرضـــه عليه غياث بك. كان يشعر بأن موافقته قد تمنحه فرصة لقاء أسرته، ويشعر أحيانًا بأنها قد تحرمه منهم. ثم راحت المخاوف تتبادر إلى مخيلته، فتدفعه إلى إعادة التفكير.

"لا بد أن أحميهم، ولا بد أن أقوم بدوري من أجل القضـية! رباه، كيف أجمع بين الأمرين!"

مرت إجازة الصـيف سـريعًا، ومع غزارة الأمطار في تلك الأشـهر المتعاقبة كان إنتاج حميدة خلال تلك الفترة هو الأكبر على مدار السـنة؛ فهي تعتكف على العمل ولا تخرج كثيرًا. وقد ساعدها على الاستقرار أكثر أن ألطاف قد تخرج من المدرسة، فشعرت بأن همًا قد انزاح عن كاهلها.

في إحدى تلك الصباحات الماطرة، وبعد أن توقف المطر بساعة، أتى مظفر لزيارة حميدة. كان ألطاف في حقل السيد شريف يتفقد الزرع حين أقبل عليه الأخير يخبره بقدوم ذلك الزائر "المميز"، قالها ضاحكًا. خلع ألطاف حذاء العمل، ثم ارتدى حذاءه الآخر وعاد راكضًـا وهو يأمل أن يكون كل شـيء على ما يرام.

وضعت حميدة أكواب الشاي على الطاولة وبعض البسكويت الذي صنعته. شـكرها مظفر بامتنان واعتذر عما جرى لنذير. وبعد صـمت للحظات همّ ألطاف بالحديث، لكن حميدة سبقته قائلة:

- لا تعتذر عن شـيء لم تخطئ فيه يا إمام. نحن ممتنون لاهتمامك بـالأمر وبحثك الـدؤوب عن نـذير رغم أنـك سـجنـت وفقـدت وظيفتك.

قال مظفر إن هذا واجبه وأضاف:

- جئت اليوم لأودعكم؛ فقد نُقلت للاهتمام بمسجد في أحد ضواحي

جامو. آمل أن تكونوا بخير دائمًا، وهذا شيء بسيط أودعكم به.
ثم وضع على الطاولة كيسًا متوسط الحجم مربوطًا بإحكام.
قال ألطاف شاكرًا:

- جزاك الله خيرًا يا أخي. ما كان ينبغي أن تكلف نفسك عناء إحضار شيء.

غادر مظفر بعد أن احتضن ألطاف وقبل رأس إينشا. وبعد أن ودعته بحرارة هرعت نحو الكيس لتفتحه وترى ما بداخله. ولأنه كان محكم الإغلاق، قام ألطاف بفضه بعد أن قرص خدها مداعبًا.
أخرج منه كيسًا مملوءًا بفواكه متنوعة، وإلى جواره كيس آخر يحتوي على مصحف صغير وخاتم من النحاس. وما إن رأت حميدة تلك الأشياء حتى تناولتها بحرص، وضمتها إلى صدرها، وغابت في موجة من البكاء.
نزل مظفر من السفح متجهًا إلى الطريق الرئيسي. كان شارد الذهن، يفكر في صحة ما قام به؛ فمنذ أن أرسل إليه صديقه أحمد ذلك الكيس وهو يعيش حيرة بالغة خشية من أن تُفتح الجراح من جديد، لكنه أدرك أنه ليس من حقه أن يحرمهم الاحتفاظ بما هو ملك لهم.

"كانت تلك المرة الأولى التي تمنحني فيها أمي شيئًا خاصًا بوالدي. فبينما كانت ملابسه النظيفة المبخرة محفوظة دائمًا في دولاب لا أجسر على الاقتراب منه خشية أن تعاتبني، ها هي تقدم إليّ ذلك المصحف. أمسكته برفق، وأخذت أقلب صفحاته بحذر شديد خشية أن يتمزق؛

فقد كان قديمًا. أما عمي ألطاف، فقد منحته أمي الخاتم الذي انساب بسلاسة في إصبعه، كانسياب دموعه التي انهالت في تلك اللحظة. بكى الاثنان، أما أنا فلم أبكِ. كنت منشغلة بما بين يدي؛ أبحث بين السطور عن أمل، أو بشارة، أو حياة".

❊ ❊ ❊

٤٣

وقف صادق أمام منزلٍ صغير يبدو من الخارج قديمًا، لكنه ما يزال محتفظًا بجماله. نظر إلى الطريق المرصوف أمام البوابة؛ كان مؤلفًا من قطعٍ من البلاط وُضعت بإتقان. تخيّل والده وهو يدخل المنزل وحيدًا، ثم وهو يخرج منه بصحبة حميدة.

لم يكن العثور على المنزل الواقع في الطرف الآخر من المقاطعة، على اتساعها، أمرًا عسيرًا، لكن العسير حقًا كان الخطوة التالية. سار ببطء وهو يتساءل عمّن يسكن المنزل الآن؛ فمنذ رحيل حميدة لم تتمكن من التواصل مع أهلها مجددًا.

طرق الباب ثلاث طرقات متباعدة، فلم يسمع جوابًا. وحين همّ بالرحيل، سمع وقع خطوات بطيئة يتخللها صوت عصًا تضرب الأرض. ثم فُتح الباب، فبرزت امرأة مسنّة احدودب ظهرها وضعف بصرها. كانت ترتدي نظارة سميكة وتحمل عصًا ترتجف مع ارتجاف يدها. قالت بريبة:

- من أنت؟
- أنا من طرف السيدة حميدة، جئت لأطمئن عليكم.

ارتعشت العجوز وهي تتأوه حين سمعت اسم حميدة، ثم تنحّت ببطء لتفسح المجال لصادق كي يدخل. كان المنزل مرتبًا على نحوٍ ملحوظ. ضمّ ردهة متوسطة تطل على الخارج من خلال نافذة واسعة، وُضع أمامها طقم

من المقاعد المفروشـــة المزركشـــة، وفي أحد الأركان مكتبة تعج بالكتب. وكان هناك رواق يؤدي إلى بقية أرجاء المنزل.

لحق صـادق بالعجوز، وحين وجدها تعاني صـعوبة في الجلوس، سـارع إلى مساعدتها.

شكرته، ثم أخذت تتأمل ملامحه لبعض الوقت قبل أن تسأله بلهفة:

- كيف حال ابنتي حميدة؟ هل هي سعيدة بحياتها هناك؟

تردد صادق في الإجابة عن الشق الثاني من السؤال، ثم أجاب بثقة:

- إنها بخير، ولديها طفلة جميلة تشبهها، اسمها إينشا.

تأوهت العجوز مجددًا، وأمسكت منديلًا تمسح به عينيها اللتين تدمعان بين حين وآخر. تمتمت بصـوت خافت وهي تقاوم عبرتها: "إينشـا، إينشـا"، ثم قالت:

- إذن فقد أنجبت! كم يدعو ذلك إلى البهجة. لكن هل تراني ظلمتها؟ ليتني أستطيع أن أعتذر إليها قبل أن أرحل عن هذه الدنيا.

قال صادق باندهاش:

- ولمَ تعتذرين؟ لا تقلقي يـا جـدتي، فهي لم تتـذمر قط، ولم تـذكر أهلها إلا بكل خير.
- أنت لا تعلم يا ولدي. بعد استشـهاد ابني لم يبقَ لي سوى ابنته التي تيتمت للمرة الثانية، وعمتها التي تضـــاعفت أعباؤها بعد وفاة شـقيقها. ولم يكن يعلم بحالنا إلا الله. ثم جاء صـديقٌ لابني، كان له

بمنزلة الأخ، فور سماعه بالخبر، وترك لنا مبلغًا من المال. وحين علم بوجود حميدة عرض علينا أن يزوجها من ابنه. لم أجبرها على شيء، لكنني متأكدة أنها وافقت لتخفف عنا ما نعانيه.

ابتسم صادق محاولًا التخفيف من العبء الذي تحمله هذه العجوز على كاهلها، وقال:

- أنا واثق أنها لم تشعر بذلك أبدًا. وإن وجدت سبيلًا لأثبت لكِ هذا فسأفعل بلا شك. كوني مطمئنة.

استندت العجوز إلى عصاها محاولة النهوض، ثم اتجهت نحو النافذة. أسرع صادق ليساعدها حتى بلغت مبتغاها، فأخذت تنظر إلى الخارج بهدوء، ثم قالت:

- أحب النظر دائمًا من هذه النافذة. هل ترى أشجار الجنار في الأفق؟ لا بد أن أوراقها بدأت تتحول الآن من الأصفر إلى القرمزي. إنها تذكرني بحميدة كلما رأيتها. لقد علمتها كيف تعرف تقلُّب الفصول من خلال مراقبة أوراق تلك الأشجار.

ضحكت العجوز، بينما قال صادق وهو ينظر إلى الأفق مبتسمًا:

- أنتِ محقة، تكاد تكتسي باللون القرمزي.
- إنها الإرث الكشميري يا بني، هذه الأشجار التي تملأ وديان كشمير كمروج متدرجة بشكل يأخذ بالألباب. كان أجدادنا ينشدون الأشعار متغزلين بجمالها الذي يكتمل مع اقتراب رحيل فصل

الخريف. إنها تعلمنا بأن النهايات دائمًا سعيدة!

أصرت العجوز على مرافقة صادق إلى باب المنزل، رغم إلحاحه عليها أن ترتاح. وعند الباب قالت مودعة:

- كرر زيارتك إن استطعت يا بني. أود أن أسمع المزيد من أخبار ابنتي حميدة. ستطير عمتها فرحًا حين تعلم بمجيئك.
- سأعود مجددًا بإذن الله.

شجعت تلك الزيارة صادقًا على اتخاذ القرار الذي كان قد عقد العزم عليه. كان يكره المياه الراكدة، وقد آن لها أن تتحرك.

***

ابتسم غياث بيك بارتياح بعدما استمع إلى قرار صادق، ثم أخبره بإمكانية خوض اختبار تحديد المستوى. وكانت تلك ميزة تُمنح للاجئين، تتيح لهم تدارك ما فاتهم واستعادة مكانتهم.

قال غياث بيك شارحًا عملية التهريب التي كانت تُنفذ عند الحاجة:

- نختار شهرًا من أشهر الشتاء للقيام بالعملية. ففي المنطقة الجبلية تتحول الأرض إلى بساط أبيض يلفه الضباب، وتنهمر الثلوج بغزارة، فتغدو محاولة تعقب الأثر شبه مستحيلة.

استند صادق إلى الكرسي الذي يجلس عليه، وأخذ يفكر في الخطوة التالية. كان الخريف على الأبواب، وما تزال أمامه فسحة من الوقت ليفكر بجدية في مسألة استعادة وظيفته.

قطع أفكاره غياث بيك وهو يغادر:

- هذه الحقيبة تحتوي على بزتك العسكرية وكل ما ستحتاج إليه في رحلتك. خبئها جيدًا.

وبعد أن غادر غياث بيك غرفة صادق، التقط الأخير الحقيبة وفتحها. كانت البدلة الخضراء أول ما وقعت عليه عيناه. أخرجها برفق وأخذ يتأملها مبتسمًا.

كم هي عجيبة هذه الحياة! من كان يتوقع أن أرتدي هذه البدلة يومًا؟ إن الحياة تدفعنا أحيانًا إلى زوايا حادة كنا نظن أننا لن نبلغها أبدًا، وحين نجد أنفسنا هناك نكتشف أننا قادرون على اجتيازها. فالذي خلق هذه الحياة العجيبة هو ذاته الذي خلق الإنسان؛ ذلك الكائن الذي، رغم ضعفه وعجزه، يملك قدرة مدهشة على ترويضها ومواصلة السير فيها.

❊ ❊ ❊

٤٤

(نيسان) أبريل ٢٠١٤

استيقظت إينشا من نومها باكرًا، وقبل موعد المدرسة بساعتين، طوت فراشها بينما كانت والدتها لا تزال نائمة. خرجت بهدوء كي لا توقظها، ثم شرعت في إعداد عجين خبز الإفطار. تركته جانبًا، وأعدّت الشاي الدافئ، وأوقدت الفرن، وهي تترنم بأهازيج اعتادت ترديدها كلما تذكرت الاحتفال البسيط الذي أُقيم بمناسبة ارتدائها الدوباتا قبل عامين. ابتسمت بسعادة، لشعورها بأنها بلغت مبلغ النساء، وأن عليها أن تتصرف بعقلٍ وحكمة.

استيقظت حميدة على رائحة زكية تنبعث من المطبخ. نهضت متعجبة، لتجد أن ألطافًا قد أيقظته الرائحة ذاتها. دخلا المطبخ فوجدا إينشا قد قلبته رأسًا على عقب! كان الدقيق يحيط بوعائه كدائرة من الأفلاك المتناثرة، وبقايا العجين ملتصقة بقدر الشاي، وهنا وهناك آثار لفوضى صغيرة صنعتها يدان متحمستان.

هرعت حميدة وطلبت من إينشا أن تغادر فورًا، ثم بدأت بتنظيف المكان.

توقفت الصغيرة عند العتبة وقالت:

- أمي، أرجوكِ، من اليوم فصاعدًا سأقوم بإعداد الإفطار. أنا في الثانية عشرة من عمري، وزميلاتي في المدرسة يفعلن ذلك.

ضحك ألطاف، بينما ردت والدتها بحزم وهي تجمع الدقيق المتناثر:

- لكنكِ لم تتعلمي بعدُ طريقة صنع الخبز، ثم إن مهمتك هي العناية بالحديقة الخارجية. وحتى أسمح لكِ بدخول المطبخ، لا تلمسي شيئًا مرة أخرى. هل هذا واضح؟

أطرقت إينشا برأسها بيأس، بينما ربت ألطاف على رأسها قائلًا:

- لا تستعجلي، ستكبرين وتطبخين حتى تملي من الطبخ!
- لا لا، أريد أن أتولى الطبخ من الآن!

قال هازئًا وهو يغادر:

- أمكِ تدللك ولا يعجبكِ ذلك! أجزم أنكِ لن تستمري بالعمل يومين ثم ستملين.

صاحت إينشا:

- أمي، أخبريه أن هذا ليس من شأنه!

عاتبتها والدتها وهي تنظر إليها بحدة:

- لا تقولي مثل هذا الكلام في حق عملكِ. يجب أن تحترميه. وإذا أردتِ أن يحترمكِ الآخرون، فعليكِ أن تثبتي نفسكِ بالفعل لا بالقول يا ابنتي.

دلفت إينشا إلى الداخل، وقرفصت بجوار والدتها التي بدأت بتعديل قوام العجين اللزج، ثم تقسيمه إلى أقراص متساوية. راحت تتأملها بتركيز شديد، وقد عقدت العزم على أن تثبت لعمها وأمها قدرتها على الطبخ.

انتهى الجميع من تناول الإفطار، وكبقية الأيام، انتظر ألطاف- وقد استعدّ

للذهاب إلى جامعته- أن تنتهي إينشا من تجهيز نفسها للمدرسة، ثم انطلقا باتجاه المدينة على متن الدراجة النارية التي أعارهم إياها السيد شريف. أمّا حميدة، فتبقى في البيت تنظّف وترتّب وتشتغل بالصوف.

حين طُرق الباب كانت قد انتهت من حياكة شال بنفسجي، وشرعت في تزيين أطرافه بخيوط بيضاء وسكرية اللون. نظرت إلى الساعة، فإذا بها تشير إلى الثامنة صباحًا. التفتت نحو الباب بقلق؛ فما يزال موعد قدوم فاطمة المعتاد لشرب الشاي وتبادل الحديث والمساعدة في الحياكة مبكرًا.

كانت فاطمة تقف خلف الباب، وقد بدت حالتها النفسية واضحة على ملامحها المرتبكة على غير عادتها. أدخلتها حميدة وقدمت لها كوبًا من العصير البارد. وبعد أن وقع نظر فاطمة على قطعة الصوف الموضوعة جانبًا، قالت:

- يبدو أنكِ على وشك الانتهاء من عمل هذا الشهر.

ابتسمت حميدة وهي تضم يديها في حجرها وتنظر إلى القطعة:

- نعم، إنني مستبشرة كثيرًا هذه المرة. آمل أن يعجب خالتي هذا العمل الجديد.

صمتت فاطمة، وكأنها تبحث عن الكلمات المناسبة. ولما شعرت حميدة بذلك قالت:

- هل هناك ما يشغل بالك؟ تحدثي براحتكِ، ولا تشغلي بالكِ بأي شيء آخر.

تنهدت فاطمة وهي تفرك يديها بتوتر:

- في الواقع، اتصلت بي الخالة شاميما لأنها لم تتمكن من إخبارك مباشرة. لقد وقعت أزمة كبيرة بسبب هطول الثلوج الكثيفة وغير المتوقعة أواخر العام الماضي على هضاب تشانغ تانغ. وقد نفقت أعداد كبيرة من الماعز، فارتفع سعر الكيلوغرام الواحد إلى اثني عشر ألفًا وخمسمئة روبية، واضطرت المؤسسة إلى تسريح عدد من النسوة.

سألت حميدة بصوت مرتجف:

- أتعنين أنني من بينهن؟

أومأت فاطمة برأسها إيجابًا، ثم قالت متكلفة ابتسامة خافتة:

- فكرت أن نشترك جميعًا في خراج الأرض الزراعية لهذا الشهر، ما رأيك؟ ألطاف لا يقصر في العمل، وإينشا تساعدني دائمًا. أنتم تستحقون النصف.

ابتسمت حميدة امتنانًا للطف صديقتها، ثم سكتت، عاجزة عن إيجاد حل. فكرت في رفض العرض، فهي تعلم أن أوضاع أسرة السيد شريف ليست مستقرة ماديًا تمامًا، لكن ماذا عساها أن تفعل وهي لا تجيد غير هذا العمل؟ أمسكت بكفي فاطمة وقالت برجاء:

- لا تخبروا ألطاف بالأمر. إنه منشغل بدراسته وبالحقل أيضًا، ولا أريد أن أقلقه. سأجد حلًا بإذن الله.

ربتت فاطمة على كفيها قائلة:

- لا تقلقي، لن نخبر أحدًا. كوني مطمئنة، فلن يخذلكِ الله أبدًا. ونحن إلى جواركم، ولن نترككم، ولو اقتسمنا معكم الرغيف الواحد.

كان ذلك الخبر صادمًا لحميدة. كانت تظن أن أمورها قد استقرت أخيرًا. وضعت يدها على رأسها محاولة تخفيف الألم الذي أخذ ينبض بقوة. وبعد أن رحلت فاطمة، فكرت مليًا، ثم بحثت في هاتفها عن رقم معين. وما إن أنهت مكالمة قصيرة حتى نهضت تستعد للخروج إلى المدينة.

شبكت الخالة شاميما أصابعها بعد أن استمعت إلى اقتراح حميدة، ثم قالت:

- إذا عملتِ في الصوف العادي فستنخفض أجرتكِ الشهرية من اثني عشر ألف روبية إلى ثلاثة آلاف فقط، ولا أستطيع أن أعدكِ بتوافر العمل دائمًا. هل أنتِ مستعدة لذلك؟
- أنا مستعدة لأي شيء إلا الجلوس بلا عمل. أشكركِ جزيل الشكر على تقديركِ ظروفي.

ابتسمت الخالة بحنان وهي تقول:

- أنتِ من أفضل العاملات، لكن الظروف أقوى منا. لقد اجتمعت الإدارة وناقشنا الأمر، واخترنا الحالات الأكثر حاجة وقدرة على العمل. وإذا توفرت فرص جديدة فسأرشحكِ فورًا.

غادرت حميدة مقر المؤسسة وهي تكاد تترنح من الإرهاق. استقلت أول

حافلة مرت أمامها متجهة إلى الطريق المؤدي إلى القرية. كان الظهر قد أقبل بحرارته، والشارع مزدحمًا بالسيارات في ساعة عودة الناس من أعمالهم. اتكأت على النافذة تراقب الشارع الطويل وهو يزحف ببطء، وتخشى أن يعود ألطاف وإينشا قبل وصولها فيقلقهما غيابها.

"مثل حكاية انقطعت فجأة عند منتصفها، وصلنا إلى البيت برفقة أنفال التي تعود معنا كل يوم. كانت والدتها قد سبقتنا بدقائق وطرقت الباب مرارًا. كانت قطعة الصوف ملقاة بإهمال، تتدلى منها خيوط وإبرة، وأكواب العصير الفارغة موضوعة على الطاولة. وعلى غير العادة، لم تكن رائحة الطعام تملأ المكان. لأول مرة منذ ولدتُ أعود إلى البيت ولا أجد أمي في انتظاري. لم يكن الأمر جللًا، لكنني بكيت بحرقة. لن أنسى ذلك الشعور الذي اقتحم قلبي الصغير؛ مزيجًا من المرارة والرهبة وأحاسيس أخرى متداخلة. خرج عمي على الفور يبحث عنها، لكنه عاد سريعًا وهو يبتسم."

فوجئت حميدة بوجودنا. كانت تلهث من عناء المشوار وحاولت أن تخفي أوراق العقد الذي أبرمته قبل ساعات داخل ردائها، حين اندفعت إينشا نحوها تحتضنها وهي ترتجف. ضمتها حميدة وهي تعاتبها على قلقها الذي لا مبرر له، ثم اعتذرت من الجميع ودخلت غرفتها لتخفي الأوراق وترتب ملابسها، قبل أن تعود مبتسمة ترحب بزائرتها.

بادرتها أم أنفال قائلة:

- أعلم أن الوقت غير مناســب، لكنني لن أتمكن من المجيء هذا المساء.

ثم وضعت بطاقة على الطاولة وأردفت:

- هذه دعوة لحضــور زفاف ابني إقبال. أتمنى أن تحددي يومًا ننزل فيه معًا إلى الســوق لشــراء ملابس الفتيات. لقد تكفل إقبال بذلك، فأخبريني حين تكونين متفرغة، اتفقنا؟

ابتسمت حميدة بسعادة وهي تنظر إلى البطاقة وإلى تاريخ الثالث والعشرين من أبريل البارز بخط عريض، وقالت:

- هذا كرم منكم، سأبلغك بالموعد بإذن الله.

غادرت أم أنفال برفقة ابنتها، ودلفت حميدة إلى المطبخ، وتبعها ألطاف وإينشا بوجهين يحملان ألف سؤال. قالت إن أمرًا طارئًا حدث في المؤسسة، لكنه قد حُلَّ، ولا داعي للقلق.

❊ ❊ ❊

٤٥

كانت أم أنفال تُقلب قطع الدوباتا التقليدية الخاصـة بالفتيات، على أمل أن تجد ألوانًا تناسب الصغيرتين، بينما كانت حميدة تحثها على شراء أرخص الأنواع ثمنًا لإينشا، إلا أنها أصرت على أن تظهر الفتاتان بالمظهر نفسه.

قالت أم أنفال:

- أريد أن ترافق إينشا العروس برفقة أنفال. ابنتي طائشة، وقد تنسى تعليماتي.

ابتسمت حميدة لمعرفتها أن إينشا لا تختلف كثيرًا في الطيش عن صديقتها، لكنها هزت رأسها موافقة، ثم اقترحت:

- ما رأيكِ أن نشتري كل قطعة على حدة؟ قد تكون التكلفة أقل من شراء اللباس والغطاء كطقم واحد.

تركت أم أنفال القطع من يدها وقالت:

- أنتِ محقة. لننتقل إلى المحل التالي، فأنتِ بارعة في التدبير والاقتصاد.

ابتسمت حميدة وهي تتبعها ثم قالت:

- لقد تغيّر الزمن كثيرًا. أتذكرين حين كنا صغيرتين؟ كانت جدتي تحضر حفلات الزفاف بثوبها المرصع بالفصوص، وترتدي في كل يوم ثوبًا مختلفًا. أما اليوم فلم يعد أحد يفعل ذلك بسبب ضيق الحال.

تنهدت أم أنفال بحسرة وقالت:

- لا تـذكريني. على الرغم من اشـتراك أسـرتينا في تكـاليف يوم "الوازوان"، فإنني أخشـى ألا يكفي الطعام. اشـتقت إلى الموائد التي كانت تضـم خمسـين صـنفًا أو أكثر؛ القدور الضـخمة، ولحم الضـأن المتبل، والدجاج، والبرياني. كنت أحرص على أن أبقى جائعة حتى أملأ بطني من تلك الأطعمة.

ضـحكت المرأتان وهما تدلفان إلى محل آخر. أخذ البائع يعرض عليهما ما لديه من بضـائع، فتوقفت أم أنفال أمام قطعة وردية اللون، زُين صـدرها بنقوش خضـراء جميلة، ومعها دوباتا محلاة بشـريط فضـي عند أطرافها، تتدلى منه قطع نحاسية صغيرة على هيئة سلاسل لامعة متتابعة.

صاحت بسعادة وهي تعرضها على حميدة:

- سأشتري هذه مهما بلغ ثمنها.

قرصتها حميدة برفق في ساعدها وهمست:

- لا تجعليه يسـمعكِ، فقد يرفع سـعرها حين يعلم مدى إصـرارك عليها.

همست رفيقتها بدورها:

- أوه، أنتِ محقة!

غادرتا المحل وهما مسـرورتان بما اشـترتاه، ولمحتا من بعيد متجرًا لبيع الحلي. كان مزدحمًا على غير العادة. تساءلت حميدة إن كان موسم الزواج

قد بدأ، إلا أن أم أنفال نفت ذلك، وعزت الازدحام إلى سوء حظهما في اختيار يوم مناسب للتسوق.

في مساحة ضيقة ازدحمت بالمعاليق المتدلية منها الأساور والحلي، وإلى جوارها طاولة زجاجية تعج بأشكال مختلفة من الخواتم، راحت أم أنفال تجول ببصرها بحثًا عن حلي تناسب العروس. وما لبثت أن وجدت طقمًا جميلًا من الذهب الخالص، مرصعًا بفصوص حمراء صغيرة، تتناغم مع زي الليهنغا الأحمر القاني الذي سترتديه العروس.

في تلك الأثناء، التقطت حميدة خاتمًا جميلًا وأخذت تتأمله، لكنها أعادته إلى مكانه فور أن علمت ثمنه.

❊ ❊ ❊

٤٦

توقفت سيارة الأجرة أمام منزل رفيق شاه، وترجّلت منها الخالة عناب برفقة ولديها وعددٍ من نساء العائلة. وما إن وقعت عيناها على زوج شقيقتها الراحلة، الذي كان ينتظر مع الرجال عند المدخل، قالت:

- كانت رحلة طويلة. كم أرثي لحال ابنتي ألفت؛ فها هي تنتقل من البعيد إلى الأبعد. آمل أن يُسرع إقبال في إتمام تجهيزات الشقة التي تحدث عنها. سيكون مكوثهما في المدينة أفضل لكم جميعًا. بالمناسبة، هل انتهيتم من نصب الخيام وإحضار القدور والذبائح؟ أوصيت زوجي أن يحثّكم على الإسراع في ذلك.

قاطعها رفيق شاه وهو يساعد الرجال في نقل الأمتعة:

- نعم، نعم. تفضّلن إلى الداخل وساعدن ابنتي في التجهيز، فهي مرتبكة جدًا.

كانت ألفت في غرفتها، تحدّق في أغراضها المبعثرة. دخلت خالتها فنهضت مسرعة إليها، تكاد تبكي من الحيرة والاضطراب. هدّأتها الخالة، ثم جلستا على البساط ترتبان الأغراض استعدادًا لمراسم الزفاف التي ستُقام بعد يومٍ ونصف.

❊ ❊ ❊

٤٧

أشرقت شمس الثالث والعشرين من أبريل. وفي صباح ذلك اليوم وصل إلى منزل العروس صندوق مزخرف حملته أم أنفال برفقة ابنتها وعددٍ من نساء الأسرة والحي، من بينهن حميدة وإينشا والخالة فاطمة.

كانت الزينة قد عُلّقت، والأضواء الملوّنة قد ثُبّتت، واستُقبل الضيوف بالترحيب. وما أن استلمت الخالة عناب صندوق الهدايا الذي احتوى على الحناء والمجوهرات شرعت النسوة في إعداد الحناء لتزيين يدي العروس وقدميها، كما جرت العادة.

وسط كل ذلك كانت حميدة تجلس في أحد أركان الغرفة غارقة في ذكرياتها العزيزة. قطع شرودها صوت إينشا المتذمّر:

- أمي، لقد حصلت أنفال على نقش حناء جميل في يدها البارحة، أريد نقشًا مثلها أنا أيضًا.

مررت حميدة أصابعها بين خصلات شعر ابنتها وقالت:

- والدتها تجيد نقش الحناء، والوقت متأخر الآن للقيام بذلك.

جلست إينشا منكسرة الخاطر، تواصل إلحاحها، فقالت امرأة كانت تجلس إلى جوارهما:

- أتودين أن أرسم لك نقشًا جميلًا؟

أشرق وجه إينشا فرحًا، بينما التفتت المرأة إلى حميدة وقالت:

- أجيد النقوش البسيطة. سأحضر بعض الحناء من الداخل.

حاولت حميدة، وقد شعرت بالحرج، أن تثنيها عن ذلك، لكنها أصرت، وعادت المرأة بعد دقائق تحمل قمع الحناء. وبعد انتهائها من تزيين كفي إينشا انطلقت الصغيرة تركض بسعادة لتُري صديقتها نقشًا يشبه وردةً متّقدة. قالت المرأة مخاطبة حميدة:

- الفتيات في هذا العمر يحببن تجربة كل شيء، لقد حُرمن من الكثير، ومن الجميل أن تسعدهن هذه الأشياء البسيطة.

شكرتها حميدة، وحاولت أن تعطيها أجرًا، لكنها رفضت، فاكتفت بالامتنان لتلك المرأة الطيبة.

أذّن الظهر، فقام الجميع إلى الصلاة. ثم عُقد النكاح في المسجد القريب، وعاد موكب "البارات" إلى منزل العروس، يتقدمه والدها والعريس ووالده. توزع الرجال في حلقاتٍ صغيرة بانتظار الغداء. وعلى مقربة منهم، عند القدور الكبيرة، كان الطهاة منهمكين في العمل؛ أحدهم يطهو الأرز، وآخر يشرف على اللحم، فيما يتولى آخرون إعداد التوابل والخضار. وبعد الانتهاء، صُفّت الصحون الجاهزة جنبًا إلى جنب، وغُطيت بورق أبيض وأغطية معدنية.

وجبة الغداء هي أهم ما في الاحتفال، لذلك يحضرها عدد كبير من المدعوين. في تلك الأثناء كانت الخالة عناب واقفة خارج المنزل بانتظار الصحن المخصص للعروس؛ إذ ينبغي أن تتناول طعامها سريعًا قبل أن تبدأ

بالتزين وارتداء ثوب الزفاف. أقبلت امرأة تحمل الصحن المطلوب فالتقطته الخالة وأسرعت به إلى الداخل.

في المساء، ارتدت ألفت زي "الهينغا" المطرز الخاص بالأعراس التقليدية، والمزدان بالنقوش البديعة. وبعد أن غسلت الحناء، ساعدتها خالتها على ارتداء الحلي، بينما ارتدت الصغيرتان ملابسهما، وحملت كل منهما سلة مختلفة؛ حملت إينشا سلة الورد التي أرسلها العريس، فيما حملت أنفال سلة استقبال الهدايا والنقود.

جلستا تنتظران بدء المراسم. ولما كان وضع الحلي وارتداء الدوباتا يأخذ وقتًا فقد همست أنفال في أذن صديقتها:

- لا بد أن الرجال قد استقروا في خيمتهم، وقد بدأت الطبول تُقرع. ما رأيك أن نذهب لنرى حال أخي إقبال؟

تلفتت إينشا حولها بقلق وقالت:

- سيشعرون بغيابنا!

نهضت أنفال بسرعة وقالت:

- هيا قبل أن ينتبهوا. ما يزال أمامنا وقت حتى تنتهي العروس من التجهيز.

تسللت الصغيرتان وسط أهازيج النساء إلى خيمة الرجال في الساحة المجاورة للمنزل. كان إقبال يجلس على كرسي مرتفع مرتديًا زي الزواج الأبيض الموشى بالذهب، وعمامة مطرزة، فيما تنهال عليه النقود والحلوى واللوز من المهنئين.

امتلأت الخيمة بالحضور؛ فقد اعتاد أهل المنطقة دعوة الجميع إلى أفراحهم. لكن إينشا شعرت بالضجر؛ لم تتمكن من سماع غناء فرقة "هِجرة" الخاصة بتلك المناسبات. كما وجدت رقصاتهم مضحكة، فاكتفت بما رأته وهمّت بالعودة، لولا إصرار أنفال على البقاء حتى يلمحهما أخوها. في تلك الأثناء، كانت العروس قد استعدت للخروج. تلفتت الخالة عناب بحثًا عن الصغيرتين وراحت تنادي عليهما بقلق. أسرعت أم أنفال إلى حميدة، التي كانت تستعد للتوجه إلى خيمة النساء، وسألتها إن كانت تعرف مكانهما.

شعرت حميدة بحرج بالغ، وراحت تبحث عنهما في أرجاء المكان، بينما همّت الخالة عناب بإيجاد بديلتين لهما.

زمت ألفت شفتيها وقبضت بيديها بقوة على فستانها الأحمر، وتمتمت بحنق:

- كنت أعلم... لا بد أن يحدث شيء كهذا!

ربتت الخالة على ظهرها مطمئنة:

- لا تقلقي. سنعثر عليهما، وإلا استبدلناهما. لا مشكلة.
- لكنهما أخذتا السلتين معهما! سيبدو الموكب غريبًا من دونهما.
- سيكون كل شيء على ما يرام.

استُبدلت الفتاتان بغيرهما، وبدأ الموكب يتحرك وسط قرع الطبول والأهازيج الصاخبة التي ملأت المكان. انتفضت إينشا حين سمعت الأصوات وصرخت:

- لابد أن العروس قد خرجت!

ضحكت أنفال ببساطة وقالت:

- مستحيل، السلتان معنا!

حملت إينشا سلتها على عجل وهتفت:

- نحن في ورطة.

خرجت العروس من غرفتها ولحسن الحظ تمكنت إينشا وأنفال من اللحاق بالمراسم قبل ثوان من بدئها. لمحتهما حميدة حيث كانت تقف بتوتر في الخارج برفقة الخالة فاطمة. اقتربت من إينشا وشدتها من ذراعها بغضب وهي تذكرها بما قالته لها. لكن الخالة فاطمة أوقفتها وطلبت من الصغيرتين اللحاق بالعروس. شقّت الصغيرتان طريقهما بين الزحام حتى بلغتا مكانهما، وسرعان ما انشغل الجميع بتتابع المراسم.

دخل إقبال الغرفة حيث كانت تنتظره ألفت، ولما كانت تعج بنساء العائلتين فقد شعر بحرج شديد. لكن والدته شجعته فتقدم إلى حيث كانت ألفت تجلس على كرسي. رفع إقبال الطرحة عن وجهها، في إشارة رمزية إلى أنها قد أصبحت زوجته، ثم جلس إلى جوارها، وأخرج علبة صغيرة من جيب قميصه بيد مرتجفة، وأمسك يدها برفق من غير أن يرفع عينيه إليها، بينما كان يلعن في سره العيون الفضولية التي تراقبهما. استرقت ألفت النظر إلى وجهه، ورغم ارتباكها الشديد كادت تضحك وهي تراه يتصبب عرقًا.

همست أنفال في أذن إينشا:

- أخي سعيد جدًا، ألا ترين؟ إنه يحبها كثيرًا.

سألت إينشا بفضول:

- وما الحب؟

لكن أنفال لم تسمعها؛ إذ كانت قد اندفعت خلف الجموع التي تبعت العروسين إلى الخارج. وفي تلك اللحظة سمعت إينشا صوت والدتها يناديها من الغرفة المجاورة.

كان مساءً حافلًا بالدموع والقبلات. وبعد انصراف معظم الضيوف، وقف رجال العائلة لتوديع ألفت وهي تغادر برفقة زوجها إقبال في سيارة خاصة متجهة إلى منزله.

"أحب أمي وأبي، وأحب عمي ألطاف، رغم أنه يثير حنقي أحيانًا. أحب خالتي فاطمة التي تبهرني دائمًا بهداياها المميزة. أحب أكوام الثلج التي تغطي السفح في الشتاء، كأنها بساط أبيض هبط من الجنة. أحب الطيور التي تحلق فوق البحيرة، وأحب غزل البنات ولحم الضأن، وحتى رائحة الاحتراق المنبعثة من محرك مركبة العم جاغديش. لكن: ما هذا الشعور الذي يسمونه الحب؟ سألت أمي ونحن في طريق العودة إلى المنزل. صمتت برهة، ثم قالت وهي شاردة: الحب... هو أن نتشارك المصير كيفما أراد لنا القدر، مثل حبنا لهذه الأرض يا إينشا!"

❊ ❊ ❊

٤٨

استيقظ صادق في تلك الليلة فزعًا، كأن كابوسًا داهمه واقتلع النوم من عينيه. تناول قنينة الماء وراح يشرب منها حتى فرغت، ثم نهض متثاقلًا. كان الهواء في الغرفة خانقًا، ففتح النافذة وأخذ يتنفس بعمق، محاولًا استيعاب ما رآه.

خلال عامين كاملين لم تُنفَّذ سوى عملية تهريب واحدة من بين العمليات التي خُطِّط لها. أخذت أحلامه البسيطة تتلاشى شيئًا فشيئًا، وأصبح أكثر تأقلمًا مع واقعه الجديد، لكن ذلك الكابوس الذي ظل يطارده منذ أسابيع كان كفيلًا بإحياء الهواجس والآلام التي بذل جهدًا كبيرًا ليتصالح معها. بدا له أنه نجح في التعايش معها، لكنه لم يستطع الانتصار عليها تمامًا.

تأمل باطن كفه. كانت يده لا تزال ترتجف من أثر الكابوس الذي أخذ يتبدد من ذاكرته كما يذوب الملح في الماء. لم يبقَ منه سوى إحساس غامض بالخطر يحدق بأحبابه هناك. لم يكن ذلك الشعور جديدًا، لكنه كان يؤلمه ويرعبه في كل مرة. ضم كفيه، وشرع يتلو بعض الآيات راجيًا أن تتسلل السكينة إلى ذلك الجو المشحون الذي كان يلفه بحرارته الثقيلة. وما لبث الهدوء أن أخذ ينتشر من حوله حتى استرخت أطرافه وعاد النعاس يداعب جفنيه.

❊ ❊ ❊

٤٩

في الناحية الأخرى، ومن خلال نافذة السيارة التي تتوسط موكب الزفاف، كانت إينشا تراقب شارعًا بددت ظلامه أعمدة إنارة ترسم بأضوائها دوائر صفراء على طول الطريق الطويل المؤدي إلى السفح. قالت الخالة فاطمة مازحة وهي تتأمل تلك الطفلة التي تكبر سريعًا:

- آه يا حميدة، صارت ابنتك جميلة جدًا! ألا ينبغي أن نبحث لها عن زوج مناسب؟

ضحكت حميدة بينما التفتت إينشا وقالت بلهفة:

- هل سأتمكن من ترك المدرسة إذا تزوجت يا خالة؟

جلجلت فاطمة ضاحكة وهي تقول:

- أنتِ لا تفقهين شيئًا في الزواج يا صغيرتي.

امتعضت حميدة وقالت وهي تقرص خد ابنتها:

- لا مفر لكِ من إكمال دراستكِ. أريدكِ أن تكوني ناجحة مثل ألفت، وبقية الأشياء ستأتي في في أوانها.

قالت إينشا ببراءة، بعد أن أفلتت خدها من قبضة والدتها:

- لكنكِ ناجحة أيضًا يا أمي!

تنهدت حميدة وسكتت برهة، كأنها تلملم شتات صورة مبعثرة ثم قالت:

- كنت أشعر بالحسرة حين أرى والدكِ يقرأ المقالات المعقدة،

ويحلل الأخبار بثقة، ويتنقل بين كتبه الضـــخمة. أريدكِ أن تكوني مثله، وألا تســـمحي لأي شـــيء أن يحول بينكِ وبين الحلم الذي سترسمينه لنفسكِ يومًا ما.

عادت إينشا إلى النافذة، تراقب الطريق بصمت.

قالت فاطمة:

- لا تشعري بالحسرة يا عزيزتي. لقد تمكنتِ وحدكِ من حمل التركة الثقيلة التي تركها نذير خلفه. أنتِ ناجحة أيضًا بطريقتكِ الخاصة.

***

وصـــل الموكب إلى المنزل، وترجل العروســـان وســـط الزغاريد، ثم بدأت الجموع تتفرق. أما ألطاف، الذي تبع الموكب على دراجته النارية، فقد استوقفه ضوء لمحَه من بعيد في حقل السيد محمد قادر، رغم تأخر الوقت. ظن في البداية أنه لص، فاستدار وعاد أدراجه.

كان الضـــوء لا يزال في مكانه. وما إن بلغ طرف الحقل حتى أخذ يهتز يمينًا ويســـارًا بحركة منتظمة. ترجل ألطاف، والتقط عصًـــا من الطريق، ثم اندفع نحو مصـــدر الضـــوء. وكلما اقترب بدأت ملامح الجســـد القائم خلف المصباح تتضح.

أســـرع الســـيد محمد قادر نحوه، بينما رفع ألطاف ذراعه يحجب بها عينيه عندما انصب الضوء عليه مباشرة. أطفأ العجوز المصباح، وأمسك بذراعه هامسًا:

- يجب أن تختبئ!

قال ألطاف:

- ما بك؟ جئت لأنني ظننتك لصًا! هل حدث شيء أثناء غيابنا؟

- كف عن الكلام واتبعني.

أفلت ألطاف ذراعه وقال وهو يهم بالعودة:

- أنت لا تعي ما تقول! مهما حدث فلن أترك عائلتي هناك.

- إنهم يبحثون عنك!

توقف ألطاف وسأله:

- من هم؟

في تلك اللحظة شق سكون الليل صوت سيارات الشرطة وهي تقترب مطلقة صفارات الإنذار. كان المشهد باعثًا على الرعب.

أمسك السيد محمد قادر بذراع ألطاف مجددًا، ومضى به إلى مكان وسط الظلام.

في تلك الأثناء خرجت حميدة من الحمام بعد أن توضأت. فتحت باب غرفة ألطاف لتطمئن إلى عودته، لكنها لم تجده على سريره ولا في أي مكان آخر. عادت إلى غرفتها وقلبها منقبض، لتجد شاشة هاتفها تومض معلنة وصول رسالة. كانت هناك مكالمات عدة فائتة من الخالة فاطمة، إضافة إلى رسالة قصيرة تقول:

"قبضوا على إقبال! هل ألطاف بخير؟"

انتفضت حميدة، وخفق قلبها بقوة. راحت تبحث عن اسم ألطاف في الهاتف لتتصل به، وكانت يدها ترتجف وهي تتمتم: "يا للإجرام! كيف يأخذونه بملابس عرسه؟ يا الله... يا الله!

وجدت الرقم أخيرًا. أسرع ألطاف بإخراج هاتفه حين سمع رنينه وحين برز اسم حميدة على الشاشة خطف السيد محمد قادر الهاتف من يده وقام بإغلاقه قائلًا:

- انتظر حتى تنتهي الجلبة.
- لا يمكنني أن أتركها قلقة! أخشى أن يصيبها شيء.

صاح السيد محمد قادر بصوت شق السكون المخيم على المكان:

- إذًا اخرج ودعهم يأخذونك مع بقية الشباب!

حبس ألطاف أنفاسه محاولًا كبت الغيظ الذي تملكه ثم وضع رأسه بين كفيه وهو يفكر في عدد المرات التي وقف بها عاجزًا أمام الظلم. رفع رأسه وقال:

- كيف عرفت أنهم سيأتون للقبض علينا؟
- دفعني الأرق إلى التجول حول منزلي، فسمعت صفارات إنذار تملأ السفح. ثم رأيت أطقمًا تدور على الطريق قبل أن تعود من دون تفتيش، على غير عادتها. وكنت قد سمعت نهارًا أنهم اقتحموا بعض المنازل في المدينة، لكنني لم أربط الأمور ببعضها إلا عندما رأيت موكبكم يمر أمام الحقل.

- لكنهم اعتادوا القيام بمداهماتهم نهارًا، ولم تحدث حملة ليلية من قبل.
- لا بد أنهم علموا بأمر العرس.
- لا بد أنه...

نظر إليه العجوز متسائلًا، لكن ألطاف تدارك الأمر وقال:

- لا عليك. كنت أفكر فقط.

حاولت حميدة إعادة الاتصال مرة ثانية وثالثة، لكن الهاتف كان مغلقاَ في كل مرة. عندها أيقنت أن ألطاف يرافق صديقه إلى المجهول فتمتمت: "أستودعكم الله!" وقبل أن تفيق من قلقها دوى طرق عنيف على الباب. التقطت خمارها مسرعة وهي تنادي:

- من هناك؟

أيقظ الصوت إينشا، فخرجت تراقب من خلف باب غرفتها. فتحت حميدة الباب فاندفع عدد من الجنود إلى الداخل، فهرعت الصغيرة لتختبئ خلف والدتها.

أخذ الجنود يقلبون المنزل رأسًا على عقب، بينما دخل الضابط خلفهم وسأل بصوت أجش:

- أين ألطاف؟ لقد أُبلغنا بأنه متورط في التحريض على المظاهرات غير القانونية. نرجو منكِ التعاون معنا.

أدركت حميدة أن ألطاف ما يزال في مأمن فتنفست بارتياح، ثم ضمت إينشا إليها وقالت وهي تضغط على كلماتها:

- ألن تكفوا عن اتهاماتكم الباطلة؟ لن تتمكنوا من تثبيطنا بهذه التصرفات الهمجية!

بعد قليل خرج الجنود بعدما عاثوا في المنزل خرابًا.

استدار الضابط نحو حميدة، وقد شبك يديه خلف ظهره، وقال:

- أين تخبئينه أيتها الشمطاء؟
- لا أعرف أين هو، وحتى لو كنت أعرف فلن أخبرك؟ الموت أهون عندي.

أدرك الضابط أن الحديث معها بلا جدوى، فأمر جنوده بالانصراف قائلًا:

- هيا بنا. لقد قبضنا على المطلوب الرئيسي، وسنعود مجددًا بلا شك.

غادر الضابط وتبعه الجنود، ودفع أحدهم حميدة فهوت إلى الأرض. أما إينشا فلم يعد الخوف يستولي عليها كما كان في السابق؛ كأنها اعتادت مثل هذه المشاهد.

ساعدت والدتها على النهوض وسألتها:

- هل سيعودون يا أمي؟

قالت حميدة بصوت متعب:

- لو كانوا مصرين على القبض على عمك لأخذونا معهم، لكن ما حدث يبدو مجرد استعراض للقوة. لا تقلقي يا حبيبتي، سيُهزمون بإذن الله.

ثم تحركت ببطء وجلســت على أحد مقاعد الطعام في الردهة. وعادت إلى ذاكرتها تلك الليلة التي عاد فيها نذير مضــطربًا، يجمع أغراض المنزل بعشوائية ويقول: "يجب أن نرحل!"

حاولت إيقافه، لكنه ظل يردد بقلق: "يجب أن أحميكم، يجب أن تكونوا في مكان آمن!" سألته: إلى أين؟! فجلس على المقعد وترك ما بيده وقد استعاد وعيه. أدرك أنهم سيصلون إليهم ولو طافوا كشمير كلها! ثم حكى لها ما دار بينه وبين المهراجا قبل المحاكمة الخاصة بالمسجد، وما تضمنه الحديث من تهديد له ولأسرته.

تنهدت حميدة وقد أدركت أن الصبر والصمود هما الطريق الوحيدان اللذان يلوحان أمامها، وأن كل الحلول الأخرى ليست سوى مسكنات مؤقتة.

❊ ❊ ❊

٥٠

في صباح اليوم التالي، وقف المهراجا أمام نافذة مكتبه العقاري في أحد أحياء سـرينغار، يتأمل الطريق الممتد أسـفل المبنى. وحين رأى السـيد أفتاب يترجل من سـيارته، تنهد بملل، ثم عاد إلى كرسـيه الجلدي الوثير وجعل يمسح بكفه على ذراع المقعد برضًا تام.

بعد لحظات دخل مساعده يخبره بقدوم أفتاب، ثم ولج الأخير إلى المكتب بخطوات متسارعة، وقد ارتسم التوتر والغضب في عينيه. دعاه المهراجا إلى الجلوس، وطلب من مساعده إحضار كوبين من الشاي، لكن أفتاب قاطعه قائلًا:

- ليس هذا وقت الشاي! لماذا أخلفت الاتفاق الذي كان بيننا؟

تظاهر المهراجا بالجهل، وقال وهو يمسح ذراع المقعد:

- أي اتفاق يا صديقي؟

تمالك أفتاب أعصابه، وقال:

- ألم تعدني بألّا تمس أسرة نذير بسوء؟ وأن تكف عن التعرض لهم؟

أطلق المهراجا ضحكة مدوية بصوته الغليظ، ثم انحنى إلى الأمام محدقًا في محدثه:

- هل نسيت سبب كل هذا؟ لا تلبس ثوب الملاك لتخفي شيطانك!

تلعثم أفتاب، ثم قال وهو يحدق في الطاولة أمامه:

- أسرته لا علاقة لها بما حدث، ثم إنني لم أخطئ أصلًا!
- نعم يا عزيزي، لا علاقة لها بموضــوعك، لذلك أطبق فمك ولا تحدثني بهذا الموضوع مجددًا.

ارتبك أفتاب ولاذ بالصمت. وفي أثناء ذلك حضر المساعد ووضع الشاي على الطاولة ثم انصرف. تناول المهراجا كوبه، ونظر إلى وجه أفتاب الشارد وقال:

- اشرب... اشرب وأرح صدرك. من قال إنك مخطئ؟ لقد كان هو السبب حين تدخل في شؤونك.

قال أفتاب وهو يحدق في كوبه دون أن يمد يده إليه:

- بدأت أشك في كل شيء. هل كان يعلم بأمري حقًا؟ هل كان يشك فيّ، أم أنني أتوهم؟

تنهد المهراجا بنفاد صبر وقال:

- كل ذلك أصــبح من الماضــي، وقد نال ما يســتحقه. هيا، اشــرب الشاي وغادر قبل أن أفقد أعصابي منك أنت أيضًا!

ارتشف أفتاب رشفة من كوبه، وبعد أن غادر تمتم المهراجا في نفسه: يبدو أنه أصبح عبئًا!

في الأحد الذي أعقب حملة اعتقال الشباب، نزلت الحشود إلى الشوارع والطرقات في مسيرات تستنكر ذلك التصرف التعسفي بحقهم. وكانت ألفت في مقدمة المتظاهرين، وما تزال آثار الحناء على كفيها. وعلى خلاف ما

توقعه الجميع، لم تذرف في ليلتها الأولى البائسة سوى بضع دمعات، رغم خشيتهم من أن تفقد صوابها. حتى والدها، الذي حدث نفسه بأن ما كان يخشاه قد وقع، شعر بشيء من الطمأنينة حين رأى رباطة جأشها.

وفي الليالي التالية، كانت تهمس لنفسها كلما تخيلت الغرفة الباردة التي يُحتجز فيها زوجها. فكرت في مخاوفها التي تحققت، وفي ما عساهما أن يواجهاه، وتساءلت: هل سيقف الجميع إلى جانبهما؟ أم ستبقى وحيدة تحت وطأة الفقد والانتظار؟ غير أن كل ما كان يجول في خاطرها في النهاية تمحور حول أمنية واحدة: ألّا يكون جزعها عبئًا عليه. أما يكفيه ما يحمله من أعباء الأمة؟

سارت المسيرات في الطريق الرئيسي ثم انعطفت يمينًا، لا يوقفها أحد ولا يردعها شيء، مهما احتشدت في طريقها مجنزرات الاحتلال. فالحق ينتصر دائمًا في مواجهة القوة. ذلك ما آمن به الشعب على مر السنين، وذلك ما أبقاه صامدًا حتى تلك اللحظة.

خرج ألطاف مع رفاقه من طلبة الجامعة للانضمام إلى المسيرة، غير أن مجموعة من الشباب استوقفتهم. صاح أحدهم:

- أرجوكم عودوا إلى قاعات الدراسة، لا نريد أن نزج بالطلبة في الشؤون السياسية!

نظر إليه ألطاف بلا اكتراث، فقال الشاب من جديد:

- أنتم من حركة كشمير الحرة لا تجلبون لنا سوى المشكلات!

توقف ألطاف والتفت إليه قائلًا:

- بين المعتقلين زملاء لنا، وبعضهم لم يشغل نفسه بشيء سوى دراسته، ومع ذلك اعتُقل. هل من الشهامة أن نتركهم ونعود إلى قاعات الدرس؟

تعالت همهمات التأييد بين الطلبة، ولم يجد الشاب ما يرد به. عندها مضى ألطاف ورفاقه في طريقهم، وقد انضم إليهم حشد آخر من المشاركين.

استمرت المسيرات الغاضبة أيامًا عدة، الأمر الذي أثار قلق السلطات الهندية، التي خشيت أن تتحول الاحتجاجات السلمية إلى مواجهة مسلحة. وتحت ضغوط حكومة نيودلهي، بادرت الحكومة المحلية في كشمير إلى فتح باب الحوار مع المتظاهرين. نزل المحافظ بنفسه إلى الشارع والتقى المحتجين، وكان مطلبهم الوحيد الذي لا يقبل المساومة واضحًا وصريحًا: "الإفراج عن جميع المعتقلين الذين اعتُقلوا في الحملة الأخيرة". وللمرة الأولى، رضخت السلطات لمطالب الجماهير، وأُعلن قرار الإفراج عن المعتقلين. وفي مشهد مهيب، عند ظهيرة اليوم الثالث من انطلاق المسيرات، توقفت الحافلة التي تقلهم على جانب الطريق الذي اعتادت المسيرات أن تمر به يوميًا. احتشد الناس في فرح غامر بدا وكأنه عيد. وعلّق بعض أصحاب المحال والمنازل المجاورة الزينة على المداخل والأبواب. بدأ الشباب يترجلون من الحافلة، وكلما نزل أحدهم اندفع إليه أهله وأصدقاؤه يعانقونه ويقبلونه مرحبين بعودته. وأخيرًا نزل إقبال. كان

الشـحوب يكسـو وجهه، لكن ما إن لمح والدته وزوجته مقبلتين نحوه حتى ارتسـمت على شـفتيه ابتسـامة أزالت ذلك الشـحوب. احتضـن والدته بقوة وقبّل رأسـها، ثم ضـم ألفت إلى صـدره. قالت بدلال: كنت قوية وواثقة من عودتك سريعًا.

قالت والدته وهي تبتسم:

- لا ينبغي لك أن تقلق بعد الآن، فزوجتك هي التي قادت المسيرات من أجلك!

ضـحك إقبال دون أن يعلق. كانت نظراته أبلغ من الكلمات؛ نظرات امتزج فيها الامتنان بالمحبة والتقدير.

جال ببصـره في المحيطين به: والده، وعمه، ورفاق دربه؛ رفاق النضـال والجهـاد. غلبتـه العبرة وهو يعـانقهم واحـدًا تلو الآخر، حتى انتهى إلى ألطاف، الذي قُدِّر له هذه المرة أن يكون في استقباله.

❊ ❊ ❊

٥١

وضع برويز الأطباق التي أعدها على مائدة الطعام في غرفة المعيشة الصغيرة المربعة الشكل، ثم ذهب لإيقاظ صادق، الذي كان غارقًا في نوم عميق بعد ليلة شاقة من التخطيط. نهض صادق متثاقلًا، وسحب منشفة كانت معلقة على حافة النافذة. فقال برويز معترضًا:

- لنأكل أولًا!

استجاب صادق لإلحاح زميله، فألقى المنشفة على الفراش وانضم إليه. قال وفي يده قطعة من الخبز:

- لا رغبة لي في الطعام، أشعر بإحباط شديد. منذ فشلنا في عملية النقل الأخيرة لم نعثر على وسيلة أخرى لتجاوز هذه العقبة. ما دام حرس الحدود قد تنبهوا للأمر، فلا بد من تغيير جذري في كل شيء.

هز برويز رأسه وقال:

- لك ذلك، لكن دعني آكل أولًا! فأنا لا أستطيع التفكير والأكل في الوقت نفسه!

ابتسم صادق، ثم تناول جهاز التحكم وفتح التلفاز. كانت نشرة الأخبار قد بدأت لتوها، والمذيع يتنقل بين خبر وآخر. أخذ صادق يتابع شريط الأخبار أسفل الشاشة واستوقفه خبر عاجل. صاح بدهشة:

- اعتقالات ومسيرات وإفراج! متى حدث كل ذلك؟
- أخبرتك بالمستجدات فور وقوعها. يبدو أنك منشغل بعملك أكثر مما ينبغي!

رد صادق، وهو يحشو فمه بقطعة كبيرة من الخبز:

- وكأن الأمر لا يعنيك! ابحث عن التفاصيل وأطلعني عليها.
- أمرك سيدي!

ثم أدى تحية عسكرية مفتعلة، وحين لم يعلق صادق، أطلق برويز صيحته المعتادة: "ايهييي"، ثم واصل تناول طعامه.

❊ ❊ ❊

٥٢

(تشرين الثاني) نوفمبر ٢٠١٤

في مكتب صابر، جلس صادق ينتظر غياث بيك الذي وعده بأخبار سارة. كان صادق قد التحق مجددًا بالسنة الدراسية الأخيرة بعد اجتيازه اختبار المفاضلة بتفوق، وبعد حصوله على الشهادة عاد إلى العمل الذي يحبه. شعر بأنه استعاد جزءًا من حياته السابقة، فامتلأ قلبه امتنانًا لله على هذه الفرصة الجديدة.

دخل غياث بيك برفقة برويز، الشاب الغامض النحيل إلى حد الهزال، ذو الملامح الحادة. ومع ذلك كان مرحًا بطبعه، لا يشغله شيء سوى إنجاز المهمات الموكلة إليه مهما بلغت صعوبتها وتعقيدها. وفي الوقت نفسه كان يتاجر ببعض البضائع الخفيفة. وقد شكّلت هذه الخلطة الغريبة من الصفات مصدر دهشة وإعجاب لصادق، شريكه في السكن.

جلس الأربعة، وافتتح غياث بيك الحديث وهو ينظر من النافذة:

- لم يبقَ سوى شهر واحد ويرحل الخريف. وستعود الثلوج من جديد في كانون الأول، بإذن الله.

التفت باتجاه صادق وأردف:

- هل تريد لقاء أسرتك في ذلك الوقت؟

حاول صادق السيطرة على فرح كاد يطيّر به، قال بلهفة:

- وهل يحتاج ذلك إلى سؤال؟!

ابتسم غياث بيك وقال:

- أعلم ذلك، لكنني فكرت في أنك ربما وضعت خطة أخرى لحياتك قبل أن تكشف أمر عودتك. على أي حال، سنرسل برويز إلى هناك لتقصي الأوضاع وترتيب الأمر، وسيُحدَّد مكان اللقاء في حينه.

التفت إلى برويز وقال:

- أنت تعلم ما أوصيك به دائمًا. وسألتقي بك مجددًا بعد اجتماعي بالرفاق الآخرين لأنقل لك آخر التعليمات.

قال صادق وهو يضم كفيه معًا محاولًا السيطرة على رعشة مفاجئة في يده اليسرى:

- أعجز عن وصف مقدار امتناني لكم. أسأل الله أن يجزيكم من فضله.

ابتسم غياث بيك وقال:

- الشكر لله أولًا، ثم لرفاقك في سرينغار. لقد أوجعوا رؤوسنا طوال العامين الماضيين وهم يطالبوننا بتلبية هذا الطلب، وكأنهم لا يدركون ما ينطوي عليه من مخاطر وما يتطلبه من دراسة وتخطيط.

ضحك صادق، وقد تراءى له في تلك اللحظة طيف رفيق شاه، بعناده المعهود وصلابته التي لا تلين.

❊ ❊ ❊

٥٣

"أمسكي السنارة بيد، وخيط الصوف بالأخرى، ثم واصلي الحياكة حتى يكتمل ارتفاع اثني عشر سطرًا، وبعدها توقفي للتأكد من أن عملك خالٍ من الأخطاء. وإذا أردتِ استخدام لون آخر، فاقطعي الخيط بعد السطر الثاني عشر واستبدليه باللون الذي ترغبين فيه."
كان ذلك شرح المعلمة في حصة الأشغال، وهو شرح لم أنسه قط؛ لأنني يومها لم أفهم منه شيئًا سوى أن أمسك الخيط بيد والسنارة بالأخرى. كلمات قليلة غامضة صاحبتها حركات سريعة وهي تنسج أمامنا العقدة الأولى، ثم غادرت الصف وتركتنا في حالة من الذهول، كفرخ بطٍّ أدخلته أمه الماء لأول مرة ثم تركته يتخبط وحده!

لم أكن أحب أعمال الصوف؛ فهي تحتاج إلى تركيز وصبر، وهما أمران كنت أفتقدهما. أما الوحيدة التي بدت متحمسة لهذا الأمر فكانت أمي، التي كانت تشعر بسعادة غامرة وهي تمنحني دروسًا خاصة في المنزل. نعم، كانت تلك المرة الأولى التي تعلمني فيها شيئًا غير القرآن والدين، أما الرياضيات فلم تعد تحظى بتلك الأهمية.

- لا، هناك خطأ. أعيدي هذه الغرزة من جديد. أحكمي إمساك

الإبرة... نعم، هكذا. جيد.

نظرت إينشا إلى أصابعها التي احمرّت من شدة الضغط عليها. كانت تشعر بالضجر وتتمنى لو تنفك من هذه الدروس العملية بأي ثمن، حتى لو طُلب منها مساعدة ألطاف في الزراعة أو تنظيف حظيرة السيد محمد قادر التي ينفر منها الجميع.

في العاشرة صباحًا سُمع طرق على الباب. دخلت الخالة فاطمة، وتفاجأت بوجود إينشا في المنزل فسألتها:

- لماذا تغيبتِ اليوم؟

أجابت حميدة:

- أصابتها الأنفلونزا. كانت حرارتها مرتفعة، لكنها أصبحت أفضل الآن.

وضعت الخالة فاطمة كفها على جبين إينشا تتحسس حرارتها، وقالت بصوت يفيض عطفًا:

- يا حبيبتي! لو أخبرتموني لأحضرت لها بعض الدواء الساخن. وما هذا الذي في يدك؟ أتشتغلين بالصوف وأنتِ مريضة؟

استلقت إينشا في حضن الخالة وقالت بصوت يتصنع الوهن:

- آآه.

سحبت حميدة كرة الصوف من يد إينشا وقالت وهي تلف الخيط المتبعثر حول يدها:

- يالكِ من ماكرة، ألم تكوني على استعداد لتنظيف حظيرة الأغنام؟
- دعيها تسترح اليوم.
- ولماذا أصبحتُ أنا القاسية هنا؟
- أصبحتُ أنا القاسية هنا!

قالتها حميدة بدهشة ممزوجة بالابتسام. فغمزتها فاطمة كي تدع الأمر يمر. قالت حميدة:

- حسنًا، حسنًا... يمكنكِ أن تستريحي اليوم فقط.

قفزت إينشا إلى حضن والدتها بسعادة، ثم انطلقت في لمح البصر إلى الخارج. ضحكت المرأتان وهما تتابعانها بنظريهما تركض نحو أزهارها في حديقة المنزل.

ومع انتصاف العصر وميل الشمس نحو الشفق، كانت حميدة قد انتهت من الاستعداد للذهاب إلى منزل فاطمة، بناءً على دعوتها. فقد اتفقت نساء القرية على الاجتماع هناك لوداع ألفت قبل انتقالها إلى المدينة واستقرارها هناك برفقة زوجها ووالدها.

حملت حميدة سلة من الحلوى صنعتها بنفسها، ثم نادت على إينشا. تأخرت ابنتها في الرد، فوضعت السلة على الطاولة واتجهت إلى غرفتها، لتجدها تحاول فك عقدة كبيرة تشابكت في شعرها أثناء محاولتها تسريحه. جلست حميدة على ركبتيها لتصلح الأمر بعد أن وبختها قليلًا، وهي تراقب الساعة بين الحين والآخر وتحدث نفسها: "تأخر الوقت، وأنا متأخرة

أصلًا، ولا ينقصني إلا أنتِ!"

بدت إينشا حزينة، وفي طريقهما إلى منزل فاطمة التفتت إليها حميدة قائلة:

- ما بالك شاحبة الوجه؟

تنهدت إينشا بحسرة وقالت:

- كنت أريد أن أبدو جميلة.
- أنتِ جميلة بالفعل. كان ينبغي أن أُسـرِّح شـعرك بنفسـي، لكنني انشغلت بتحضير الحلوى. أنا آسفة.
- لا، ليس خطأكِ يا أمي، بل أنا الآسفة.

قالتها إينشا وقد عادت البهجة إلى وجهها.

كانت ألفت تستأثر بانتباه الحاضرات وحديثهن حين دخلت حميدة وإينشا. توقفت عن الكلام ورحبت بهما النسـوة بحرارة. تقدمت حميدة نحو ألفت، وتعانقتا وتبادلتا قبلات الترحيب، ثم قدمت لها الهدية التي أعدتها، وكانت تضم بعض قطع الحلوى وثوبًا مطرزًا جميلًا.

أشرقت عينا ألفت امتنانًا وسعادة عندما رأت كيس الهدية، وهمست في أذن حميدة:

- أريد أن أتحدث معكِ لاحقًا.

أفسـحت النسـاء مكانًا لحميدة في أحد أركان الغرفة، وجلسـت إلى جوار إينشـا التي قضـت وقتها تتأمل ملابس النسـاء وتسـريحات شـعورهن، بينما كانت حميدة تضحك حين يضحكن، وتهز رأسها موافقة كلما وجهت إليها

إحداهن حديثًا.

بعد مغادرة النساء اقتربت ألفت من حميدة وقالت لها:

- قبل يومين جاء رجل لزيارة إقبال. كنت أحمل أكواب الشـاي لهما عندما سمعته يتحدث عنكم.
- ماذا قال عنا؟

رفعت ألفت بصرها إلى السماء محاولة استرجاع ما سمعته، ثم قالت:

- سـمعته يذكر اسـم ألطاف. سـألت إقبال بعد ذلك، لكنه أخبرني بأنه سيتحدث إليكم بنفسه في الأمر، ولم يفصح لي عن شيء.

غادرت حميدة وهي غارقة في التفكير، تتساءل عما ينتظرها من متاعب.

❊ ❊ ❊

٥٤

نظر برويز إلى لافتة المحل الذي قرر أن يبدأ منه جولته التجارية. التقط نفسًا عميقًا ثم مضى إلى الداخل. رمقه السيد أفتاب بريبة وهو يرى غريبًا يدخل حاملًا سلة كبيرة. ألقى برويز التحية، فردها أفتاب بأحسن منها وعلى وجهه ابتسامة واسعة. أجال برويز بصره في أرجاء المحل، ثم أخرج بعض القطع التي كان يخبئها في كيسه وعرضها عليه. أخرج أفتاب عدسة مكبرة من درج صغير إلى جانب الطاولة، وبينما هو يتفحص أولى القطع قال برويز:

- إنها نقوش باكستانية أصيلة، وعدد هذه القطع محدود.

طلب السيد أفتاب من برويز أن يجلس على المقعد الموضوع بجوار الباب ثم أخذ القطعة إلى الجانب الآخر معطيًا له ظهره. جلس برويز لحظة، ثم نهض بخفة واقترب منه بهدوء، وراح يراقبه وهو يدقق النظر في النقوش.

- ايهييي!

انتفض أفتاب من الصوت فأردف برويز:

- هل تريد أن تصورها أيضًا؟ ثم مال نحوه هامسًا: "هل بضائعك مقلدة؟"

صاح أفتاب مستنكرًا:

– كيف تجرؤ؟! إنني أتفحصها للتأكد من أصالتها؛ ربما بضاعتك هي المقلدة!

انفجر برويز ضاحكًا، وربت على كتفه قائلًا:

- لا تقلق، إنها مجرد دعابة. انظر هنا، في الأسفل... هذه علامة الورشة التي تُصنع فيها القطع يدويًا يا سيد أفتاب.

رفع أفتاب رأسه إليه بدهشة وقال:

- أتعرفني؟

- محلك مشهور يا عزيزي. هيا، أخبرني، هل ستأخذها؟

وضع أفتاب القطعة جانبًا، ثم أخرج مظروفًا من المال من الدرج، وأخذ يعد ما فيه كما لو أنه ينتزع النقود انتزاعًا من نفسه.

التفت برويز إلى الوراء ليلقي نظرة أخيرة على المحل بعد أن باع جميع القطع التي حملها في ذلك اليوم. كان السيد أفتاب يراقبه من الداخل، وقد تركت عيناه في قلبه شعورًا غامضًا بالقلق؛ كأن النظرات التي لاحقته تخفي وراءها أكثر مما تُظهر.

❊ ❊ ❊

٥٥

"كنت قد اعتدت الأمر، ولم يعد يدهشني حين أسمع أحدهم يقول لي بأنه يعرف والدي. في مرحلة ما، خُيل إليَّ أنه لم يكن في كشمير سواه؛ فالجميع يعرفه! في البداية كنت أتحمس لسماع المزيد، فأسأل: أين التقيتما؟ ومتى؟ وما الذي كنتما تعملان عليه معًا؟ لكن معظم الإجابات لم تكن تشفي فضولي ولا تروي شغفي. أحدهم صلى إلى جواره ذات يوم، وآخر كان صاحب صيدلية اعتاد والدي الشراء منها، مع يقيني بأنه لم يحصل منه يومًا على خصم واحد! بعدها توقفت عن السؤال.

حين يرحل الإنسان عن الدنيا، تتطلع إليه النفوس بحنين ومحبة، ويكتشف الجميع كم كان جميلًا وجوده بينهم. كانت أمي تفرح وتُجبر خاطرها حين تلمس مشاعر الناس تجاه والدي، لكنها في ذلك اليوم لم تكن كذلك. وأمام لا مبالاتي، وامتعاض والدتي، وتوجسها، بدا وجه ذلك الرجل شاحبًا وبائسًا."

- حقًا؟!

قال ألطاف ذلك ثم سكت.

أرخى برويز ربطة عنقه وهو يتجرع صمت المكان، ذلك الصمت الذي لم يتوقعه بعد تصريحه بأنه يعرف نذير. كان يومها يرتدي بذلة رسمية كأنه

ذاهب للتقدم إلى وظيفة، ويستشعر ثقل المهمة التي جاء من أجلها. فاجأه أكثر رد حميدة:

- وماذا لو كنت تعرفه؟ ماذا تريد بالضبط؟

تناول الكوب الموضوع أمامه. لم يعد يتذكر إن كان شايًا أم عصيرًا من شدة ارتباكه.

أدرك حينها صعوبة المهمة، ولم تشفع له مرافقة إقبال الذي آثر التزام الصمت. قال برويز مترددًا:

- أردت فقط أن أطمئن عليكم.
- جزاك الله خيرًا.

قالتها حميدة بنبرة أوحت بأنها غير مستعدة لسماع المزيد، ثم نهضت وهي تمسك بذراع إينشا، وانصرفتا إلى الداخل.

فكر برويز قليلًا، ثم وجد في ما حدث راحة غير متوقعة. التفت إلى ألطاف وقال:

- اسمه صادق الآن!
- من هو؟

طلب برويز منه أن يتحدثا خارج المنزل. ابتعدا قليلًا فأخرج هاتفه. كان يعلم أنهم لن يصدقوه بسهولة. مد الهاتف إلى ألطاف فحدق هذا في الشاشة، ثم قربها أكثر من وجهه، محاولًا استيعاب الملامح التي تظهر فيها.

"صادق، انظر إلى الكاميرا. ماذا تريد أن تقول بمناسبة حصولك على الشهادة بعد كل هذا العناء؟"

ضحك صادق وقال: "الحمدلله، اليوم الموافق (٢٢-١١-٢٠١٣) استلمت شهادة البكالوريوس للمرة الثانية."

- ايهييي... هل ستلقي خطابًا الآن؟

(ضحِك)

انتهى الفيديو ولا يزال ألطاف يحدق في شاشة الهاتف المحمول. ثم قال بصوت مرتجف وهو يجلس على العتبة محاولًا التماسك:

- ما هذا بحق الله؟!

جلس إقبال إلى جوار ألطاف، وضع ذراعه على ظهره وقال:

- تجبرنا الحياة أحيانًا على اتخاذ قرارات صعبة. وربما كان هذا القرار هو الأصعب على الإطلاق؛ أن يتخلى نذير عن حياته السابقة ويختفي عن الأنظار فترة من الزمن.

وأضاف برويز:

- لم يضحك من قلبه يومًا وهو بعيد عنكم. لا تتخيل مقدار سعادته حين أصبح الوقت مناسبًا لكشف الحقيقة.

كان ألطاف يطبق كفه على فمه، فيما كانت الدموع تتدافع إلى عينيه. بارك له إقبال ورفيقه، لكن ألطاف احتاج وقتًا طويلًا ليستوعب ما سمعه. وبعد أن شرحا له كل شيء، أخبراه بالموعد المحدد للقاء في ديسمبر. بدا له الوقت المتبقي طويلًا على نحو لا يُحتمل، لكنه لم يكن يملك سوى الصبر.

وقبل أن يغادر إقبال، أمسك ألطاف بكم قميصه وقال:

- هـل كنـت تعرف طوال هـذا الوقـت؟ أأنـا طفـل حتى تخفي الأمر عني؟

ربت إقبال على كتفه وقال برجاء:

- سـامحنا... سـامحنا. الأمر بالغ الخطورة، ولم يكن يعلم به سـوى عدد قليل من الأشـخاص المسـؤولين عن تهريبه. أنا خجل منك، لكن لم يكن بيدي حيلة.

هز ألطاف رأسـه ببطء. كان لا يزال يتأرجح بين التصـديق والدهشـة، لكنه شعر أن الوقت ليس مناسبًا للعتاب.

❊ ❊ ❊

٥٦

على مائدة العشـاء، كانت حميدة شـاردة الذهن، بينما كانت إينشـا تتحدث عن مختلف الأمور التي تهتم بها؛ الأسـاور الجديدة التي انتشـرت بين الفتيات، وغطاء الرأس الذي وعدت الخالة فاطمة بشـرائه لها، ودرس الحياكة بالصوف الذي تكرهه.

قاطعها ألطاف فجأة:

- ماذا لو كان نذير على قيد الحياة!

توقفت حميدة عن تناول الطعام، ثم نظرت إليه مليًا وقالت:

- أتريد أن تنكأ الجراح الآن؟ ألم نتفق على تجاوز الأمر؟

- إنني جاد.

قالت إينشا محاولة صرف الأنظار عن حوارهما المنذر بالشجار:

- لو كان أبي على قيد الحياة لصنعتُ له شالًا من الصوف.

قال ألطاف:

- إذًا، لِمَ لا تصنعين واحدًا؟

صاحت حميدة:

- توقف عن هذا يا ألطاف.

ثم وقفت وقالت له: هلا تبعتني إلى المطبخ!

تبعتهما إينشا بنظرة حائرة، بينما قالت حميدة بصوت خافت ما إن ابتعدا:

- ماذا دهاك؟ هل الأمر بهذه البساطة حتى تتحدث به أمام الطفلة؟
- إنا أحمق كما تعرفين. لا أجيد التعبير... ليتني كنت كنذير!
- كُف عن هذا وعد إلى الطعام.

تنهد ألطاف باستسلام. عجز عن البوح بشيء حين رأى تعبير وجه حميدة؛ كان هناك خوف... خوف حتى من الحلم.

ومع اقتراب موعد اللقاء، قرر ألطاف أن وجود عدد أكبر من الأشخاص قد يجعل تقبّل حميدة للخبر أيسر.

لم تكن حميدة ساذجة إلى الحد الذي يمنعها من الشعور بأن هناك أمرًا غير طبيعي؛ فقد تكرر ذكر نذير مؤخرًا على نحو لافت. أدركت أن شيئًا ما يُخفى عنها، لكنها لم تعرف حقيقته. ربما كانت هناك وصية لم تُنفذ بعد، أو معلومات جديدة تتعلق بوفاته. غير أنها لم تسمح لخيالها بأن يذهب بعيدًا، أو أن يتشبث باحتمال، ولو ضئيل، بأن يكون على قيد الحياة. وكأن عقلها الباطن قد استسلم أخيرًا بعد سنوات من الدلائل التي تؤكد وفاته. وربما كانت تخشى أن يسيطر عليها أمل كاذب، فتعود إلى حالتها السابقة؛ شبه ميتة. كما أن إينشا لا تستحق مزيدًا من المعاناة. طفولتها تعيسة بما فيه الكفاية. ولهذا كان عليها أن تتمالك نفسها من أجل طفلتها العزيزة.

حضرت الخالة فاطمة، وأم أنفال، وابنتها أنفال، وحتى ألفت التي جاءت من مكان إقامتها البعيد.

استغربت إينشا هذه الزيارة المفاجئة، لكنها انصرفت إلى المطبخ عندما

طلبت منها والدتها إعداد الضيافة. وهناك فوجئت بأن والدتها لم تحضّر الشاي كما اعتادت أن تفعل عصر كل يوم. فأشعلت الموقد، ووضعت إبريق الماء، وبدأت تحضر الشاي وهي تتحرق شوقًا لمعرفة ما يدور في غرفة المعيشة. لم تكن المسافة بعيدة بما يكفي لحجب الأصوات، ومع ذلك لم تستطع أن تسمع شيئًا، وكأنهن يتحدثن همسًا.

حملت الصينية ودخلت الغرفة، لتفاجأ بمشهد ذكرها بما حدث قبل أربع سنوات. سارعت الخالة فاطمة إلى حمل صينية الشاي ووضعها على الطاولة، بينما كانت إينشا، المرتجفة، على وشك البكاء حين رأت والدتها ترتعش في نوبة بكاء عارمة.

"يولد الإنسان باكيًا، ويبكي حين يفرح، وحين يحزن، ولن تعرف سبب بكائه ما لم يخبرك بنفسه، أو تكتشفه من خلال الدلائل. تخيلت البكاء دون دموع! كم سيكون ذلك قاسيًا! الدموع وسيلتنا ليعرف الآخرون ما نشعر به، خُلقت الدموع كي تجعل الألم مرئيًا. كلما رأيت أمي تبكي تمنيت أن تنفجر عيناي بالدموع، مقابل ألا تبكي مرة أخرى. كنت أشعر بها تكفكف دموعها وتخفي جراحها كلما شعرت بوجودي قربها. وكان ذلك يمزقني أكثر."

لم ينم الثلاثة في تلك الليلة. جلسوا معًا في غرفة المعيشة، لكنهم لم يتحدثوا كثيرًا. كان كل واحد منهم غارقًا في خياله، وكلما التقت أعينهم انفجروا

ضـاحكين، وكأن روحًا خفية تعبث بهم. وفجأة قفزت إينشـا وركضـت إلى غرفتها، ثم عادت وهي تحمل أدوات الحياكة الخاصة بها، طالبة من والدتها أن تعلمها أكثر حتى تنهي ما بدأت به. قالت حميدة بابتسامة عريضة:

- هل أصنعه لأجلكِ؟

صاحت إينشا:

- لا، سأصنعه بنفسي! علّميني البداية فقط، لو سمحتِ.

ضحك ألطاف وقال مداعبًا:

- الآن لديكِ منافس قوي أيتها الملكة!

تساءلت إينشا ساعتها:

- لماذا لا نغادر لنعيش مع أبي؟ ألن يكون ذلك أفضل؟

قالت حميدة ذلك وهي تخرج الأدوات من الكيس:

- بالطبع سنذهب. لكن الأمر سيستغرق بعض الوقت.

قال ألطاف وهو يضم ذراعيه خلف رأسه كوسادة:

- هل تظنين أنهم سـيخاطرون بكل هذا من أجل لقاء فقط؟ لديّ إحساس بأن...

قاطعته حميدة:

- احتفظ بإحساسك لنفسك!

رد ألطاف ضاحكًا:

- لماذا غضبتِ؟ ألا تخشين أن يحدث مكروه؟

- حتى لو ألقوا علينا قنبلة نووية، أو أي سلاح من أسلحة الدمار الشامل. سأذهب رغمًا عن الجميع.

صاحت إينشا وهي تدفع عمها المستلقي بجوارها:

- ما بالك تفسد الأجواء يا عمي؟ دائمًا تحب تعقيد الأمور!

أمسكها ألطاف من خصرها النحيل محاولًا قلبها إلى الجهة الأخرى وهي تصرخ ليتركها. قالت حميدة وهي تنظر إليه:

- إنه سعيد بطريقته الخاصة يا ابنتي.

❊ ❊ ❊

٥٧

(كانون الثاني) ديسمبر ٢٠١٤

تلقى برويز الإشـعار الأخير، وقد حُدد زمان اللقاء ومكانه بصـورة نهائية: الثالث عشـر من ديسـمبر، عند غسـق جولمارج. وُضـعت الخطة، وسُـلِّم الجزء الخاص به من المهمة، ثم بدأت الأسـرة الصـغيرة تسـتعد لليوم الموعود في هدوء.

طلبت حميدة من إينشا أن تنطلق صباح الثاني عشر من ذلك الشهر إلى منزل السيد جاغديش. وأوصته، عبر ورقة صغيرة، بإحضار بعض الأغراض من المدينة كانت قد نسيت شراءها. قرأ جاغديش الورقة، ثم قال مبتسمًا:

- ياه! هل أنتم ذاهبون في رحلة؟ هذا رائع!
- نعم. أمي منشغلة ولن تستطيع الذهاب إلى المدينة اليوم.

ضحك جاغديش وضرب صدره بكفه قائلًا:

- لا تقلقي يا صغيرة، سأحضر كل شيء قبل المساء.

***

في عتمة السَّـحر، ارتدت إينشـا ملابسـها الثقيلة: ثوبًا بنجابيًا غليظًا، وغطاء رأس أصفر باهتًا، وشالًا صوفيًا ثقيلًا لفّته حول جسدها، إضافة إلى جوارب سميكة. وارتدت أمها مثل ذلك تقريبًا. أما ألطاف فاختار سروال جينز أزرق وقميصًا أخفاه تحت سترة جلدية.

كان البرد قارسًا، ولا بد من الاحتياط، خاصة لمن ينوي الصعود إلى مرتفع جولمارج الثلجي.

ومع بزوغ الفجر، وبعد الصلاة، خرج الثلاثة إلى الطريق الرئيسي حيث كان برويز ينتظرهم في سيارة استأجرها خصيصًا لهذه الرحلة. قطع الطريق الطويل في زمن أقل من المعتاد، إذ كانت الطرق شبه خالية من السيارات. ومع ذلك، لم تغب عن ناظريه التحركات العسكرية المنتشرة في كل مكان؛ جنود ببدلاتهم العسكرية وأسلحتهم، مستعدون دائمًا لإظهار حضورهم وفرض سطوتهم على مدار الساعة.

التفت برويز إلى رفاقه وسألهم إن كانوا قد تناولوا شيئًا قبل الانطلاق. أومأ ألطاف بالإيجاب، لكنه اعتذر منهم طالبًا التوقف قليلًا، فهو يفقد تركيزه إن لم يبدأ يومه بإفطار بسيط وكوب من شاي الكرك الدافئ. توقفوا عند أحد المقاهي لشراء الطعام. ثم تولى ألطاف قيادة السيارة بينما انشغل برويز بتناول رغيفه.

وأخيرًا وصلوا إلى منطقة تونمارق، التي اكتست جوانب طرقها بالثلوج كلوحة ناصعة البياض، رغم أن الشمس كانت لا تزال تتوسط السماء. بدأوا صعود الطريق الجبلي المؤدي إلى جولمارج. كانت حميدة تراقب المنعطفات بصمت، محاولةً التغلب على القلق الذي اجتاحها منذ أن غادرت السيارة سرينغار متجهة نحو الجنوب الغربي. التفتت إلى إينشا، التي استسلمت للنوم بعد طول جلوسها على المقعد، فنزعت شالها الصوفي

ودثرت به ابنتها.

استيقظت إينشا من النوم، وكانت أشعة الشمس قد اختفت خلف الضباب الكثيف رغم أن الغروب لم يحن بعد. أخرجت رأسها من نافذة السيارة، فصاحت والدتها:

- أغلقي النافذة! الثلج يتساقط.

قال برويز:

- توقعت ذلك! الضباب يملأ الجو منذ الظهيرة.

تمطت إينشا وسألت بصوت ناعس:

- هل سنصل ليلًا؟

- كان من المفترض أن نصل أبكر من ذلك، لكن الطريق أصبح زلقًا، وحالة الطقس لا تسمح بزيادة السرعة.

ثم عاد السكون إلى السيارة، لا يقطعه سوى همهمات الإعجاب كلما برزت أمامهم مروج جولمارج البيضاء، كبيض نعام.

توقف برويز أمام فندق كان قد حجز فيه غرفة في اليوم السابق. أخرج هاتفه واتصل برقم ما، ثم انتظر قليلًا قبل أن يقول:

- السلام عليكم. نعم لقد بعت البضاعة كاملة. الليلة؟ حسنًا هذا مناسب.

أغلق الهاتف، ثم نزع الشريحة وطواها بين إصبعيه حتى انكسرت، قبل أن يضع أخرى مكانها ويعيد ضبط الهاتف.

قال ألطاف مازحًا:

- هذا ممتع!

رد برويز ضاحكًا:

- ايهييي! لو كان صادق هنا لرأيت المتعة الحقيقية بلكمة على رأسك.

كان الفندق بديعًا من الخارج؛ أشبه بقصر خارج من صفحات حكاية قديمة. كانت نوافذه البارزة تطل على مروج شاسعة، خضراء في الربيع وبيضاء في الشتاء. وعلى امتداد المسارات المخصصة للمشاة، أُزيلت أكوام الثلوج لتسهيل الحركة. وعلى مسافة غير بعيدة، لمحت إينشا سورًا خشبيًا طويلًا، ترتع خلفه مجموعة من الخيول التي كانت تصهل في فضاء المكان الهادئ. نزلوا في غرفة تضم حمامًا خاصًا وسريرًا مزدوجًا، إضافة إلى مقعدين خشبيين وطاولة موضوعة قرب النافذة. وبعد أن تناولوا العشاء، استأذن برويز للخروج إلى مكان ما.

جلس الثلاثة يتحدثون بحماسة عن الأشياء التي سيفعلونها عند اللقاء. أبدى ألطاف رغبته في ركوب الجندولا "التلفريك"، مستعيدًا ذكريات رحلاته القديمة مع أصدقائه، حين كانت العربات تتوقف بهم بين السماء والأرض، تاركةً إياهم في دهشة أمام عظمة المشهد. وتمنت إينشا أن تتزلج مع والدها على إحدى عربات الثلج، أما حميدة فتمنت أن تقضي أطول وقت ممكن برفقته.

مر الليل طويلًا دون أن يعود برويز بأي خبر. تسلل القلق إلى نفوسهم، فلم يذق أحد منهم طعم النوم. وأشرقت الشمس وهم لا يزالون في حيرة. ارتدى ألطاف سترته وهمّ بالخروج لاستطلاع الأمر، لكن حميدة أوقفته، رافضة أن يتركها وابنتها وحدهما. وفجأة طُرق الباب. فتح ألطاف، فإذا ببرويز يقف خلفه مبتسمًا، ويحمل كيسًا كبيرًا.

أخبرهم أن مكان اللقاء قد تغير، وأن عليهم ركوب الخيل للوصول إلى الموقع الجديد. طلب منهم أن يرتدوا الملابس التي أحضرها. كانت ملابس عصرية يرتديها السياح وسكان المدن غالبًا. شعرت إينشا بحماس غريب وهي ترتدي بنطال الجينز وسترة ناعمة، ثم وضعت قبعة صوفية كبيرة أخفت تحتها شعرها، وأكملت مظهرها بقفازات وردية جميلة. وقفت أمام المرآة تتأمل نفسها بفضول لمنظرها المختلف. أما حميدة فرفضت ارتداء اللباس الذي لم تألفه، واكتفت بقبعة صوفية ضخمة بدلًا من الحجاب، ولفت عنقها بشال طويل.

امتطوا الخيول وساروا في طريق لا تسلكه السيارات، تحيط به أكوام الثلوج من جهة، وأشجار الصنوبر الشاهقة من الجهة الأخرى. كانت الأشجار متزاحمة، تحمل فوق أغصانها كتلًا من الثلج بدت كأنها أطباق بيضاء معلقة في الهواء. مضت ساعتان من السير المتواصل.

ومن حين إلى آخر كانت إينشا تنظر إلى الكيس المستقر في حجرها.

وفجأة صاح برويز:

- ها قد وصلنا إلى الينابيع!

تنهد ألطاف بارتياح وقال:

- هل وصلنا؟

- ليس بعد... سنسير قليلًا فقط.

واصلوا رحلتهم ساعة أخرى، تلهيهم المناظر الخلابة؛ قمم الجبال البعيدة، وعربات التلفريك المعلقة في الهواء كأنها ألعاب صغيرة تتأرجح بين السماء والأرض. وأخيرًا وصلوا إلى منطقة بدت مأهولة بالسكان. وأمام منزل خشبي توقفوا وطرق برويز الباب لتطل امرأة أربعينية تبادلت معه أطراف الحديث ثم دعتهم جميعًا للدخول وتناول الغداء.

حل المساء، وقد أنهكهم السفر وطول الانتظار. كان ألطاف مستلقيًا على الأرض يتصفح هاتفه بملل، وإينشا تضع رأسها في حجر والدتها، وهذه تمسد شعرها برفق حين طُرق الباب وفُتح دون سؤال عمن يقف خلفه!

❊ ❊ ❊

٥٨

قبل أسبوعين

- ماذا ستصنع حين تقابلهم؟

ابتسم غياث بيك وهو يوجّه السؤال إلى صادق في آخر لقاء جمعهما، بينما كانا ينتظران وصول بقية الأعضاء قبل تنفيذ العملية. ضحك صادق وهو يشبك أصابع يديه، ثم أجاب:

- ربما سأترك الأمور تسير وفق طبيعتها. ما أنا متأكد منه أنني لن أعود كما كنت. سأغمرهم باهتمامي ومحبتي، وسأتحدث إليهم لأعوضهم عن سنين مضت. كنت دائمًا جادًا قليل الكلام، وهذا يؤلمني الآن.

وصل الجميع، فبدأ غياث بيك يشرح الخطة بدقة، موزعًا الأدوار عليهم:

- سبق أن اجتمعنا وشرحنا الخطوط العريضة، لكننا سنراجع اليوم الأدوار مرة أخرى. قبل أن نتحرك سنصلي ركعتين طلبًا للعون من الله تعالى. ستتحرك الفرقة الأولى بقيادة عزيز، وهي المسؤولة عن نقل صادق إلى مكان اللقاء، وستتواصلون مباشرة مع برويز وفق ما تم الاتفاق عليه مسبقًا. وبعد اجتيازكم الحدود ستتحرك الفرقة الثانية بقيادتي، لنقل السلاح والمؤونة إلى المجاهدين المرابطين في الوديان. لن أخوض في تفاصيل مهمتي؛ لأن طرقنا ستفترق بعد

عبور الحدود بأمان. أما الفرقة الثالثة فستتولى العودة ومراقبة الوضع. وسيكون عينكم هناك أحد إخواننا في الجانب الآخر. لا يعلم أحد بمشاركته في العملية، فضعوا ذلك في حسبانكم. إنه رجل ذو خبرة واسعة بالممرات الجبلية، فإذا طرأ أي خلل على طريقنا المعتاد فسيكون طريق العودة تحت قيادته. هل هذا واضح؟

هتف الجميع بصوت واحد: واضح.

قال غياث بيك:

- إذن فليُعِدّ كل واحد سلاحه، بمن فيهم أنت يا صادق.

سأله صادق:

- هل يمكنني أن أتركه بعيدًا عندما ألتقي أسرتي؟

- نعم، هذا أفضل.

انفضّ الجمع، وعاد صادق إلى شقته وحيدًا. مكث فيها قليلًا، ثم غادر متجهًا إلى منزل أسرة حميدة.

جلس على أحد الكراسي في غرفة المعيشة بانتظار قدوم الجدة، بعد أن أدخلته ابنتها إلى الداخل. كانت سعادتها بزيارته لا توصف. اعتذر عن انقطاعه عن زيارتهم طوال الفترة الماضية، ثم قال بسعادة:

- هناك صديق سيسافر إلى سرينغار، فكرت أن أخبركم بذلك.

قالت العجوز بلهفة:

- كم هذا رائع! أحسنت إذ أخبرتني. انتظر قليلًا. قومي يا ابنتي

وأحضري صندوق البيبرماشي الخاص بي من الخزانة.

عادت الابنة بصندوق صغير مزخرف يُستخدم للزينة، وتحتفظ النساء فيه بحليّهن. تناولته العجوز بحرص، وفتحته لتتأكد من محتوياته، ثم نهضت ببطء. قال صادق وهو ينهض مسرعًا:

- لا داعي.. سأأتي إليك.
- استرح، استرح. سأحضره إليك بنفسي. لا أدري إن كنت سأعيش حتى يصل هذا الصندوق إليها. أخبرها أننا لم نتركها يومًا!

كان مشهدًا مؤثرًا. أمسك صادق الصندوق بحرص، ثم انحنى نحوها قائلًا في محاولة لطمأنتها:

- أطال الله عمرك. سيكون هذا أثمن ما تتلقاه حميدة في حياتها.

ابتسمت العجوز ابتسامة امتزجت فيها المحبة بالحنين، وقالت:

- أثمن ما حصلت عليه حميدة هو أنت. فليَنَمْ ابني في قبره بسلام؛ فابنته في يدين أمينتين.

❊ ❊ ❊

٥٩

"طُرق الباب، وقبل أن نتهيأ للوقوف فُتح ودخل. لم أعرفه! فقد كانت صورته في ذاكرتي رجلًا حليق الوجه، كثيف شعر الرأس، نحيل الوجه، لا أرى صورته إلا بالأبيض والأسود. كانت تلك الصورة القديمة هي الوحيدة التي نملكها له. أما الرجل الذي دخل فقد كان ذا لحية خفيفة، ووجه ممتلئ، وجسد ضخم لم أعهده في مخيلتي. لولا أن أمي كانت تحدثني عنه باستمرار لاستوحشت أن أحدثه بسهولة. لكن كل ذلك تبدد حين اندفع نحوي، فحملني بين ذراعيه ورفعني عاليًا في الهواء كما تُحمل طفلة في الثانية من عمرها. كان الجو مشحونًا بالعواطف. ذرف الجميع دموعهم وهو يضمنا بين ذراعيه ويقول: الحمدلله، الحمدلله. بينما ردّدت أمي وعمي العبارة بصوت أخفض. ورددتها معهم ظنًا مني أنها من طقوس اللقاء. ثم أرخى ذراعيه وهوى إلى الأرض ساجدًا، فلحقت به أمي وعمي. لم أدرِ ماذا كانوا يقولون في تلك اللحظات، واستحييت أن أسأل أمي، فقلت في نفسي: لا بد أنهم يدعون الله. عندها خرجت من فمي ثلاث كلمات فقط: يا رب لا تفرقنا."

جلس صادق على السرير إلى جوار حميدة، فيما استقرت إينشا في حضنه، وجلس ألطاف على كرسي خشبي وضعه أمام السرير. أخذ صادق يتأمل ابنته ويجيب عن أسئلتها المتلاحقة: أين تعيش؟ وكيف تعيش؟ هل اشتقت

إلينا؟ ومتى ستأخذنا في جولة بين الثلوج؟ ثم ناولته الكيس الذي خبأته له هدية، وأصرت أن يفتحه في الحال.

قال ألطاف مداعبًا:

- هل ستستأثرين به لأنه والدك؟ اتركي لنا بعضًا منه.

ردت عليه قائلة:

- أنت قضيت معه وقتًا أطول مني، فكفّ عن الطمع!

ضحك الثلاثة، ثم قال صادق وهو يتأمل شقيقه:

- لا أصدق عينيّ! أهذا ألطاف الذي تركته طفلًا يحبو؟

هتف ألطاف متظاهرًا بالامتعاض:

- هييي لا تبالغ!

ضحك الجميع مرة أخرى. ثم التفت صادق إلى حميدة وهمّ بقول شيء فسبقته قائلة:

- نحن نتجرع الجوع، وأنت تزداد وزنًا!

ضحك ألطاف وقال:

- فطرت بك قبل أن تتعشى بها. لا تستغرب، فقد اكتسبت لسانًا فصيحًا خلال غيابك.

ضحك صادق والتفت إلى حميدة قائلًا:

- لا بأس، فكل ما تقولينه يقع على قلبي كماء الورد.

أطرقت حميدة برأسها خجلًا وقالت:

- كنت أمزح... لم أقصد شيئًا.

مضى الوقت بسعادة، حتى دقت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. كانت الضحكات تختلط بالدموع، والمزاح يلامس برفق المشاعر المتدفقة. صخب جميل تمنوا لو امتد طويلًا. ورغم ذلك الصخب، فقد نامت إينشا بين ذراعي والدها. قالت حميدة:

- إنها تشعر بالأمان معك.

نظر صادق إلى ابنته وهمس:

- صغيرتي الحبيبة... أشعر كم حُرمت مني، وذلك يؤلمني كثيرًا.

وضعت حميدة يدها على كفه وقالت:

- ليس ذنبك. هذه ضريبة من يسعى إلى الحرية، ولا بد أن ندفع ثمنها. لا تقلق عليها، فهي أقوى مما تتصور.

أخرج صادق الكونجري من حقيبة الظهر، ووضعها تحت غطائها ليمنحها بعض الدفء. حينها نهض ألطاف واستأذن لاستنشاق بعض الهواء في الخارج. وبعد أن غادر همس صادق وهو يحيط كتفي حميدة بذراعه ويسندها إلى جانبه، فيما ظلت إينشا نائمة في حضنه:

- لقد أحسنتِ تربيتهما.

- نذير... أقصد صادق. ما زلت لا أصدق ما يحدث. هل أنا في حلم؟ أترى الربيع قد عاد أخيرًا؟

تذكر صادق كلمات كانت تغنيها دائمًا وهي تهدهد إينشا، فضحكَ وقال:

- إنه ربيعنا. ولو كان حلمًا فلا أريد الاستيقاظ منه.

قالت:

- أريد أن أناديك باسمك الحقيقي حين نكون وحدنا.
- سأكون سعيدًا بذلك. هل تعلمين لماذا؟

رفعت رأسها متسائلة، فتابع:

- لأنكِ غالية، وكل ما يصدر منكِ أغلى من الذهب.

ضحكت وقد احمرت وجنتاها:

- من أين أتيت بهذا الكلام!
- عليكِ أن تعتادي عليه.

تأمل كفيهما المتشابكتين، فتذكر شيئًا. أخبرها عن المفاجأة التي أحضرها معه. أدخل يده في الحقيبة حتى عثر على علبة البيبرماشي، ثم ناولها إياها. أمسكتها حميدة وهي مندهشة وهتفت:

- إنها لجدتي! لا أحد يملك هذا النقش سواها. هل زرتها؟

قصّ عليها بإيجاز ما حدث، بينما كانت تفتح العلبة وتتأمل الحلي التي نامت فيها أعوامًا طويلة. وسرعان ما انهمرت دموعها وهي تهمس:

- سامحيني يا جدتي... سامحيني.

مسح صادق دموعها بظهر كفه، واستمر حديثهما حتى وقت السحر. عاد ألطاف وأخبره أن رفاقه ينتظرونه في الأسفل. احتضن صادق حميدة في وداع موجع، وسلمها ظرفًا يحوي مالًا كان قد ادخره منذ زمن. ثم قبّل رأس

إينشا، وأوصى أمها ألا تحرمها شيئًا ترغب فيه. وبعد ذلك ضم ألطاف إلى صدره، ووصاه بما هو أهل له، ودس في جيبه ظرفًا آخر لعلّه يعينه على متابعة دراسته.

استيقظت إينشا فزعة عند الفجر، تبحث عن والدها. صرخت باكية: أين أبي؟ لماذا رحل دون أن أودعه؟ حاولت حميدة تهدئتها، لكنها ظلت تبكي بحرقة. تركتها حتى هدأت قليلًا، ثم اقتربت منها وقالت:

- لقد حظيتِ بنوم طويل بين ذراعيه. لم تنامي بهذا العمق من قبل يا ابنتي، لذلك لم يشأ أن يوقظك. كان سعيدًا وهو يراك نائمة في حضنه. ألستِ سعيدة بذلك؟ لا تحزني، سنلتقيه من جديد، وسنعيش معًا بسلام بإذن الله.

مسحت إينشا عينيها، وتمتمت: "آمين"، لكن قلبها الصغير ظل مثقلًا بالحزن.

❊ ❊ ❊

٦٠

- هلا توقفت عن الدوران! أصبتني بالدوار!

قال ذلك رجل يجلس في محل السيد أفتاب. ثم أردف بتثاقل حين لم يجد ردًا:

- أعطني سيجارًا أشغل به نفسي، بدلًا من مراقبتك وأنت تجوب المكان ذهابًا وإيابًا.

اقترب منه السيد أفتاب وقال بقلق:

- هل أنت متأكد أنك رأيتهم؟ ألم تخلط بينهم وبين أشخاص آخرين؟

- يا إلهي! كم مرة سأكرر ما قلت؟! أتذكر ألطاف أكثر مما أتذكر أمي. كان برفقة أسرته ورجل آخر، لكنني فقدت أثرهم بعد دخولهم الفندق. والآن، أعطني أجرتي فحسب.

عاد أفتاب للسير جيئة وذهابًا في توتر وهو يخبط الأرض بكعب حذائه. كان هنالك هاجس واحد يشغله: نذير على قيد الحياة! لا بد أن ذلك هو السبب وراء الكوابيس التي صارت تقتحم نومه في الآونة الأخيرة. حكّ صلعته بعصبية، ثم تمتم:

- كيف أتأكد من سبب ذهابهم؟ ذلك الرجل جاء إلى محلي من قبل. لابد أنه يعرف شيئًا!

وقبل أن يجيب الرجل نظر إلى الساعة ثم هرع إلى الخارج حين لمح جاغديش يقبل بمركبته. لوح بيده فأوقف جاغديش الأوتوركشا بمحاذاته وبادره:

- ما بالك واقفًا في الشارع؟ هل حدث شيء؟

- اسمع. أخبرتني أن أسرة واني خرجت في رحلة. هل تعلم إلى أين؟

رمقه جاغديش بنظرة استغراب وقال:

- لا، لا أعرف. لكن لماذا تسأل؟ هل هناك أمر خطير؟

أطلق أفتاب ضحكة قصيرة بدت مصطنعة أكثر مما ينبغي، ثم قال محاولًا إخفاء قلقه:

- لا، لا شيء على الإطلاق. من الجيد أن يفتحوا صفحة جديدة ونسيان الماضي. لا تشغل بالك بالأمر. انطلق قبل أن يفسد ما تحمله من خضار.

قفل السيد أفتاب عائدًا إلى المحل، بينما جاغديش يراقبه في حيرة. تمتم جاغديش: ما خطب هذا الرجل؟!

❊ ❊ ❊

٦١

انسحبت الفرقة الثانية عن خط العودة المحدد إلى الجبال المجاورة بحركة سريعة، بعد أن انقسم أفرادها إلى فريقين. وفي أثناء خروجهم من منطقة كونجدوري وصلت إلى عزيز إشارة تفيد بأن الطريق لم يعد مؤمنًا. وعند النقطة المتفق عليها وجدوا الفرقة الثالثة بانتظارهم، يتقدمهم إقبال وقد نشر بين يديه خريطة للمنطقة. استقبله صادق بحرارة وسأله عن حاله بعد خروجه من الحبس، فأجاب إقبال:

- كانت وخزة مؤلمة، لكنني تجاوزتها والحمد لله. أما الوضع الحالي، فلا بد أنهم استشعروا وجود أمر ما، ولهذا نشروا قواتهم بهذه الكثافة. ومع ذلك، هناك طريق واحد يصعب على القوات الهندية استخدامه بسبب تشعبه وتعقيده، ولا نلجأ إليه إلا في الحالات الطارئة.

ثم أشار بإصبعه إلى الخريطة وقال:

- سنسلك هذه التعرجات، ونقضي الليلة في كهف هنا، ثم نتابع المسير غدًا بإذن الله. آمل أن تكون الفرقة الأخرى قد أنجزت مهمتها.
- هل يعلمون بمكان الكهف؟
- نعم. غياث بيك يعرف المنطقة جيدًا.

ضحك برويز وتمتم: الشبح!

حل الظلام تدريجيًا بينما يشقون طريقهم بين الصخور والمنحدرات الوعرة. وقبل أن يشتد الليل طلب منهم إقبال تعمير أسلحتهم تحسبًا لأي هجوم من الحيوانات المفترسة. وأخيرًا وصلوا إلى كهف يتوسط أحد الجبال، غير أن نصف أفراد الفرقة الثانية فقط كانوا هناك، بينما غاب النصف الآخر ومعهم غياث بيك. قال أحد الموجودين في الكهف:

- وصل معنا إلى هنا، لكن ساوره القلق فخرج للحاق بالمجموعة الأخرى. لعل اشتباكًا قد وقع!

كانت ليلة انتظار ثقيلة. أمضاها الرجال بين الصلاة والدعاء وتلاوة القرآن، يحدوهم الأمل في عودة رفاقهم سالمين.

كان القمر ساطعًا، وإن لم يكن بدرًا. خرج صادق إلى مدخل الكهف يتأمل السماء المرصعة بالنجوم، وكأنها تواصل رقصها الأبدي غير عابئة بما يجري على الأرض من أهوال. تساءل في حيرة: لماذا يصعب عليه، وهو الذي لم يرتكب جرمًا في حياته، أن يرى أسرته الصغيرة رؤية طبيعية كسائر البشر؟ نظر إلى كفيه واستنشق رائحتهما، كأنه يبحث فيهما عن أثر من عبق أحبائه. عندها تذكر كيس إينشا الصغير، الذي تجعدت أطرافه من شدة قبضتها عليه وخشيتها أن يضيع في الطريق. أخرجه من حقيبته، وانزوى في ركن يصله بعض الضوء، ثم فتحه. كان بداخله شال قمحي اللون، تتدلى من أطرافه أهداب صغيرة، ويزين أحد جانبيه تطريز لورود برية وانحناءات

متشـابكة أوحت له بأشـكال لم يسـتطع تمييزها في البداية. ثم لمح ورقة صغيرة مدسوسة بين طيات الشال. فتحها، وبخطها الذي كان يتزاحم بثقة بين السطور، كتبت:

"أبي الحبيب، أرجو ألا يحزنك أنني لن أصبح مثل أمي حين أكبر، لكنني لن أعصيها، أعدك بذلك. أنا لا أحب الحياكة، لكنني أحببت أن أصنع عملًا واحدًا لأثبت للجميع أنني لم أترك الحياكة لعجزي عن القيام بها."

توقف صـادق عن القراءة، ووضـع يده على عينيه وهو يبتسـم من ثقة ابنته المتدفقة. فتح الورقة مجددًا وأكمل القراءة:

"أخبرتني أمي أن لشـالنا ثمانية تصـاميم مسـتوحاة من البيئة. وقد اخترت لك منها تصميم سمك الأنهار؛ لأن السمك لا يعيش إلا في الماء، وأنت لا تعيش إلا في كشمير، ولذلك سنلتقي ونبقى معًا إلى الأبد."

أعاد النظر إلى الشال بين يديه. تمتم مبتسمًا وهو يقاوم عبرته: أهذا سمك يا مشاكسة؟ ظننتها حلزونات!

ظل الشال بين كفيه طويلًا، كأن دفء أصابعها ما يزال عالقًا بخيوطه.

صـلوا الفجر، ثم جلس بعضـهم يترقبون، بينما اسـتسـلم آخرون للنوم. ومع أول خيوط الضـوء، سُـمعت حركة سـريعة أسـفل الجبل. أطل اثنان من الرجال من مدخل الكهف ليسـتطلعا الأمر، فشـاهدا غياث بيك يصـعد

المنحدر حاملًا رجلًا على كتفيه. استيقظ صادق على وقع الجلبة، ليجد الجميع يهرعون إلى الخارج لمساعدة القادمين. وبعد لحظات استقر الجريح في قلب الكهف. كان شابًا لم يتجاوز العشرين من عمره. أسرع أحدهم إلى إسعافه، وانضم إليه صادق في محاولة لإنقاذه. وفي تلك الأثناء اجتمع غياث بيك بإقبال، يبحثان عن مخرج آمن من المنطقة في ظل التحركات المتزايدة للقوات الهندية.

قال غياث بيك بعد أن سأله إقبال عن المعلومات التي يعرفها المحتل:

- يبدو أنهم لا يعلمون بتسللنا، ويظنون أننا من مرابطي الجبال، وهذا أمر جيد. على أي حال، لقد رفضت عرض الشباب هنا بالمساندة. لسنا مستعدين للمواجهة الآن، ولا نريد أن نلفت انتباههم إلى وجود حملة قادمة.

هز إقبال رأسه موافقًا وقال:

- سنجد طريقة بإذن الله.

مسح صادق العرق عن جبين الشاب الجريح، ثم رفع بصره نحو الأفق البعيد راجيًا أن تكون أسرته قد وصلت إلى البيت بأمان.

❊ ❊ ❊

٦٢

بعد أن رأته، هان عندها كل شـيء؛ حتى الموت، إن قرر أن ينتشـلها في تلك اللحظة، فلا بأس.

أوشـك العام الخامس عشـر بعد الألفين على الانتهاء وهي ما تزال تتغذّى على ذلك اللقاء الوحيد الذي جمعها به قبل عامين. كانت التهاني تصـلها متخفية تحت رداء الكتمان، وكان بودها لو تصـرخ بأعلى صـوتها من قمم جبال الهملايا: "زوجي ما يزال حيًّا، نذير ما يزال على قيد الحياة!". لكنهم طلبوا منها أن تكتم خبر نجاته إلى أن يستقر بهم المقام معًا.

مرّت الأيام وهي تنتظر. ولم يكن الانتظار هو المشكلة؛ فقد كانت مستعدة لأن تنتظر عامًا أو عامين أو حتى عشـرة أعوام، ما دامت على يقين بأنه ما يزال يتنفس على هذه الأرض، في مكان ما.

عامان من الحنين والشـوق. عامان كادا يفتكان بها كلما راودتها الأفكار المشؤومة، فتدفعها إلى إعادة قراءة رسائله التي يرسلها إليها سرًّا بين حين وآخر، لعلها تطفئ شـيئًا من لوعتها. وكعادتها، تسـتعيد آمالها كلما وقعت عيناها على ذلك الخط المتمايل الواثق على الورقة.

❊ ❊ ❊

٦٣

(تشرين الأول) أكتوبر ٢٠١٥

خرج ألطاف من غرفته مرتديًا رداء التخرج الأسود ذا الشرائط الصفراء، محاولًا استكشاف مدى ملاءمته له. وقال وهو يتجه نحو حميدة المنشغلة بالمغزل:

- إنه رداء براق! لكنني لا أجده مناسبًا! هل العيب فيه أم في المكان!

التفتت حميدة صوبه ثم ابتسمت قائلة:

- ما شاء الله، إنه مناسب تمامًا.

قال وهو يعود إلى غرفته:

- لن أقبل إلا بحضوركم. ضعي هذا في بالك!

- أخبرتك أنني لا أطيق الزحام. سأعد لك حفلة خاصة في المنزل.

قالت حميدة ذلك وهي تعدل فتائل الخيوط المصطفة. صاح ألطاف من غرفته رافضًا:

- لا يمكن! يجب أن تحضري حتى نلتقط صورة معًا. ألا تريدين أن نلتقط صورة ونرسلها إلى أخي؟ ها؟

ولما لم يسمع ردًا، كرر: ألا تريدين؟

تمتمت حميدة مبتسمة:

- تبًا لك.

في قاعة الاحتفالات بالجامعة، قبضت حميدة على ذراع ابنتها وسط الازدحام. وقالت فاطمة بصوت مرتفع:

- يجب أن نتقدم حتى نجد مكانًا مناسبًا.

ردت حميدة بضيق:

- وصلنا متأخرين على أي حال!

وأثناء توجههن إلى المقاعد المخصصة لأهالي الخريجين، شعرت إينشا بيد تمسك بذراعها، فاستدارت وهي تصيح:

- أمي! الخالة ألفت هنا!

تعانقت المرأتان بعد فراق دام مدة طويلة نظرًا لانشغالهما بأعباء الحياة، ثم أمسكت ألفت بوجه إينشا بين كفيها وقالت:

- صرتِ شابة جميلة يا إينشا، آمل أن تصبح ابنتي جميلة مثلك!

فوجئت حميدة بالخبر السعيد، وقالت مهنئة:

- أصبحت فرحتنا مضاعفة اليوم. لم ألحظ بروز بطنك! ما شاء الله.
- آه يا عزيزتي حميدة، أتمنى أن تتضاعف أفراحكم وألا يمسكم سوء أبدًا. لدى إقبال بعض الأعمال وسيحضر بعد قليل. سبقته لأن إحدى صديقاتي تتخرج اليوم أيضًا.

قطع حديثهما صوت الخالة فاطمة وهي تصرخ من الأمام:

- وجدت مكانًا مناسبًا... أووه، ألفت؟!

كان الاحتفال مشحونًا بمشاعر الفرح والأمنيات الجميلة. وغادرت حميدة

القاعة وقد تجددت روحها برؤية كثير من الأعزاء الذين فرّقت بينها وبينهم الأيام والمسـافات. وفي طريقهم إلى الخارج، راحت تراقب ألطاف وهو يعانق إينشا ويمازحها، حين اعترض طريقهم السيد أفتاب قائلًا:

- جئت لأبارك لك يا بني. أتمنى أن تتوفق في حياتك العملية، وأن تكون مصدر فخر وأمل لأسرتك.
- شـكرًا لحضـورك. سـمعت أنك بعت الهاوس بوت بعد مداهمته. هل حدث أمر ما؟ آمل أنك عثرت على الفاعل.
- لا، للأسـف. على كل حال، أصبح مصـدر قلق بالنسـبة إليّ بعد أن قلّ إقبال السياح عليه. سأبحث عن مصدر رزق آخر.

ثم غادر بعد أن سلّم ألطاف صندوقًا مغلفًا، وحيا حميدة بانحناءة من رأسه. تابعته بنظرها وهو يبتعد، ثم سألت ألطاف:

- أما زالوا يشكّون فيه؟

أجاب ألطاف:

- الشك ما يزال قائمًا، لكن لم يثبت عليه شيء حتى الآن.

ثم أردف وهو يتأمل الصندوق في يديه: تُرى، هل يجدر بي قبوله!

❊ ❊ ❊

٦٤

مضـى أفتاب خارجًا من محله بعد أن رأى جامعي الضـرائب يعبثون بمحتوياته. أحكم إغلاق الباب، ثم استقل سيارته متجهًا إلى مكتب المهراجا الذي وعده بألا يتكرر ما حدث لفندقه العائم.

طرق الباب، فلم يجبه أحد. أخرج هاتفه واتصل بمساعد المهراجا، لكنه لم يرد. أدنى رأسه من الباب محاولًا استشعار أي حركة في الداخل، فلم يحتج إلى كثير عناء؛ إذ سمع بوضوح جلبةً تنبعث من المكتب. قبض على هاتفه بعصبية، ثم انسحب بخفة متخفيًا عن الأنظار.

- مرّ شهران على اختفاء أفتاب بعد أن باع جميع ممتلكاته. تُرى، هل غادر إلى الهند؟

تساءل ألطاف وهو يرتشف كوب الشاي برفقة إقبال في أحد المقاهي الشعبية وسط المدينة. نظر إقبال في كوبه مفكرًا، ثم قال:

- كلما أعدت حكاية شقيقك في رأسي بدا لي وجود أفتاب القطعة المفقودة التي تكمل اللغز، لكننا لم نستطع إثبات شيء.
- كانت تحركاته مريبة بالفعل.
- الأمر ليس هينًا لنجزم به دون دليل.

نهض ألطاف وارتدى معطفه قائلًا:

- أستأذنك بالانصراف. لا بد أن أعود إلى السفح. مضت أيام منذ غادرته بسبب انشغالي بالعمل الجديد.

ابتسم إقبال، ثم قال وهو يخرج منديلًا من جيبه:

- تبدو ســعيدًا بالعمل في مجال التخطيط الزراعي، مع أنني لم أتوقع يومًا أنك قد تحب أعمال المكاتب.

ضحك ألطاف وهمّ بالمغادرة، ثم استدار قائلًا:

- رغم ذلك، لا بد من قضاء يوم في الحقل حتى لا أفقد صوابي!

❊ ❊ ❊

٦٥

كانت إينشا واقفة أمام المنزل، تضع يدها على خدها وترقب الأفق. خرجت والدتها من الداخل تحمل دلوًا من الماء لتسقي النباتات التي تزين الفناء، وقالت حين أبصرتها شاردة:

- تبدين كعجوز تنتظر عودة ابنها الغائب!

ضحكت إينشا، ثم قفزت بخفة لتأخذ الدلو من والدتها. وفي تلك اللحظة لمحَتا ألطافًا يسرع الخطى باتجاه المنزل.

"لمعان العينين يحدث حقيقةً حين تمتلئان بالدموع، ويحدث مجازًا حين يتطلع المرء إلى حلم بدأ يتحقق. الصنف الأول رأيته كثيرًا، أما الثاني فأراه للمرة الأولى، بينما عمي ألطاف يتحدث عن نزوله الميداني الأول في مشروع تجديد الأحواض النباتية المحيطة ببحيرة دال. كان متحمسًا إلى درجة أنه عرض علينا مشاركته في جولته الاستطلاعية الأولى. يومها أيقنت أن البحيرة لم تعد هاجسًا مرعبًا لأمي، فاسترسلت في الحديث معنا عن ذلك اليوم... يوم عادت لتفهم ما حدث في فاجعة اعتقال والدي، فسقطت مغشيًّا عليها وسط زحام المعتصمين، ولولا مرافقة السيد جاغديش لها لما استطاعت العودة إلى المنزل. سألتها عن شعورها في اللحظة التي قررت فيها أن تمر من ذلك المكان مجددًا، فأجابت بكلمة واحدة: العشق. أن يصبح المعشوق هو الألم والأمل معًا... عندها تتساوى جميع المعادلات

وتغدو أصفارًا على الشمال. إنها فلسفة الفقراء والضعفاء وأصحاب الحقوق، حين يخونهم كل شيء إلا قلوبهم المفعمة بالحياة."

نزل الثلاثة من سيارة الأجرة أمام السور المحيط بإحدى ضفاف البحيرة. بدأ ألطاف يشرح مشروعه وهو يشير إلى المواقع المستهدفة، بينما كانت حميدة تستمع إليه باهتمام، في حين أخذ يدون بعض الرسومات في مفكرته. حينها كانت إينشا شاردة تتأمل الطيور وهي تحلق بحرية في الأفق ثم تهبط نحو الماء قبل أن تعاود الطيران. قالت:

- أماه، أريد أن أقضي العيد القادم في المدينة مثلما فعلت أنفال في العام الماضي. حدثتني عن الاحتفالات والمهرجانات الرائعة لكني أريد أن أراها بنفسي.

التفت ألطاف إليها بضيق بعدما قطعت حديثه مع حميدة، فقالت الأخيرة:

- لدى أنفال شقيقها الذي يقيم هنا، أما نحن فلا نعرف أحدًا.

تعلقت إينشا بذراع والدتها بإصرار وقالت:

- أمي أرجوك، هذا حلمي.

قاطعها ألطاف:

- ما يزال الوقت مبكرًا جدًا للحديث عن خطط العيد. انتظري حتى يقترب موعده.

أذعنت إينشا للأمر وبدأت تعد الأيام شوقًا لتلك الفرحة. ومضت أيام أخرى منذ غادر ألطاف المنزل مجددًا، ولعل غيابه سيطول هذه المرة بسبب

مشـــروعه المرتقب. كانت حميدة وابنتها تصـــارعان الملل في غيابه، حتى جاءت الخالة فاطمة تزف إليهما خبرًا بدد وحدتهما.

- ألفت وصلت أمس لزيارة أهل زوجها، وهي الآن في المخاض!
- حقًا؟ أهي هنا في السفح؟

قالت حميدة ذلك وهرعت لارتداء حجابها ثم تبعتها إينشا. في الطريق قالت فاطمة:

- لم يستطيعوا نقلها إلى المدينة بسبب طول الطريق، لذلك فضلت خالتها توليدها هنا، وقد أحضرت القابلة. آمل أن نصل وقد انتهى كل شيء. ألفت خائفة جدًا.
- بإذن الله. كانت ترفض أن تلد خارج المستشفى. يا لسوء حظها!

وصلن إلى المنزل وسط زغاريد النساء التي ملأت المكان. استقبلتهن أم أنفال ببشاشة قائلة: إنه ولد!

وأمام المولود الملفوف بالقماش، كانت عينا إينشا تلمعان برقة وسعادة. طُلب من النسوة المغادرة ليتسنى لإقبال رؤية وليده. دخل متلهفًا وهو يضم كفيه معًا، وكأن الدقائق التي افترق فيها عنه كانت ســنوات طويلة. حمل الصغير النائم بين ذراعيه وهمس بصوت رقيق خشية أن يوقظه:

- "عمر"
- عمر؟

سألته ألفت وهي تنظر إلى ملاكها الصغير.

التفت إقبال إليها وسأل:

- ما رأيك بهذا الإسم؟

- اسم خفيف على اللسان، ثقيل على الأعداء بإذن الله.

ابتسم إقبال وقال مازحًا:

- إلى وقت قريب كنتِ ترفضين معظم أفكاري. ماذا حدث يا ترى؟

ضحكت بتعب، ثم أخذت نفسًا عميقًا وقالت:

- معرفتي بك جعلتني أدرك أن الاختباء بحثًا عن الحياة يسلبنا إنسانيتنا، من دون أن يطيل أعمارنا. لن أجعل عمر يتجرع مرارتنا. يجب أن يختار طريقه بنفسه، بعد أن يتعلم الحرية والإنسانية، ويتذوق حلاوة العيش بكرامة. عندها سيحب الحياة بصورة مختلفة وعميقة.

تحرك "عمر" داخل الدثار فقال إقبال بمكر:

- يبدو أن لديه رأيًا مختلفًا!

ضحكت ألفت، فأردف مبتسمًا:

- سيكون عنيدًا مثلك.

- حينها سأتركه لك لتقوم بترويضه.

ضحك، ثم أمسك يدها برفق وقال: "كان الأمر شاقًا... شكرًا لكِ"

ردت الابتسامة بسعادة ثم أغلقت عينيها لتنعم ببعض النوم.

❊ ❊ ❊

٦٦

(تمّوز) يوليو ٢٠١٦

كانت جمعة الوداع من رمضان تصادف أواخر شهر يونيو، حين ذهبت حميدة وابنتها برفقة ألطاف للصلاة في ساحات المسجد الجامع، على أن يتوجّهوا بعد ذلك إلى التسوق استعدادًا للعيد القادم. فُتنت إينشا بالتجهيزات التي بدأت تظهر في طرقات المدينة، رغم أن الوقت ما يزال مبكرًا. وكان السوق مزدحمًا كعادته، وبصعوبة تمكنت حميدة من شراء المواد اللازمة لإعداد طعام العيد. وحين لم تجدا ملابس مناسبة، قررتا ارتداء ثياب العيد الماضية التي كانت حميدة قد طرزتها بنفسها.

لم تُجدِ محاولات إينشا في إقناع والدتها بقضاء أوائل أيام العيد في المدينة؛ فحميدة لا تحب الأماكن المزدحمة إلا عند الضرورة. ففي تلك الأيام تكتظ المدينة بالزائرين القادمين من القرى المحيطة.

- فلنذهب بعد أسبوع.

قالت الخالة فاطمة ذلك وهي تساعد حميدة في وضع الكعك في القوالب الخاصة بالعيد قبل يومين من قدومه.

هزّت حميدة رأسها، ثم نهضت تمسح يديها بقطعة قماش ربطتها حول خصرها، واتجهت لإشعال الفرن، بينما غمزت فاطمة لإينشا التي كانت تجلس إلى جوارها وتبتسم بسعادة غامرة.

مرّت الأيام الأولى من العيد بهيجة، حتى أقبل اليوم الموعود؛ يوم الرحلة. كان الصباح ماطرًا، فأصاب ذلك إينشا بخيبة أمل، لكنها استعادت تفاؤلها حين توقف المطر وعادت الشمس لتشرق من جديد.

ارتدت ثوبها البنجابي الأحمر الذي زينت والدتها أطرافه بنقوش ذهبية جميلة، ثم تناولت ثوب والدتها الأسود الذي حاكته أيضًا بزخارف بيضاء على هيئة أغصان متسلقة تغطي ظهره. وضعته على الطاولة وعادت إلى غرفتها، ثم وقفت أمام المرآة تتأمل نفسها بسعادة، وهمست في سرها بشيء من الغرور: "أصبحتُ جميلة".

قطع خلوتها صوت والدتها من خارج الغرفة:

- ألم أخبرك ألا تطيلي النظر إلى المرأة؟

احمرّ وجه إينشا خجلًا، وشعرت وكأن والدتها سمعت ما دار في خاطرها، فسارعت إلى الخروج حيث كان ألطاف ينتظرهم أمام المنزل. وفي تلك اللحظة أقبلت الخالة فاطمة. قال ألطاف وهو ينظر إلى الطريق الموحلة:

- يجب أن نسير بحذر؛ فالأرض زلقة.

وما إن أنهى كلامه حتى سمعا صوت ارتطام بالقرب، وإذ بالخالة فاطمة تئن على الأرض فهرعا لمساعدتها بالدخول إلى المنزل. قالت معتذرة:

- يبدو أنني لن أتمكن من الذهاب معكم. أسرعوا بالذهاب الآن قبل أن ينتصف النهار فإن تأخرتم لن يسعكم العودة قبل المغيب.

قالت حميدة بإصرار:

- لا عليكِ. يمكننا الذهاب غدًا.

هز ألطاف رأسه موافقًا بينما صاحت إينشا محتجة، ثم ركضت إلى غرفة نومهما وصفقت الباب بعنف. همّت حميدة بتوبيخها على سوء تصرفها، لكن فاطمة هدأتها، ثم رفعت طرف ثوبها الملطخ بالطين بين أصابعها وقالت:

- يجب أن أعود إلى البيت لأبدل ملابسي!

قاطعهم صوت طرق على الباب. فتح ألطاف، فإذا بالسيد شريف يطلب من فاطمة مرافقته إلى المدينة لشراء بعض المستلزمات الزراعية. حاولت التملص بسبب ثوبها، لكن حميدة طمأنتها ثم ناولتها ثوبها مبتسمة.

تنهدت فاطمة بأسف وقالت:

- وعدتكم بهذه الرحلة، وها أنا أذهب وحدي. ما رأيك، سنمكث هناك، وتلحقون بنا غدًا؟

ابتسمت حميدة وقالت:

- سنلحق بك غدًا بإذن الله.

***

في نهار اليوم التالي، كانت والدتها قد ذهبت للقاء الخالة شاميما في أحد المحال القريبة. بينما كانت إينشا جالسة أمام مطعم اتفقوا على تناول الطعام فيه، في انتظار عمها الذي ذهب ليشتري عصير الليمون الطازج من أحد الباعة المتجولين قرب بحيرة دال، التي كانت تشكل خلفية آسرة للمطعم.

جال في خاطر إينشـــا أن المطعم باهظ الثمن؛ نظرًا لموقعه، لكنها ابتســـمت وهي تتمتم: "خالتي الرائعة فاطمة تحوّل أحلامي دائمًا إلى حقائق".

عاد إقبال يحمل أكواب العصير، ووضعها على الطاولة وقال:

- أمك في الجهة الأخرى من الشـــارع. ســـأذهب لأدلها على مكاننا. ابقي هنا ولا تتحركي.

أومأت إينشـــا برأســـها، ثم التقطت الماصـــة وأدنتها من شـــفتيها ببطء، وهي تراقب الأطفال الذين يلعبون غير بعيد عنها. في تلك اللحظة، لفت انتباهها جلبة مفاجئة قرب البحيرة.

وصـــل ألطاف إلى المكان الذي وصـــفته له حميدة. كان طوق من الجنود يحيط بها وبعدد من النســـوة. أســـرع نحوهم محاولًا تجاوز الحاجز وهو يصيح:

- هل أنتِ بخير؟
- نعم، لكنهم لا يسمحون لنا بالمرور.

التفت ألطاف إلى أحد الجنود وسأله عن السبب، فأجابه:

- وردتنا معلومات عن نية لإقامة مظاهرة.
- وهل وجدتَ مبتغاك بين هؤلاء النسـوة؟ إنه يوم عيد، ومن الطبيعي أن تتجمع العائلات في الشوارع. دعوا النساء والأطفال وشأنهم.

أعرض الجندي عنه، ثم أمر النساء بإبراز هوياتهن.

أدرك ألطاف أن الأمر سـيطول، فأشـار إلى حميدة أن تتحلى بالصـبر. ثم همّ

بالعودة لاصطحاب إينشا. لكن الجندي أمسكه من ياقة ثوبه بعنف وهو يهتف: إلى أين تظن أنك ذاهب؟ تراجع ألطاف خطوة إلى الخلف، غير أن الجندي جذبه مرة أخرى وألحقه بالمجموعة المحتجزة.

مضى نحو نصف ساعة، قضاها الجنود في تفحص الهويات الشخصية وطرح أسئلة لا طائل منها. كانوا يطلقون سراح من يشاؤون، ويحتجزون من يشاؤون.

حاولت حميدة، التي أخذ القلق على ابنتها ينهش قلبها، أن تتسلل مبتعدة. فانتبه إليها أحد الجنود، وأمسك غطاء رأسها ليجبرها على العودة. اندفع ألطاف دافعًا ذراعه بعيدًا عنها. وفي لحظة اشتعلت مشادة بين الجنود والمحتجزين، قطعها فجأة صوت إطلاق نار من جهة البحيرة. شهقت حميدة صارخة باسم ابنتها، وكل أملها أن تكون بعيدة عن مصدر الخطر.

أوقف الجنود الشجار بهراواتهم، ثم أخذوا جميع النسوة إلى سيارات الاحتجاز. حاول ألطاف اللحاق بهم، لكن قواه خانته، فلم يجد أمامه سوى العودة للاطمئنان على إينشا. وبمشقة أخذ يجر قدميه، مستعينًا ببعض المارة الطيبين الذين أخبروه أن التوتر بدأ يتصاعد منذ مساء الأمس. وحين وصل إلى المكان الذي ترك فيه إينشا... وجده قد انقلب رأسًا على عقب.

❊ ❊ ❊

٦٧

"شيءٌ ما يضغط بقوة على عينيّ. حاولت فتحهما دون جدوى. كنت ممددة على سرير كالمشلولة، لا أقوى على الحراك، لكن ذلك لم يقلقني بقدر ما أقلقني عجزي عن فتح عينيّ. مهلًا... في ذلك السواد العظيم الذي أراه بدأت ذراتٌ باهتة تلوح من بعيد، تقترب شيئًا فشيئًا. كدت أفقد صوابي حين تبيّنتها، فصحت في جزع: أمي... أمي! شعرت بيدٍ تضغط على يدي برفق، وصوتٍ متحشرج يأتي من بعيد، كأنني غارقة في قاع بئر: "أمك بخير". هل هذا عمي ألطاف؟ وما بال صوته هكذا؟ سكت بعد أن قال تلك الكلمات، وبدأت بدوري أحاول فهم ما حدث. بعد المطر يشرق دائمًا قوسٌ من الألوان الزاهية... تُرى، هل أشرق في ذلك اليوم؟"

عرض الطبيب الأشعة المقطعية لرأس إينشا على ألطاف. كانت هناك سحابة ضبابية تغطي منطقة العينين، أشار إليها الطبيب موضحًا:

- أصابتها الرصاصة المطاطية في عينيها مباشرة.

- هل...

لم يتمكن ألطاف من استكمال السؤال مسح وجهه بكفه وحاول من جديد بصوت واهن:

- هل...

أكمل الطبيب عوضًا عنه:

- هل لذلك علاج؟ وهل ستتمكن من الرؤية مجددًا؟ أنا آسف...

غاص وجه ألطاف بين كفيه، بينما تابع الطبيب:

- أعلم أن هذا لن يواسيك، لكن عشرات الحالات المشابهة تأتينا كل عام.

في ممر المشفى أخرج ألطاف هاتفه وهو يتلوى ألمًا. وبعد جهدٍ تمكن عقله المشتت من إيجاد الاسمِ الذي يبحث عنه: إقبال. اتصل به على الفور. سمع إقبال نحيبًا مكتومًا، ثم خرجت كلمة واحدة وسط النحيب: أنجدني!

***

حضرت ألفت برفقة زوجها إلى حيث ترقد إينشا. تأملت جسدها المستلقي على السرير؛ طفلة لم تتجاوز الرابعة عشرة من عمرها، بالكاد تعلمت وضع الكحل في عينيها، وها هما الآن مضمدتان بشاشٍ أبيض يخفي ما أصابهما. أما ملامح وجهها الصافي البهي فقد غطتها ندوب صغيرة خلفتها الشظايا.

جلست ألفت إلى جوارها وأخذت تمسد شعرها برفق. كانت إينشا هادئة إلى حدٍ مقلق. لم تنطق بكلمة منذ أن دخلت ألفت الغرفة، رغم محاولاتها لحثها على الحديث. كانت تريد أن تعرف ما الذي يدور في رأسها، وأن تنتشلها من وحدتها؛ تلك الوحدة التي لن يفهمها أحد سواها.

في رأس إينشا كان مشهدٌ واحد يتكرر بلا توقف، مشهدٌ كفيل بأن يلقي بها في دوامةٍ من الصمت. ما زال طعم الليمون الطازج عالقًا في فمها. كانت قد أنهت كوبها ثم راحت تتأمل كوب عمها الذي تكاثفت على جوانبه قطرات

الندى بشكلٍ مغرٍ. همّت أن ترتشف منه قليلًا، لكنها تذكرت قوة ملاحظته، فكفت عن ذلك وأشغلت نفسها بالأطفال الذين يلعبون بالقرب منها، وبتأمل الزينة المعلقة فوق المحال وأمام المنازل.

عندها لمحت اضطرابًا في الأرجاء تعرفه جيدًا. أسرعت نحو الأطفال لتبعدهم عن المكان، لكن صوت إطلاق الرصاص دوّى فجأة. هرع الصغار مبتعدين، واستدارت إينشا لتلتقط حقيبتها الموضوعة على الكرسي. وفي تلك اللحظة لمحت جسدًا ممددًا على الأرض، يتدفق الدم من رأسه وأنفه. كان قريبًا منها إلى درجة كادت تفقد معها صوابها. استدارت مذعورة حين بدأ المكان يمتلئ بفتية يحملون العصي ويرشقون الحجارة، محاولين فتح طريقٍ لانتشال الشهيد الذي سقط.

وفي طريق هروبها من موضع الخطر، استوقفها ازدحامٌ وصراخٌ على الرصيف المطل على البحيرة. هناك رأت آخر ما انطبع في ذاكرتها قبل الإصابة: ثوب أسود، عليه نقوش بيضاء لشجر متسلق، يطفو على سطح الماء، بينما تحيط الحشود بالمكان في محاولة لانتشال صاحبته. كثيرا ما سمعت إينشا الحكايات المؤلمة عن نساءٍ انتُشلت أجسادهن من ضفاف نهر جيلهم بعدما امتدت إليهن أيادي الإجرام. وها هي الآن ترى إحدى تلك الحكايات ماثلة أمامها. كان ذلك المشهد بثًا حيًا لكل تلك القصص. وكان أيضًا الشرارة التي أشعلت الغضب في ذلك الشارع المزدحم.

حين وصلت بذاكرتها إلى تلك اللحظة، بدأ الأنين يتسرب من حنجرتها

المرهقة. كانت تبكي بلا دموع. ظلت ألفت إلى جوارها تضـغط على يدها برفق وتقرأ آياتٍ من القرآن، بينما جلس ألطاف غير بعيدٍ عنهما، مرخيًا ذراعيه المثقلتين بالألم.

استجمع ألطاف ما بقي لديه من قوة وقرر اللحاق بإقبال للبحث عن حميدة في مراكز الاحتجاز. اقترب من إينشا المستلقية دون حراك، ووضع يده على رأسها وقال:

- اطمئني، أمكِ بخير. سنذهب لإحضارها بإذن الله.

تأملها للحظات، وحين همّ بالمغادرة تمتمت بصوتٍ خافت:

- لقد رأيتها!

اقترب منها بلهفة وقال:

- رأيتِ من؟

- رأيتها... كانت تغرق.

بدأ صوتها يتلعثم، لكنها واصلت بصعوبة:

- كانت تغرق في البحيرة.

تراجع ألطاف خطوة إلى الوراء، ووضع يديه على رأسه في صدمة. سألته ألفت بقلق:

- ماذا حدث؟ هل أصاب أحدًا مكروه؟

التفت إليها وقال بعجز: هلّا أخبرتِ إقبال أنني سأتأخر قليلًا؟

جرّ ألطاف قدميه خارج الغرفة وقد أثقل الغم قلبه أكثر مما كان. فمن هول

الصـــدمة الأولى نســـي تمامًا أمر الخالة فاطمة، التي انقطع الاتصـــال بها وبزوجها. وكانت آخر مرة رآها فيها ترتدي ثوب حميدة الأسود.

شـــق طريقه بحذر إلى خارج المبنى، ثم نزل إلى الطابق الســـفلي متمنيًا ألا يجد ما يخشـــاه. أمام ثلاجة الموتى كان الناس يدخلون ويخرجون في حركةٍ لا تهدأ. وفي أحد أركان الصـــالة لمح رجلًا يعرفه جيدًا، جالسًـــا القرفصـــاء، ورأسه بين ركبتيه. اقترب منه ألطاف، ثم احتضنه بقوة قبل أن يجهش بالبكاء هامسًا: "إنا لله وإنا إليه راجعون".

❊ ❊ ❊

٦٨

دخل برويز الشـقة وجلس على الأرض قبالة صـادق، الذي كان قد فرش أمامه مجموعة من الكتب والأوراق، ويقلب فيها. قال برويز دون مقدمات:

- أفتاب خائن.

ترك صادق الكتاب الذي بين يديه، ورفع رأسه نحوه متفاجئًا:

- كيف عرفت؟
- لديه شـبكة من الجواسـيس. تمكنا من تتبع خيوطها، ولله الحمد. لكنه فرّ إلى الهند بعد أن باع كل ما يملك.

تنهد صادق بضيق فسأله برويز:

- هل يحزنك أنه تمكن من الفرار؟

صمت صادق للحظات، ثم قال:

- كان جارًا عزيزًا عليّ. ذات مرة استشـارني في بعض الأمور القانونية المتعلقة بمحاله التجارية، فأرشـدته إلى ما يحميه من المسـاءلة، وقد تقبل نصيحتي بصدر رحب.

ضم برويز ساقيه وسأل:

- هل كانت لديه مخالفات؟
- تورط في صفقة مشبوهة قبل سنوات، وجاء يطلب مشورتي. يومها ظننت أنه يسـعى لتدارك خطأ وقع فيه، لكن يبدو أنه كان قد غاص في الوحل منذ ذلك الحين.

- بما أنك عرفت سره، فقد أراد أن تختفي من طريقه.
- لم أتوقع أن يصل به الأمر إلى الخيانة... هذا مؤسف حقًا.
- أمثال هؤلاء هم السبب في أننا ما زلنا نتخبط حتى اليوم.

رن هاتف صـادق فجأة. كانت المتصـلة عمة حميدة. ما إن أنهى المكالمة حتى نهض على عجل، ارتدى قميصـه، وغادر الشـقة مسـرعًا. وجد الجدة مستلقية على سريرها، تتنفس بصعوبة، بينما يمتد أنبوب التغذية إلى ذراعها الهزيلة. قالت ابنتها وهي تعدل غطاء رأسها:

- تعبت أمي منذ يومين، وأصـرت على رؤيتك. اعذرني إن كنت قد أزعجتك باتصالي.

هز صـادق رأسـه نافيًا، ثم جلس على طرف السـرير وربت برفق على قدمي الجدة قائلًا:

- أماه، كيف حالك؟ لا تترددي في طلبي متى شئتِ.

أخذت العجوز نفسًا عميقًا ثم قالت:

- سأموت قريبًا... اشتقت لحميدة. وأريد رؤيتها قبل أن أموت!
- أطال الله في عمرك. قلتِ ذلك قبل عامين، وها أنتِ بيننا اليوم ولله الحمد. سترينها بإذن الله.

لم تجب العجوز، واكتفت بإغماض عينيها كأنها تسـتند إلى ذلك الوعد. وقبيل مغادرته، وضـعت ابنتها بعض الطعام المنزلي في أكياس وقدمتها إليه. شكرها على كرمها، ثم خرج وهو يفكر بجدية في إحضار أسرته.

❊ ❊ ❊

٦٩

صاحت ألفت ما إن دلفت إلى منزل خالتها، الذي كان بابه مفتوحًا سلفًا:

- خالتي... خالة عناب! أين أنتِ؟

ظهرت الخالة وهي تهبط الدرج مرتدية مريولًا مغبرًا وتحمل منفضة غبار. قالت وهي تنظر إلى الرضيع عمر بين ذراعي ألفت:

- خيرًا إن شاء الله يا ابنتي. ما بالك تصرخين؟ هل أصاب "عُمري" مكروه، لا قدر الله، حتى تأتين به في هذه الساعة المتأخرة؟ وما شأن الحقيبة التي تحملينها؟ كنت أنظف غرفة عمك في الأعلى، وكما ترين...

قاطعتها ألفت:

- اعذريني يا خالتي، فأنا في عجلة من أمري. هل يمكنك الاعتناء بعمر ريثما أبقى في المستشفى؟
- ماذا؟ هل لديك مناوبة ليلية بسبب الاضطرابات التي شهدتها المدينة هذه الأيام؟
- لا يا خالتي، ليست مناوبة. لقد طرأ أمر آخر، وسأحتاج إلى البقاء هناك لأيام.

قالت ذلك وهي تسلمها عمر، ثم وضعت الحقيبة على الأرض. وبينما هي تهم بالانصراف أمسكتها خالتها من ذراعها وقالت بحزم:

- لن تبرحي مكانك حتى تخبريني بما حدث. أتتركينني للحيرة طوال الليل؟

استجمعت ألفت ما بقي لديها من تماسك، وقالت في نفس واحد، خشية أن تنهار إن توقفت:

- إينشـا أصـيبت في عينيها خلال مواجهات اليوم، وحميدة محتجزة، وصديقتها وُجدت غريقة في البحيرة.

شهقت الخالة وضربت صدرها بكفها وهي تتمتم:

- يا مصيبتاه! إينشا، الطفلة التي حملت سلة الحلوى في يوم زفافك؟

لكن ألفت لم تكن هناك لتجيب. كانت قد غادرت، تاركة خلفها بابًا نصـف مفتوح، وخالةً مذهولة تحدق في الفراغ، بينما أخذ عمر يبكي بين ذراعيها دون أن تدري كيف تهدئه أو تهدئ قلبها.

❊ ❊ ❊

٧٠

وقفت إينشـا بصـعوبة في طريقها إلى الحمام، متكئة على ذراع ألفت. قالت لها الأخيرة برفق:

- تمكن ألطاف من معرفة مكان والدتك. مرّ يومان، ولم يبقَ سـوى يومٍ واحد، ثم سيُفرج عنهن بإذن الله. اطمئني.

قطعت إينشا صمتها وسألت:

- أين ذهب الجميع بالأمس؟
- لم نذهب إلى أي مكان.

توقفت إينشا فجأة عن السير، ثم قالت بانفعال:

- بلى! أين ذهبوا جميعًا دونكِ؟!
- سأخبرك، لكن بعد أن تقضي حاجتك.

بمساعدة ألفت وقفت إينشا فوق المرحاض، ثم خرجت الأخيرة إلى الممر لتنتظرها. أسـندت ألفت ظهرها إلى الحائط وأغمضـت عينيها وهي تفكر في طريقة مناسـبة لتخبر إينشـا بأمر الخالة فاطمة. جاءها صـوت إينشـا من الداخل:

- انتهيت.

تحسـسـت إينشـا طريقها نحو الباب، وفي اللحظة التي همّت فيها ألفت بالدخول سـمعت صـوت ارتطامٍ قوي. اندفعت إلى الداخل لتجدها ملقاة

على الأرض. هرعت ألفت باتجاهها وساعدتها على النهوض قائلة:

- لا بأس... لا بأس. ألم أخبرك أن تعتمدي عليّ؟ لماذا تفعلين هذا بنفسك؟
- اتركيني وحدي! سأقضي أموري بنفسي.
- لن أتركِكِ أبدًا.

قالتها ألفت بحزم ممزوج بالحنان، ثم أحاطت كتفيها بذراعها وساعدتها على الخروج. وأضافت محاولة التخفيف عنها:

- سأبقى معك حتى تعتادي على كل شيء. هذه وظيفتي كممرضة قبل أن تكون مساعدة لك. هل يرضيك قولي هذا ويخفف عنك؟

سارتا ببطء نحو السرير، وحين اقتربتا منه لاحظت ألفت امرأة أجنبية تجلس إلى جواره، تمسك دفترًا صغيرًا وتبتسم لهما بوِد، كأنها كانت تنتظرهما منذ بعض الوقت.

❊ ❊ ❊

٧١

راح ألطاف يذرع الطريق أمام مقر الاحتجاز جيئةً وذهابًا. وأخيرًا توقف إلى جوار إقبال، الذي كان يتصفح هاتفه النقال. قال ألطاف بصوتٍ مثقل:

- حياتي تحولت إلى جحيم يا أخي!
- استغفر الله يا ألطاف، أعلم أنك لا تعني ذلك. هذه مصائب لاختبار قوة إيماننا.

أطلق ألطاف زفرة طويلة، ثم مسح وجهه بكفه وقال:

- كيف سأخبر نذير؟
- لا تشــغل بالك بذلك الآن. لديّ عمل مهم يجب أن أعود إليه في المكتب. أما صادق فسأرسل إليه رسالة أطلعه فيها على كل شيء.

وربت على كتف ألطاف قبل أن يضيف:

- اهتم بما بين يديك من أعباء ثقيلة.

❊ ❊ ❊

٧٢

"هل كنتُ أنانية؟ كل ما أردته آنذاك أن أتحسس وجه أمي لأتأكد أنها بخير إلى جواري. كان ذلك هاجسي الوحيد، ولهذا كدت أفقد صوابي حين أخبروني بما حدث لخالتي فاطمة. كانوا جميعًا حولي. حتى أمي، بعد أن خرجت من الاحتجاز التعسفي، كانت تمسك بيدي، وبالأخرى تمسد على رأسي. بدت هادئة للغاية حين رأتني للمرة الأولى بعد الحادث، لكنني أعلم أنها كانت تتظاهر بذلك. حكى لنا السيد شريف كل ما جرى. تحوّل سريري في المشفى إلى ما يشبه غرفة اجتماعات صغيرة تُدار فيها الأحاديث المصيرية. بدأت الاعتداءات منذ اليوم الأول، لكن الخبر لم يصل إلى قريتنا، فلم نعرف بما كان يحدث. ورغم هدوء الأوضاع نسبيًا، فإن العثور على الجثث التي طفت على سطح البحيرة في اليوم التالي أشعل غضب الناس. لم تكن خالتي وحدها التي قتلت، بل معها امرأتان أخريان. احتُجزن مساءً، ثم أشرق الصباح وقد فارقن الحياة! اشتدت قبضة أمي على يدي. لم أكن أرى تعابير وجهها، لكنني كنت على يقين بأنها تبكي".

لم تنم حميدة ليلتها الأولى. ظلت تتأمل وجه إينشا النائم بهدوء وتهمس: "ليتها أصابتني ولم تصبكِ!" ثم تدني رأسها إلى حافة السرير وتتمتم: "فاطمة... ماذا أفعل بدونكِ؟" وتغرق في بكاء صامت.

همس ألطاف باسمها بصوت خافت، التفتت إليه بعينين مخضلتين بالدموع،

فأشار إليها ليحدثها خارجًا.

أمام الغرفة التي ترقد فيها إينشـــا برفقة مصـــابين آخرين وقفت حميدة على عتبة الباب تتأمل طفلتها من بعيد، بينما أخرج ألطاف بطاقة صفراء وسلمها إليها وقال:

- جاءت بالأمس صـــحفية تُدعى جيني، وأرادت إجراء مقابلة مع إينشا بوصفها حفيدة مناضل وتعرضت لاعتداء واضح.

قلبت حميدة البطاقة بين أصابعها بشرود وقالت:

- جيني! وماذا ستجني ابنتي من ذلك سوى القلق والتوتر!
- هذا ما قلته لها، لكن إينشا مصرة على إجراء المقابلة.

نظرت إليه باستغراب وقالت:

- حقًا؟ قالت ذلك؟

ثم وضعت يدها على فمها وقد خانتها الكلمات:

- إينشا... إنها تتألم... ابنتي تتألم!

عادا نحو السرير، لكن حميدة تذكرت أمرًا فهمست:

- هل وصل رد من صادق؟
- وصلته الرسالة لكنه لم يرد.
- أخبره عن الصحفية أيضًا إن أمكن.

❊ ❊ ❊

٧٣

عادت ألفت إلى شـقتها. كان والدها قد سـافر لبعض الأعمال فكان البيت خاليًا. أخرجت حقيبة كبيرة وراحت تدس فيها الملابس من هنا وهناك بجنون. وصل إقبال في تلك اللحظة، رآها على تلك الحال، فحاول إيقافها، لكنها صاحت:

- يجب أن نغادر هذه البلاد! لن أترك ابني يعيش في خوف طوال حياته!
- أعلم أنكِ مصدومة مما حدث، لكن فقدان الأمل ليس من شيمكِ.
- أي أمل؟ كلما أوشكنا على استعادة أنفاسنا فقدناها من جديد.

ثم أجهشت بالبكاء وهي تقول:

- ألم ترَ وجه إينشا؟ أنت تعرفها جيدًا... ما ذنبها؟

لم يجد إقبال ما يقوله سوى أن يضمها إلى صدره محاولًا تهدئتها.

ظهرت نتائج التشـريح أخيرًا، وتبين أن وفاة فاطمة كانت نتيجة التعذيب.

شد السيد شريف قبضة يديه بغضب وصاح:

- لن أترك حقكِ يضيع هدرًا. سألاحقهم في كل مكان!

عاد إلى السفح وقد عقد العزم على رفع دعاوى قضائية ضد الاحتلال. لم يكن يملك سوى ذلك الأمل الضئيل الذي ظل يشع في قلبه.

❊ ❊ ❊

٧٤

"وكان من بين المصابين حفيدة المناضل الكبير مصطفى واني، الذي لقي مصرعه إثر انفجار..."

أغلق صادق التلفاز بعصبية فور انتهاء الخبر. قال برويز محاولًا تهدئته:

- رغم موافقتك، لا يبدو أنك راضٍ عن ظهورها في التلفاز.
- لا أريد لابنتي أن تواجه مزيدًا من المتاعب. ستنهال عليها طلبات المقابلات الآن، لكنني لم أشأ أن أثنيها عن قرار اتخذته بعد تفكير.
- ينبغي أن نقدّر شجاعتها. ومن ناحية أخرى، ربما يسهل عليها السفر إذا حظيت بتغطية إعلامية.

حدق فيه صادق لحظة، ثم هز رأسه موافقًا.

***

جلست حميدة على الكرسي الحديدي المجاور لسرير إينشا. مر أسبوع منذ وقوع الحادثة وقد تمكنت أخيرًا من إزالة الضماد عن عينيها المصابتين. بدأت ترتب أغراضها استعدادًا للمغادرة، حين دخلت ألفت إلى الغرفة وهي تحمل سلة من الفاكهة.

اقتربت بهدوء وعانقت حميدة، فبادلتها الأخيرة العناق بحرارة، ثم ألقت التحية على إينشا التي كانت تمشط شعرها.

قالت:

- هل أمشط لك شعرك؟

قالت حميدة:

- لا داعي، هي تجيد ذلك بنفسها.

ابتسمت ألفت إعجابًا بإصرار إينشا على الاعتماد على نفسها، ثم سألت حميدة وهي تراها ترتب الأغراض:

- عائدتان إلى السفح؟

- لا مفر من ذلك. لقد سمح لها الطبيب بالمغادرة.

نظرت ألفت إلى وجه إينشا وقالت:

- لكن...

سكتت هنيهة قبل أن تضيف: لدي فكرة. لماذا لا تأتيان إلى منزلنا؟ والدي مسافر، ويمكننا أن نقيم معًا حتى تتماثل إينشا للشفاء تمامًا.

- نحن بخير. منزلكما صغير، ولا أريد أن نثقل عليكما.

أمسكت ألفت بكفي حميدة بين راحتيها وقالت:

- غرفة للنساء وأخرى للرجال. إينشا بحاجة إلى أن تبقى قريبة من المشفى خلال هذه الفترة. أرجوكِ، وافقي.

نظرت حميدة إلى وجه إينشا، الذي لم تتغير ملامحه منذ أسبوع؛ ذلك المزيج من الصدمة والفراغ. عندها أدركت أنها ما تزال بحاجة إلى رعاية طبية ومساندة نفسية.

***

دخلن المنزل. توقفت إينشا حين توقفت والدتها فجأة من دون سبب واضح. نظرت حميدة حولها بدهشة، بينما أسرعت ألفت تجمع الملابس

المبعثرة وتخفي آثار الفوضـى في المطبخ بوجه يفيض حرجًا. كان المنزل متوسط المساحة. ما إن تعبر الباب حتى تستقبلك ردهة صغيرة تتوسطها نافذة واسعة عن اليسار، وأمامك ممر قصير ينتهي بغرفة وحمام، أما الغرفة الثانية فتقع إلى اليمين مقابل الردهة، وإلى جانبها مطبخ ضيق.

جلست إينشا على مقعد في الردهة، ثم التفتت نحو اليمين، وكأنها استشعرت وجود منفذ للحياة هناك، أو ومضة بيضاء شقت عتمتها للحظة. وفي هذه الأثناء، سارعت حميدة إلى مساعدة ألفت. قالت ألفت بحرج شديد:

- نسيت أن المنزل في حالة فوضى.

ضحكت حميدة وقالت:

- لا تحاولي التملص من حقيقتك.

فضحكت ألفت بدورها وأجابت:

- نعم، في الواقع أنا غير مبالية بعض الشيء. وهذا يزعج إقبال كثيرًا.

ثم صمتت للحظة قبل أن تضيف:

- سأذهب إلى منزل خالتي لأحضر عمر. تركته عندها هذا الصباح. اعتبرا المنزل منزلكما.

شكرتها حميدة بحرارة، ثم اتجهت إلى إينشا وجلست إلى جوارها. تناولت كفيها الصغيرتين وضمتْهما بين راحتيها برفق.

❊ ❊ ❊

٧٥

(آب) أغسطس ٢٠١٦

أنهى صـــادق حديثه مع أحد موكليه ثم غادر مكتب المحاماة الذي يعمل لديه. لم يمضِ على عمله هناك وقت طويل قبل أن يذيع صـــيته في "بونش" كلها. كان يعمل بشـــغف لافت، ومن عادته أن يكافئ نفســـه بطبق حار من اللحم الأحمر في أحد المطاعم كلما انتهى من قضية، لكن ذلك الوقود الذي كان يدفعه إلى الأمام بدا وكأنه نفد خلال الشهرين الأخيرين، حتى خُيّل إليه أن فتيله قد احترق تمامًا.

توقف أمام أحد الأكشـــاك. كان فتى في ريعان الصـــبا يدور بين المقاعد المنتشرة أمام الكشك، يحمل أكواب الشاي في حامل معدني. يتحرك بخفة ودقة لافتتين، فلا تميل الأكواب ولا تســـقط. وبعد دقائق أقبل الفتى بكوب الشاي الخاص بصادق. استوقفه الأخير قائلًا:

- ما اسمك يا بني؟

توقف الفتى والتفت إليه مجيبًا بصوت أجش:

- ضياء الدين.

- ما شاء الله. وما الحلم الذي تنوي تحقيقه حين تكبر يا ضياء؟

نظر الفتى في الفراغ أمامه، وقد اشتعلت عيناه بحماس:

- سأبني مطعمي الخاص.

وقبل أن يكمل، قاطعه الرجل الواقف داخل الكشك صارخًا:

- ضياء! كف عن الثرثرة؟ لست ضياءً، بل ظلامًا حلّ بي!

هرع الفتى نحو الكشك مذعورًا تتبعه نظرات صادق المتألمة. ومن بعيد، رفع الفتى بصره نحو الرجل الذي بدا عليه الانفعال. أراد أن يقول شيئًا، لكنه لمح نظرات رئيسه تلاحقه، فاكتفى بغسل الأكواب في صمت.

أنهى صادق شرب الشاي، ثم مسح وجهه ونهض متجهًا إلى الرجل الواقف أمام الموقد الكهربائي. ناوله الكوب وقال:

- اتقِ الله، وكن أرفق في حديثك مع الفتى. مهما بدا لك ضعيفًا ووحيدًا، فله أسرة تتمنى ألا يمسه أذى، ولن تغفر لمن يؤذيه.

ثم انصرف تلاحقه نظرات الرجل المندهشة.

***

أمام الشقة، أخرج مفتاحه بتثاقل وفتح الباب ثم دخل. كان برويز يجهز حقيبة سفر، وما إن رآه حتى ناداه:

- صادق، تعال إلى هنا.

تقدم صادق بهدوء، ووضع الشال الذي يرتديه على المنضدة، ثم وقف قبالته. تابع برويز حديثه وهو يرتب ملابسه داخل الحقيبة:

- الشبح يريد مقابلتك.
- بصفته الحركية؟
- نعم.

تنهد صـــادق، ثم عاد خطوة إلى الوراء والتقط شـــاله في هدوء. نهض برويز واتجه نحوه بقلق، ثم أمسك بذراعه وسأله:

- هل أنت بخير؟

تكلف صادق ابتسامة وهز رأسه، ثم غادر بهدوء كما دخل. في تلك اللحظة تذكر برويز يوم وصـول الخبر المفجع. كانا في طريقهما إلى السـوق لشـراء بعض الحاجيات حين تلقى رسالة قصيرة من إقبال تخبره باندلاع اشتباكات وإصابة إينشا. توقف صادق فجأة، ثم استدار نحو برويز وقال على عجل إنه بحاجة إلى إجراء اتصال من إحدى الكبائن.

لم يستغرق الاتصال وقتًا طويلًا. فجأة سقط الهاتف من يد صادق. التقط برويز الهاتف من الأرض، وكان أول ما سـمعه من الطرف الآخر صـوت إقبال يسأل: هل صادق بخير؟ علم برويز بما حدث لإينشا فاستدار ليرى صادق جالسًا على الرصيف في ذهول، كأن شيئًا في داخله قد انكسر دفعة واحدة.

***

- لا بد أنه ليس على ما يرام، لماذا يطلب لقاءه الآن؟

قال برويز ذلك لصـــابر الذي كان يقلب بعض الأوراق على مكتبه. أردف برويز:

- لم يذرف دمعة واحدة، وظل يبتسم ابتسامة شاردة طوال الوقت!

رفع صابر نظارته عن عينيه وقال:

- لا تتحدث عنه بهذه الطريقة. إنه أصلب مما تتصور.

نهض برويز، ثم تناول حقيبته وقال.

- إنني قلق على صادق، هذا كل ما في الأمر. سأغادر الآن.

قال صابر:

- لا تقلق عليه. إنه ليس طفلًا، وهم لا بد أنهم يقدّرون ظروفه جيدًا.

❊ ❊ ❊

٧٦

"لن تكون الحياة أكثر صعوبة مما هي عليه الآن."

"بهذه العبارة استطعت أن أتجاوز محنة فقدان ساقي. هذا ما أخبرني به عمي إقبال. واساني كثيرون، لكن مواساتهم كانت تثقل صدري أكثر مما تخفف عني، أما كلماته فقد لامست أعماقي. نعم، لن تكون الحياة أقسى مما هي عليه الآن، وما دمت قد اجتزت هذه المحنة بقلب ما زال ينبض وعقل ما زال يعقل، فقد انتصرت بالفعل."

مثّل مكوث إينشا ووالدتها في منزل إقبال وألفت فرصة لها كي تتأقلم مع الحياة الجديدة التي تنتظرها. وقد ساعدتها طبيعة عمل ألفت على تفهّم تقلبات إينشا النفسية، واستيائها المتكرر من نفسها ومن واقعها الجديد.

كانت إينشا تستيقظ كل صباح على رائحة خبز أمها الطازج والمميز. في البداية كانت أمها تساعدها على النهوض ودخول الحمام. وبعد مدة تمكنت من القيام بذلك بمفردها، فغمرت قلبها سعادة لا توصف، غير أن حاجتها إلى من يعينها في أمور أخرى كانت تعيد إليها شعور الخيبة من جديد.

تتناول إينشا ووالدتها الإفطار متأخرًا بعد ذهاب الجميع إلى أعمالهم، ثم تبدأ حميدة بإعطائها دروسًا في الحياكة؛ تلك الحرفة التي كانت تكرهها يومًا، فإذا بها تصبح متنفسها الوحيد من الظلام الذي باتت حبيسة فيه. وفي الوقت نفسه كانت والدتها تفكر بجدية في إلحاقها بمدرسة خاصة.

فور أن تعود ألفت من عملها، وهي تحمل الصغير عمر، تتحرك إينشا بحذر باتجاه سرير الطفل وتداعب وجنتيه الغضتين.

في أحد الصباحات، أقبلت حميدة نحو إينشا، فوجدتها واقفة عند النافذة تمد يدها إلى الخارج، وتنصت إلى صوت الريح بين أوراق الأشجار القريبة. كان ذلك الهمس الطبيعي يشعرها باسترخاء، ويخفف من إزعاج أصوات السيارات في الشارع.

اقتربت حميدة وأغلقت النافذة برفق، ثم قالت:

- الهواء هنا ليس نقيًا. هل تشتاقين إلى السفح؟

قالت إينشا وهي تتابع وقع خطوات والدتها العائدة إلى الأريكة:

- كنا نعيش هنا في الماضي.
- إذًا فقد راق لك المكوث هنا؟
- لم يعد المكان يصنع فرقًا بالنسبة لي. أحب الأشخاص هنا... وأخاف العودة.

ساد الصمت بينهما لحظة. وحاولت حميدة أن تخفي نبرة القلق من صوتها وهي تقول:

- ولم الخوف؟ أصدقاؤك ينتظرون عودتك بشوق.

أدارت إينشا وجهها في اتجاه صوت أمها وقالت:

- أخاف أن أعود فلا أرى جبل الهيمو، ولا الأزهار التي كانت تملأ الهضبة فأميزها بألوانها. أمي... هذا شعور مرعب.

ابتلعت حميدة ريقها بصـعوبة. كانت تحاول أن تبقى الأرض الصـلبة التي تستند إليها ابنتها، فقالت:

- عندي لكِ مفاجأة.

قالت إينشا بفضول:

- ما هي؟

- وصلت رسالة من والدك. كتبها بخط يده من أجلك.

أمسكت حميدة بكف إينشا ووضعتها على ظهر الورقة. كانت هناك نتوءات دقيقة خلفتها الكتابة على الوجه الآخر. أخذت إينشـا تتحسـس بروز الحروف، متخيلةً والدها وهو يضـغط على القلم بقوة ليترك أثر حروفه على الجهة المقابلة.

استمرت إينشا في تمرير أصابعها على تلك النتوءات فقالت حميدة:

- سأقرأها لك.

"ابنتي وقرة عيني.

ضـعي يدك على قلبك. هل ما زال ينبض؟ إذن اسـتندي إن كنتِ مستلقية، وقفي إن كنتِ جالسة، ولا تستسلمي، فما زال أمامك الكثير لتنجزيه بقوة. إينشـا، حين كان الصـغار يلعبون بالدمى، كنتِ تنشـغلين بخيوط المغزل، وحين كانوا يبنون بيوتًا من الرمل، كنتِ تصـنعين قاربًا لتعبرى النهر. كنتِ دائمًا مختلفة، ولهذا أنتِ هنا الآن. لا لأنكِ أضعف من غيرك، بل لأنكِ تملكين القدرة على تجاوز ما عجز عنه كثيرون."

توقفت حميدة عن القراءة وهي تضع كفها على فمها محاولة منع أنينها.

سألتها إينشا وهي تتحسس يدها الأخرى الممسكة بالرسالة:

- هل انتهيت؟

مسحت حميدة عينيها وقالت:

- بقي القليل يا حلوتي.

ثم ابتسمت فجأة حين وجدت العبارة نفسها مكتوبة في الرسالة، وتابعت القراءة:

"بقي القليل... وسنجتمع من جديد، بإذن الله، وحينها لن يفرقنا شيء. ما زالت الحياة تخبئ بين طياتها أفراحًا كثيرة وأمسيات سعيدة، فلا تكفي عن التطلع إليها."

استغرقت الرسالة وقتًا طويلًا حتى وصلت، لكنها منحت إينشا انفراجة لم تعرفها منذ زمن.

اتجهت حميدة إلى المطبخ لتعد الغداء قبل عودة الجميع. أما إينشا فأخذت الرسالة ومضت إلى غرفتها. استلقت على السرير وهي تضمها إلى صدرها، ثم راحت تمرر أصابعها على نتوءات الحروف مرة بعد أخرى، كأنها تتحسس يد والدها نفسها. وبعد لحظات نادت بصوتٍ امتزجت فيه العزيمة بالفرح:

- أمي... أريد أن ألتحق بالمدرسة!

❊ ❊ ❊

٧٧

في منتزهٍ صـغيرٍ وسـط بونش، جلس صـادق على مقعدٍ مزدوج بضـع دقائق حتى وصل غياث بيك وجلس إلى جواره. قال الأخير:

- آلمنا ما حدث لابنتك، نسأل الله أن يخفف عنها.

هز صادق رأسه وقال: يارب.

تابع غياث بيك:

- سيتم إيقاف نشاطك الحركي.

التفت صادق في دهشة، وأردف غياث:

- نريدك أن تهتم بأمر ابنتك. لقد أعاد ظهورها في الأخبار إحياء ذاكرة شـعبنا، وكشـف للعالم بشـاعة ما يحدث. نقترح أن تكتفي بعملك القانوني في هذه المرحلة.

شبك صادق أصابعه ونظر بين قدميه وقال:

- أشكركم على اهتمامكم.

ربت غياث على كف صـادق ثم نهض مغادرًا، بينما عاد صـادق إلى جلسـته وقد أثقله التفكير في وسـيلة تجمعه بأسـرته من جديد. أعمل ذهنه طويلًا، لكن القرار الوحيد الذي اتخذه بشأن إينشا كان ألّا يقدم على أي خطوة قبل إخراجها من كشمير.

❊ ❊ ❊

٧٨

التحقت إينشـــا بمدرســـة للمكفوفين، ولأنهم قد يمكثون في المدينة مدة طويلة، استأجر ألطاف شقة صغيرة بالقرب من المدرسة. كانت تستيقظ كل صباح عند السادسة، وبعد تناول الإفطار يرافقها ألطاف إلى المدرسة، حيث تتعلم القراءة والكتابة بلغة بريل. شعرت بسعادة غامرة حين أهداها عمها آلة بريل لتتعلم الكتابة عليها. وقبيل الظهيرة بقليل، تذهب والدتها إلى المدرسة لاصطحابها في طريق العودة.

كانت الأيام الأولى مليئة بالمتاعب؛ متاعب الانتقال إلى المنزل الجديد، ومتاعب تأقلم إينشـــا مع المدرســـة والحياة الجديدة. لكن حميدة شـــعرت بالراحة بعد أن تمكنت من إحضار آلة المغزل الخاصة بها من السفح.

***

"قيل لي إن المدرسة مبنى مطلي باللون الأزرق الفاتح، ومكوّن من طابقين، وفي كل طابق مجموعة من الفصول. أستطيع الوصول إلى فصلي بمفردي؛ أصـــعد درجات الســـلم، ثم أســـتدير إلى اليمين واضـــعةً يدي على الجدار وأتحرك ببطء، بينما أعدّ الأبواب التي أمرّ بها حتى أصـــل إلى الباب الثالث. لكنني توقفت عن استخدام هذه الطريقة بعد أن حفظت المسافة، وأصبحت أمضي بسرعة من دون الحاجة إلى عدّ الأبواب.

أول صديقة تعرفت إليها تُدعى أسماء. وُلِدت كفيفة، ولذلك فهي أكثر خبرة مني في قضاء وقتها بسعادة! ولم يمض وقت طويل حتى اكتسبتُ الكثير من

الأصدقاء. كان يجمعنا شيء واحد؛ أننا ننظر إلى قلوب بعضنا بعضًا أولًا."

***

أغلقت المعلمة الكتاب حين رن جرس الاستراحة. نزلت الفتيات للاستمتاع بالهواء وأشعة الشمس. وكانت إينشا برفقة أسماء، تجلسان تحت ظل شجرة في الفناء، وتتناولان رغيفًا أعدته أسماء واقتسمته مع صديقتها. حينها سمعت إينشا صوتًا مألوفًا يناديها من بعيد. وقفت محتارة، ثم اقترب الصوت أكثر. كانت تلك أنفال التي اقتربت منها وقالت:

- إينشا، لقد افتقدتكِ كثيرًا! جاءت والدتي لزيارتكم فرافقتها، وحين علمت أن المدرسة قريبة أتيت لرؤيتك.

نهضت أسماء وقالت:

- مرحبًا. هل أنتِ صديقة إينشا؟
- نعم. كنا معًا في القرية.

كانت إينشا واجمة، استدارت فجأة وعادت إلى الصف. حاولت أنفال إيقافها، لكن أسماء قالت متداركة الموقف:

- اسمحي لي أن أتدخل. لمَ لا تعودين إلى المنزل الآن وتنتظرين عودتها؟ إنها متعبة بسبب كثرة الدروس.

شكرتها أنفال ثم غادرت. وبعد انتهاء اليوم الدراسي، وقفت إينشا أمام البوابة بانتظار والدتها. أقبل ألطاف وحمل حقيبتها قائلًا:

- لن تستطيع أمك القدوم اليوم.

لم تقل إينشا شيئًا. سألها ألطاف عن يومها المدرسي، وعن الكتاب الذي

بدأت قراءته، وعن أسماء. كانت تجيب بعبارات مقتضبة. حين وصلا إلى أمام المبنى توقفت عن السير قائلة:

- لا أريد الصعود.
- هيا. سيفوتنا الغداء، ولدينا ضيوف.

سحبت إينشا يدها من يده وصاحت:

- لا أريد الصعود. لا أريد أن أراهم!

قادها ألطاف برفق إلى السلم، ثم جلس وأجلسها إلى جواره وقال:

- إذن سنبقى هنا حتى يرحلوا. ثم ماذا؟ لا بد أن نصادفهم عند نزولهم، أو حين نزور السفح. لماذا تختبئين منهم؟ أنفال تحبك كثيرًا، ومن شدة اشتياقها كانت تزعج إقبال باتصالاتها المتكررة حتى تتمكن من الحضور لرؤيتك. وما إن سنحت لها الفرصة حتى سارعت إلى المجيء، وأرادت أن ترى مدرستك عن قرب. انظري إلى الجانب الجميل من الأمر. يجب أن تتقبلي لطف الناس حتى لا يتحول في نظرك إلى شفقة لا تحبينها.

تململت إينشا قليلًا ثم تبعت عمها. دلف الاثنان إلى الشقة، ورحبت بها الخالة ترحيبًا حميمًا، بينما ظلت أنفال جالسة في مكانها.

تلفتت إينشا فقالت والدتها: أنفال بجوار النافذة. لم تكن هناك سوى نافذة واحدة، فتحركت إينشا بخفة نحوها، ثم جلست وأخرجت من حقيبتها قطعة صغيرة من الرغيف ملفوفة بورقة، وقالت:

- أسماء تعدّ رغيفًا عجيبًا له مذاق لذيذ. أبقيت لك هذه القطعة.

أخذت أنفال القطعة وقالت بصوت ينبض بالسعادة:

- شكرًا لك ولصديقتك.

وبعد أن رحل الضيوف، وجلست الأسرة إلى مائدة العشاء، تناولت إينشا طعامها على عجل، ثم قالت إنها ذاهبة لإكمال قراءة كتابها. قال ألطاف وهو يراقبها تغادر بنشاط:

- لم تكن مهتمة بالقراءة، وها هي لا تطيق فراق كتابها!

ابتسمت حميدة وهي تجمع بقايا الخبز وقالت:

- كانت تستخدم كل طاقتها في مراقبة السماء والجبال والأنهار. أنا سعيدة لأنها وجدت متنفسًا تفرغ فيه طاقتها الكبيرة.
- بالمناسبة، وردني اتصال جديد من الصحفية جيني. قالت إنها ما زالت مهتمة بقضية إينشا، وتوَد أن تلتقي بنا.
- مقابلة أخرى؟ لم نستفد من السابقة، وها قد نسي الناس أمرنا وأمر كشمير!

صمت ألطاف هنيهة، ثم قال:

- لمَ لا نلتقي بها ونرى ما لديها؟ ربما يعود علينا اللقاء بالنفع.

هزت حميدة رأسها موافقة، ثم قامت إلى المطبخ شاردة الذهن. وحين وصلت إليه وجدت يديها خاليتين، فعادت إلى غرفة الطعام وأخذت صحن الخبز.

❊ ❊ ❊

٧٩

استقرت جيني في أحد أركان غرفة المعيشة الضيقة. كانت شابة في منتصف الثلاثينيات، تحدثت بلطف مع إينشا التي ظلت تنصت إلى كلماتها الإنجليزية، ثم إلى ترجمة عمها ألطاف. شرحت جيني اهتمام المؤسسات الخيرية بقضيتها، وتحدثت عن اهتمامها الشخصي بحالتها ورغبتها في تقديم المساعدة. ورغم ما بدا من صدق في حديث جيني لكن حميدة لم تكن مطمئنة؛ فهي لم تثق يومًا بادعاءات العالم الحرص على الإنسانية.

غادرت الصحفية بعد أن اتفقت معهم على اصطحاب إينشا في الأسبوع التالي إلى مؤسسة دولية تعمل لديها وتعنى برعاية ضحايا الحروب، كما اتفقوا على تصوير اللقاء تلفزيونيًا.

***

ارتدت إينشا ثوبًا بلون دم الغزال، وأحاطت رأسها بوشاح أبيض. وصفت لها والدتها شكل الثوب الذي حصلت عليه هدية من أنفال في زيارتها الأخيرة، ثم ختمت حديثها قائلة: "أنت جميلة جدًا". وقفت إينشا أمام المرآة وجعلت تتخيل شكلها وتبتسم.

كانت الصحفية تنتظرهم في سيارتها أسفل المنزل بصحبة المنتج. صعدت إينشا، بمساعدة والدتها وألطاف، إلى الطابق الثاني من مبنى المؤسسة الذي كان يعج بأناس ينتظرون الحصول على بعض المساعدات. آلمت أحوالهم

قلبها، وأحست بأن في الأمر شيئًا غير مريح. فسألت الصحفية عن سبب تقديمهم على أولئك المنتظرين، فقيل لها إن بعض الحالات تُقدَّم بحسب الأولوية.

***

"جميعنا لنا الحق في الحياة، ولا أفضلية لأحد على الآخر في ذلك. هذا ما قالته والدتي للصحفية جيني. لم أفهم سبب هذا الاهتمام الكبير بطفلة فقدت عينيها. لم أشعر يومًا أنني أتميز عن الآخرين. لكن استغرابي لم يدم طويلًا، فقد تبدد حين نشب لاحقًا جدال بين الصحفية والمنتج."

***

جلست إينشا على المقعد المخصص لها، وبدأ الرجل الحديث. عرّف نفسه بأنه مدير فرع المؤسسة في سرينغار، ثم أخذ يمتدح بإسهاب عزيمة إينشا وتقبلها المدهش لواقعها الجديد. وتحدث عن الدور الذي تؤديه المؤسسة في مساعدة المصابين على تجاوز ما مروا به، مشيرًا إلى أن إينشا استطاعت، "بنفسها"، تجاوز جانب كبير من تلك المرحلة الصعبة. ثم مال برأسه إلى الأمام طالبًا من الطفلة بلطف أن تتحدث عما ترغب فيه وتتمنى تحقيقه.

عند تلك اللحظة، أوقف المنتج التصوير. استدارت جيني نحوه باستغراب، فطلب منها أن ترافقه للحظات.

خلال الاستراحة، قُدم العصير لإينشا وعائلتها، قبل أن يعود الجميع

لاستئناف التصوير. لمحت حميدة علامات الامتعاض على وجه جيني، بينما طلب المنتج أن يتحدث مع إينشا على انفراد.

رفضت حميدة ذلك ووافقتها جيني مما أثار غضب المنتج، فبدأ يصرخ في وجهها، فردت عليه بالمثل.

همست حميدة في أذن ألطاف تسأله عن المشكلة فقال في حيرة:

- يبدو أنه يريد من إينشا التحدث في موضوع محدد، بينما تصر جيني على أن يبقى الحديث مفتوحًا.
- يبدو أنه يريد من إينشا الحديث في موضوع معين بينما لا تريد جيني إجبار إينشا على شيء.
- هاه! بدأ قلبي ينقبض.
- لا تقلقي. سنفهم كل شيء، ولن يتمكن أحد من إجبارنا على شيء.

في نهاية المطاف، اتفق الجميع على ترك المجال لإينشا في اختيار ما تريد قوله. لكن المنتج اقترب من إينشا وطلب منها هامسًا أن تتحدث عن أمنيتها بأن تتوقف الحرب ويعم السلام. قالت جيني بنفاد صبر: اترك الطفلة وشأنها! اتركها تتحدث بعفوية.

لم يعرها المنتج اهتمامًا وطلب من الطاقم استئناف التصوير. وبدأت إينشا تسرد ما حدث معها بالتفصيل، ثم أنهت حديثها قائلة إنها تتمنى أن يحفظ الله جميع الأطفال من شر الحروب.

انتهى التصوير، وجلس مدير المؤسسة مجددًا مع إينشا وأسرتها. أخبرهم أن إينشا قد رُشِّحت للسفر إلى الخارج لتلقي علاج مكثف وإجراء عملية تجميلية للعينين وبأنهم سيحرصون على متابعة الإجراءات وإبلاغهم بأخبار طيبة قريبًا.

غمر الفرح قلب حميدة؛ بدا لها أن ابنتها قد تستعيد جزءًا مما فقدته. سألت إينشا ببراءة:

- ماذا عن بقية الأطفال في الخارج؟

***

كان الظهور التلفزيوني الثاني لإينشا مؤثرًا، إلى درجة دفعت جيني إلى اقتراح مقابلة أخرى، غير أن إينشا رفضت. أعادت جيني خصلة من شعرها الذهبي إلى وراء أذنها، وهي تجلس أمام إينشا وبين يديها مجموعة أوراق وفاكسات تحمل طلبات وردودًا وتعليقات لشخصيات مهمة. وبينما كانت تقرأ لإينشا ما ورد فيها، ويحاول ألطاف ترجمة ذلك، جلست الطفلة واجمة ترسم بإصبعها خطوطًا مبهمة على ظهر الأريكة القطيفة.

وضعت جيني الأوراق جانبًا، اقتربت من إينشا ووضعت كفيها على كتفيها وقالت بلهجة عربية ركيكة:

- عملت هنا أكثر من ست سنوات، وشاهدت الكثير من الحالات المشابهة لحالتك. أعرف ما الذي تفكرين فيه، لكن تأكدي أنني سأبقى إلى جانبك حتى النهاية.

سأل ألطاف:

- نحن ممتنون لمساعيك، لكن لماذا إينشا بالذات؟

أجابت جيني بعفوية:

- لأنها طفلة مميزة، ولأنني أخشى أن تُستغل قضيتها من دون أن نشعر، كما كان يحاول المنتج أن يفعل.
- ما الذي كان يسعى إليه؟

استرخت جيني في مقعدها ثم قالت:

- أراد أن تدعو إينشا إلى السلام وترك السلاح. وهذا هدف نبيل، لكنني لم أرد أن تُدفع إلى قول شيء لم تختره بنفسها. أردتها أن تتحدث بحرية، وأن يكون صوتها هي، لا صوت أحد آخر.

❊ ❊ ❊

٨٠

"تُرى، هل هناك وجود للإنسانية؟ ربما جعلتني جيني أعيد التفكير مليًّا في موقفي من الإنسانية بعد أن خذلنا العالم وهو يرى ما يحصل من انتهاكات في بلدي. أمي لم تكن تشاركني الشعور نفسه تجاه جيني؛ إذ لم تكن لتثق بأحد بتلك السرعة، وكانت تُكثر من طرح الأسئلة عليها، فتجيبها الصحفية بصدق وعفوية. لا ألوم والدتي... فأن يقف معك أحد ويشعر بمعاناتك في هذا الزمن لهو أمرٌ غريب حقًّا! لكن، وعلى الرغم من كل مساعي جيني، فقد شعرتُ برغبة في ترك كل شيء كما هو عليه. لم أعرف السبب، إلا أن شيئًا ما كان ينخر في داخلي، ولم أستطع الإفصاح عنه. كان هناك أمر واحد أردته بشدة: أن أغادر إلى حيث والدي. وقد عبرت عن رغبتي تلك أخيرًا ما جعل جيني تندهش!"

أحضرت حميدة كوبًا من الماء حين رأت اصفرار وجه الصحفية بعد معرفتها بالأمر. شعرت إينشا بخيبة أمل وخوف من تسرّعها وحديثها عن الموضوع دون استشارة والدتها. قالت جيني بعد صمت:

- إذًا، والدك ما يزال على قيد الحياة؟

أومأ ألطاف برأسه إيجابًا ثم قال:

- إنه لاجئ في باكستان، وقد مُنح هوية جديدة.

- فهمت.

قالت جيني ذلك، ثم لملمت أوراقها وغادرت مبتسمة. أنصتت إينشا إلى الخطوات المغادرة، ثم إلى الخطوات القادمة. رفعت يدها محاولةً الإمساك بثوب والدتها وهمست: "أمي". دنت منها حميدة وضمتها باطمئنان قائلة: "قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا".

مضى أسبوع من الهدوء ألقى بظلاله القاتمة على إينشا، فأصبحت قليلة الكلام كثيرة الشرود، الأمر الذي أقلق حميدة، فعقدت العزم على أن تملأ الفراغ الذي يثقل مخيلة ابنتها. وبينما كانت تنتظر عودة ألطاف من العمل، قررت إجراء مكالمة مع ألفت، لكن الهاتف أعلن انتهاء الرصيد.

تنهدت حميدة بضجر، ثم اتجهت نحو إينشا، التي كانت تمسك كتابًا وتحرك إصبعها على أحد السطور مرارًا وتكرارًا. أخبرتها بأنها ستجري اتصالًا سريعًا من إحدى الكبائن. ارتدت حجابها، ثم أغلقت الباب بالقفل من الخارج. وفي مساء ذلك اليوم، وعلى مائدة العشاء، قالت حميدة بحماس:

- سنذهب إلى السفح في نهاية الأسبوع!
- ماذا؟!

صاح ألطاف وإينشا باستغراب، وأضافت إينشا:

- لا أريد الذهاب... ليس الآن!
- سنذهب شئتما أم أبيتما!

قامت حميدة من المائدة منهيةً النقاش. واستمر امتعاض إينشا حتى نهاية الأسبوع.

كان الطقس في صباح الأحد شبه غائم. استبشرت حميدة بذلك الجو البديع، فسألت ألطاف:

- هل توقعت الأرصاد هطول مطر اليوم؟

- لا، لن يهطل بإذن الله.

نظرت حميدة إلى ألطاف، الذي كان يعبث بهاتفه.

- هل شاهدت الأخبار؟

- هناك تطبيق في الهاتف يخبرني بذلك.

أجابها وهو يميل بشاشة هاتفه باتجاهها.

- أعوذ بالله.

قالت حميدة ضاحكة، فضحك ألطاف، وبينما كانت إينشا ترتب حقيبتها قال ألطاف:

- ألا ينبغي أن تعدي لها الحقيبة؟

- دعها تعتمد على نفسها، هي تجيد ذلك.

توقفت إينشا لبرهة إثر سماع رد والدتها. قال ألطاف:

- يبدو أنها حزينة.

أغلقت حميدة الستائر بإحكام وهي تقول:

- لا، هي متوترة فقط. كما لن تسمح لي بترتيب أغراضها أبدًا، فهي لا تحب أن نعاملها وكأنها عاجزة. ثق بها فحسب.

***

صعد الجميع إلى أوتوركشا السيد جاغديش الذي استقبلهم بابتسامة عريضة وظل طوال الطريق الطويل يعبر عن مدى سعادته بهذه الرحلة المميزة. ورغم محاولة حميدة إخباره أن هدفهم هو السير على مهل للاستمتاع بالهواء، لا بالحديث، فإنه لم يكفّ عن إظهار امتنانه والافتخار بخدماته التي لا تُقارن!

عادت الشمس إلى الظهور بعد أن احتجبت خلف السحب فترة من الزمن. وعند اقتراب الظهيرة، كان السفح يفتح ذراعيه مرحبًا بهم وهم يشقون طريقهم نحوه. توقفت الأوتوركشا عند نهاية الطريق المعبد، وترجل الثلاثة. أخرج جاغديش من جيب سرواله قطعة حلوى ودسّها في كف إينشا قائلًا:

- هذه هدية العودة!

ابتسمت إينشا وشكرته على لطفه. ناوله ألطاف أجرته، لكن جاغديش أقسم ألا يأخذ بنسًا واحدًا، ثم غادر. "إنه رجل طيب"؛ فكر الجميع بذلك وهم يراقبون عربته تبتعد مطلقة أزيزًا مزعجًا.

أمسكت حميدة يد ابنتها، وتقدمها ألطاف وراح يزيح الأحجار التي قد تؤذيها. سارت إينشا بحماس وسعادة وراحت ترهف سمعها إلى خطوات عمها وركله الحجارة، وتستسلم لهبات الريح التي تدفعها برفق. وأمام المنزل كانت تقف أنفال ووالدتها وبعض نساء القرية اللاتي رحبن بالقادمين بحرارة وبأهازيج شعبية، ثم بقبلات وأحضان. قالت أم أنفال بعد مغادرة النسوة:

- أصررن على المساعدة في تنظيف المنزل وتهذيب النباتات. كنا جميعًا متحمسات ومشتاقات لعودتكم.

اقتربت أنفال من إينشا ووضعت بين يديها شيئًا، فميزته إينشا سريعًا وقالت:

- دمية.
- نعم. اشتريت اثنتين منها، واحدة لي وأخرى لك.

ابتسمت إينشا بسعادة وشكرتها بامتنان، ثم أخذت تتحسس الدمية بين يديها؛ أنفها وفمها وعينيها وشعرها الذي تخيلته ذهبيًّا. سألت والدتها:

- هل شعرها ذهبي؟
- نعم يا إينشا.
- يبدو أنها تشبه جيني.

***

في الداخل كان كل شيء مرتبًا كما تركوه من قبل، ما عدا رائحة الطعام المنبعثة من المطبخ. كانت النسوة قد أعددن كل شيء، حتى الشاي على الموقد. تناول الثلاثة الطعام وهم يتبادلون ذكريات المنزل التي لا تُنسى.

وبينما حميدة جالسة على المقعد المقابل للنافذة لمحت السيد شريف يخرج من منزله حاملًا أدواته، ثم يعود إلى الداخل. أرادت أن تسأل ألطاف عنه، لكنها لم تستطع. وطوال الفترة الماضية لم تتمكن حميدة من الحديث عن صديقتها. كان مجرد التفكير فيها يجعل روحها تضطرب، وأنفاسها تتسارع، وعينيها تمتلئان بدموع حارقة. كان ذلك الجرح هو الأكثر إيلامًا.

❊ ❊ ❊

٨١

"حين عدتُ إلى السفح من جديد، وسمعتُ أنفاسك تتهادى حول مائدة الغداء، فهمتُ معنى الحب يا أمي... حبُّنا لتلك الحياة التي عشناها بأفراحها وأتراحها. وحين رحلت عنا، تركتِنا نتجرّع الألم... هل سنحب حياتنا من جديد؟ أسأل نفسي هذا السؤال كثيرًا هذه الأيام. لا أدري ما الذي تخبئه لنا الأيام المقبلة، لكن الماضي لا يُستعاد، لذلك أحتفظ به بعناية في ذاكرتي... وهل بقي لي غير الذاكرة؟ تلك المروج الخضراء التي تعبق برائحة التراب الرطب... الشمس التي تلامس بأشعتها الخفيفة رأس الجبل... صوت آلات الحرث الممتزج بضحكات الأطفال وهم يملؤون السفح حياةً وحركة... كنت أخرج كل يوم لأستمتع بتلك السيمفونية قبل أن أسقي زهراتي وأعود إلى الداخل".

لاحظت حميدة سعادة إينشا بعودتها، فاطمأنّت إلى أن هدفها قد تحقق. وبينما حميدة ترتشف الشاي برفقة أم أنفال في المنزل، والفتيات يتسامرن في الخارج، قالت حميدة:

- حدثيني عن القرية، والحصاد وعمل الصوف.

وضعت أم أنفال كوبها جانبًا وقالت:

- الأوضاع تتردى، وعمل الصوف يتراجع يومًا بعد يوم. ربما سيأتي يوم يخلو فيه السفح من ساكنيه!

- والسيد شريف...؟
- لم يعد يقوى على العمل في الحقل دون فاطمة. أظنه يفكر في بيعه والانتقال من هنا.

ارتجفت يد حميدة، فوضعت الكوب وغطّت فمها بطرف ثوبها، واستسلمت للبكاء. وضعت أم أنفال يدها على رأسها مواسيةً وقالت:

- لا تبكي. فاطمة في مكان أفضل، إن شاء الله. كلنا راحلون، وقد رحلت شهيدة. ما أسعدها!
- لا أبكي على موتها، بل شوقًا إليها.

مسحت أم أنفال عينيها قبل أن يغلبها البكاء هي أيضًا، وقالت:

- كلنا نشتاق إليها. كانت كالنسمة بيننا. رحمها الله.

كانت تلك آخر مرة تبكي فيها حميدة من أجل فاطمة. ربما كل ما كانت تحتاج إليه هو شخص يشاركها النحيب والحنين.

❊ ❊ ❊

٨٢

(أيار) مايو ٢٠١٧

مكثت الأسـرة قرابة شـهر على السـفح في ذلك الفصـل الدافئ، رغم أنهم خططوا للبقـاء يومين فقط. وعلى الرغم من مشـقـة الانتقـال اليومي إلى المدينة من أجل العمل والمدرسـة، فإن إينشـا كانت تجد الأمر ممتعًا، وتمنت لو استمر أكثر، إلا أن والدتها قررت المغادرة.

استقر بهم المقام مجددًا في الشقة، وذات صباح سمعت حميدة طرقًا على الباب. نهضت لتفتحه، فإذا بجيني تقف في الخارج. جلست الصحفية على الأريكة وهي تبدو سعيدة، وقالت بلغة كشميرية متعثرة:

- جئت مرات عدة ولم أجدكم، وكانت هواتفكم مغلقة. خشـيت أن تكونوا قد رحلتم!

ابتسمت حميدة وقالت وهي تقدم لها الشاي:

- اعتقدنا أنك أنتِ من رحل حين غبتِ مطولًا على خلاف العادة.

تناولت جيني كوب الشاي وقالت:

- كنت في مهمة. صعب أن أشرح الآن... سأخبر ألطاف غدًا.

أومأت حميدة مجاراةً لها، وبعد أن احتسيا الشاي معًا غادرت جيني، تاركةً حميدة في حيرة.

***

في مساء اليوم التالي، تحدثت جيني بإسهاب عما أنجزته خلال الشهر الماضي. كان ألطاف يترجم حديثها، لكنه توقف حين انسجم مع ما يسمعه من غرائب!

- حين أخبرتموني أن السيد نذير ما زال حيًا، استغربت؛ فالسجلات الموجودة لدى المؤسسة تثبت أن إينشا يتيمة الأب. عدت للتأكد، وحين تيقنت من صحة المستندات قررت السفر إلى باكستان.

قال ألطاف بدهشة:

- سافرت إلى باكستان؟!

- نعم. سافرت أولًا إلى إسلام آباد، لكنني لم أصل إلى أي نتيجة. ثم أخبروني أن أبحث في مقاطعة بونش التي تضم عددًا كبيرًا من طالبي اللجوء. كان الأمر أشبه بالبحث عن إبرة في كومة قش، فمثل هذه السجلات لا يُكشف عنها بسهولة. لذلك فكرت في تتبع المسار القانوني، على أمل أن أعثر على خيط يقودني إليه، وقد حدث ذلك على نحو أقرب إلى المعجزة! توقفت قليلًا ثم تابعت: اشتهر هناك محامٍ يُدعى صادق. كنت شبه فاقدة للأمل، لكنني قررت أن أجعلها محاولتي الأخيرة. حددت موعدًا في مكتبه، وهناك كانت المفاجأة... لقد كان الشخص الذي أبحث عنه منذ أسابيع!

قال ألطاف:

- أنا عاجز عن الرد، لماذا تكبدت كل ذلك العناء؟

- فكرت في العودة لأسألكم، لكنني ظننت أنكم لن تخبروني بشيء. وعلى أي حال، لم تكن ردة فعلي الأولى مطمئنة!
- أنتِ غريبة حقًا!

ابتسمت جيني وقالت:

- ربما. لقد تبادلت معه أطراف الحديث، وقد بدا مندهشًا هو أيضًا، لكننا اتفقنا على أمور كثيرة، أهمها ضرورة انتقالكم إلى بونش كخطوة أولى، حتى تتمكن إينشا من الحصول على برنامج تأهيل مناسب، وسنسعى بكل ما نستطيع لتأمين تلك العملية لها.

وحين أنهت حديثها نهضت وجلسَت إلى جوار إينشا. أمسكت بيدها وقالت:

- هل مازلتِ غاضبة مني؟
- لست غاضبة، لكنني أفهم الآن. شكرًا لكِ.

تذكرت إينشا الخالة فاطمة التي كانت تربت على يدها دائمًا وتقف إلى جانبها. كتمت ضحكتها حين تخيلت الخالة فاطمة معهم في تلك اللحظة وهي تطرد جيني من المنزل غاضبةً وتصيح بها:

- نحن لا نثق بكِ أيتها الشقراء! اتركينا وشأننا وسنعيش بسلام!

❊ ❊ ❊

٨٣

أوقفت جيني سيارتها بجوار منزلها، الذي لا يبعد كثيرًا عن مقر المؤسسة. همّت بالترجل، لكن مجموعة من الرجال اعترضوا طريقها واقتادوها إلى أحد الأزقة. كان الليل قد انتصف، والطريق خاليًا من المارة.

أشهر أحدهم خنجرًا ووضعه عند عنقها، وقال مهددًا:

- ستتوقفين عما تفعلين، وإلا غرستُ هذا في عنقكِ في المرة القادمة.

بعد أن تركوها وانصرفوا وضعت جيني يدها على عنقها وهي تسعل وتسأل نفسها: من أرسلهم؟ وعن ماذا أتوقّف؟ لم يوضحوا شيئًا، سوى الموضع الذي سيغرسون فيه خنجرهم.

صعدت إلى شقتها، وأغلقت الباب بإحكام، ثم ارتمت على سريرها، متلحفةً، ترتجف.

في اليوم التالي، كانت إينشا وحميدة في مبنى المؤسسة بانتظار وصول جيني. سألت إينشا المدير الذي كان في استقبالهما:

- متى ستنهون معاملات الناس الذين يحضرون إلى هنا كل يوم؟ لا أريد أن أعطل أحدًا.

ابتسم المدير، ثم قال بصوت ينم عن القلق وهو يحاول مجاراتها:

- لا علاقة لقضيتك بهم يا عزيزتي. هؤلاء جميعًا مسجلون لدينا، ونحن حريصون على مساعدتهم، لكننا نطلب أحيانًا من بعضهم العودة لاستكمال أي بيانات ناقصة. هل فهمتِ؟

هزّت إينشا رأسها، وأثناء انتظارهم الطويل اتصل المدير بجيني مجددًا، لكن هاتفها كان مغلقًا. قال أحد زملائها إنه سيذهب إلى شقتها للاطمئنان عليها، بينما قررت حميدة أن تمضيا في إجراء المقابلة، بعدما وافقت إينشا أخيرًا.

حضرت صحفية من إحدى وكالات الأنباء، جلست قبالة إينشا، واضعةً ساقًا على ساق، ثم سألتها:

- أخبرينا عن سبب موافقتك على إجراء المقابلة بعد رفضك السابق؟

كانت حميدة تنظر بقلق إلى إينشا، التي بدت متوترة على نحو ملحوظ. "ترى، هل أخطأنا حين وافقنا على إجراء هذه المقابلات؟" ظل هذا السؤال يدور في رأسها.

أجابت إينشا:

- لو كان الأمر يخصني وحدي، فأنا راضية بحالي... هذا قدر الله. وما دامت أمي وعمي إلى جواري، فأنا بخير. لكنني فكرت في الأطفال الآخرين الذين لم يحالفهم الحظ، ولم يجدوا من يستمع إلى معاناتهم... لأجل هؤلاء قررت أن أتحدث.
- هل كونك حفيدة مناضل كشميري هو السبب في حصولك على هذه الفرصة؟
- لم أكن لأحصل عليها لولا فقداني بصري. جدي، على خلاف ما تظنون، رجل عادي كغيره من الكشميريين، يؤمن بحقنا في الحرية

والحياة. نحن حين نصـرخ واقفين لا يسـتمع إلينا أحد، لكن حين نصـرخ بعدما نسـقط أرضًـا، يهرع العالم ليرى بؤسـنا. هكذا يدور العالم؛ كأنه ينتظر أن نُفترس حتى يشـفق علينا، وليته يعيد إلينا ما فقدناه وما نصبو إليه.

- كم تبلغين من العمر؟
- خمسَ عشرة سنة.

ابتسمت الصحفية وقالت:

- هل ساعدتك والدتك في ترتيب إجاباتك؟

ردّت إينشا، وهي تبادلها الابتسام:

- امنحونا الأسئلة مسبقًا في المرة القادمة، حتى نعد إجاباتها معًا!
- هل لديكِ أمنية ترغبين في تحقيقها؟

سكتت إينشا لحظات، ثم قالت:

- أريد أن أغادر إلى الخارج لتلقي العلاج دون معوقات.
- وبماذا تحبين أن تختتمي حديثكِ؟

اعتدلت إينشا في جلستها وتحدثت بصيغة من تحدث أمتها مباشرة:

- في ذاكرتي إنسانة رقيقة، تحب الألوان الزاهية وتكره السواد، إنسانة لم تكن تفكر في شيء سوى أن تمضي يومها مطمئنة وراضية. لا تغضبوا لمنظر عينيّ؛ فإرادتي ما تزال متقدة، ولا تنطفئ الإرادة إلا بانطفاء الروح. ولكن اغضبوا لخالتي فاطمة.

انتهت المقابلة. نزلت حميدة وهي تضم إينشا إلى صدرها وتمطرها بالثناء، بينما صعد زميل الصحفية مسرعًا إلى الطابق العلوي، فلم تتمكن حميدة من سؤاله عن حال جيني. لكن في مساء اليوم نفسه، تلقى ألطاف اتصالًا من جيني. أجاب مسرعًا وهو يسألها عن حالها. أخبرته أنها ستحضر في اليوم التالي للقائهم، وأنها سارعت بالاتصال لتثني على إينشا، ومقابلتها إلتي لاقت صدى واسعًا.

فتح ألطاف شبكة الإنترنت، بينما جلست حميدة وإينشا إلى جواره. كتب اسم "إينشا" في محرك البحث، فكان أول ما ظهر أمامه قائمة بالأخبار يتصدرها عنوان: "ولكن اغضبوا لخالتي فاطمة". وكان السؤال الأكثر تداولًا بين الناس: من هي الخالة فاطمة؟ وما الذي حدث لها؟ وسرعان ما تصدرت الأخبار قصة النسوة الثلاث اللواتي انتُشلت جثامينهن.

قالت حميدة بإعجاب:

- كم هي عجيبة هذه الشبكة! لم أتوقع أن ينقلوا كلام إينشا بهذه الصورة. هل اعتدلت الصحافة أخيرًا؟

ربت ألطاف على رأس إينشا، التي ابتسمت بفرح غامر لما حققته كلماتها من أثر. وبهذه المناسبة قررت حميدة الاحتفال، فدعت ألفت وإقبال وجيني. وفي اليوم التالي اجتمع الجميع في غرفة الجلوس. هنأت ألفت إينشا على براعتها في الحوار، فأطرقت الفتاة خجلًا، ثم التفتت إلى جيني وسألتها عن سبب غيابها.

بعد أن قصّت جيني عليهم ما تعرضت له التفت ألطاف إلى إقبال وقال:

- أشك في المهراجا؛ فهو دائم التعامل مع رجال العصابات.

هز إقبال رأسه، ثم قال مخاطبًا جيني:

- لا بد أنهم يريدون منعك من إكمال ما بدأتِه مع إينشـــا. إنه رجل يضمر حقدًا دفينًا لنذير وأسرته.

تنهدت جيني وقالت:

- لقد ساندت كثيرين خلال مسيرتي المهنية، لذلك لم أفهم في البداية ما يقصـدونه. أما الآن، وبعدما سـمعته منكم، فأنا أشـد إصـرارًا من السابق. ولا تقلقوا، فالمؤسسة ستوفر لي الحماية.

قالت حميدة بقلق:

- لا نريد أن يصـــيبك مكروه بســـببنا. ســـنحاول إكمال ما بدأناه من دونك.

هزت جيني رأسها بالرفض وقالت:

- نحن نعيش في بلد تمزقه الحرب، وأنا أدرك ذلك جيدًا. وإن حدث لي شيء، فلن يكون بسببكم. هذه هي وظيفتي التي كرست نفسي لها؛ سواء كانت إينشا أو غيرها فلن يغير ذلك شيئًا. غايتي أن يصل الحق إلى أصحابه. وستتولى المؤسسة نقل إينشا بأمان إلى الخارج لتلقي العلاج، ولن تكون وحدها، بل ســترافقها فتاة أخرى تعاني الحالة نفسـها. ابتسـمت ثم أضـافت: أخبرتكم بهذا لتدركوا أنكم لا تحظون بمعاملة خاصة.

عبر الجميع عن امتنانهم، وأثنوا على شـــجاعة جيني وإصـــرارها. بعدها انشـــغلت حميدة مع ألفت بتوزيع الحلوى وصـــب العصـــائر في الكؤوس. ومضت الاحتفالية البسيطة عامرةً بالضحك والألفة، أما إينشا فقضت معظم وقتها تلعب مع عمر، وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة لم تعرفها منذ زمن.

❊ ❊ ❊

٨٤

ترجّل صـادق من سـيارة الأجرة أمام أحد مكاتب العقارات في الحي الذي تقطن فيه جدة حميدة. دخل المكتب، وسأل عن وجود شقق شاغرة. أخذ الرجل يعرض عليه الخيارات، بينما كان صادق يستبعدها واحدًا تلو الآخر، واضعًا احتياجات إينشا في المقام الأول.

وقع اختياره على شـقة في الطابق الأول من مبنى سـكني يطل على حديقة صـغيرة، ويجاوره مركز تجاري صـغير. كان الموقع مرتفع التكلفة نسـبيًا، لكن ذلك لم يثنه عن اختيار أفضـل مكان يسـتطيع توفيره؛ فأسـرته، التي ترعرعت على سـفح الجبل، قد ترى في تلك الحديقة المقابلة قطعةً من النعيم.

وقف في شـرفة المنزل، يتأمل المكان بغبطة، ثم أغمض عينيه ليسـتشـعر نسـمات الهواء وهي تلامس وجنتيه برفق. كل شـيء جميل. لكنه سـيغدو أجمل حين يصلون سالمين، ويقفون إلى جواره على تلك الشرفة.

هب برويز من مكانه وهو يصيح، ويتناثر الطعام من فمه:

- ستنتقل! ستتركني وحيدًا!

أخذ صادق ينفض ما تطاير من الطعام عن ثيابه، وقال ضاحكًا:

- آن لك أن تتزوج.

وضع برويز يديه على رأسه وقال:

- هذا لا يجوز! لا تتركني.
- وهل ظننت أنني سـأعيش معك إلى الأبد؟ كف عن هذا الآن، وأخبرني أين أجد محلًا لبيع الأثاث.

توقف برويز عن الأكل، وقال متذمرًا:

- تخونني، ثم تريد مني مساعدتك!

قهقه صادق ضاحكًا وقال:

- لنتحدث في هذا لاحقًا.

❊ ❊ ❊

٨٥

"سأتوقف للحظات هنا... حين قررت كتابة مذكراتي، كنت في كل يوم، وفي كل لحظة، أحترق شوقًا للحديث عن هذا الجزء. كيف كانت مشاعري حين أخبرتني جيني أنني سأتمكن من الخروج؟ كان العالم يعتقد أنني متلهفة للحصول على العلاج، مع أن احتمال عودة بصري كان ضعيفًا جدًا. لكننا وحدنا كنا نعلم لماذا أردت الرحيل.

من ذا الذي يحب أن يغادر وطنه؟ الأرض التي تربى عليها، ونما عوده فيها؟ لو كنت أعيش في بلد مستقر، لما كانت رغبتي في المغادرة تثقل صدري بكل هذا الألم. لكن خروجي من أرضي، التي يترقب المحتل رحيلي عنها، هو ما كان يشق علي.

لست معقدة التفكير، ولا أجيد الخوض في التفاصيل؛ كانت مشاعري البسيطة هي كل ما أملك. وفي الوقت نفسه، كان ينتابني خوف غريب من السعادة كلما تسللت إلى داخلي؛ فأظل أترقب اللحظة التي سينقض فيها الحزن عليها، فيئدها في مهدها. وربما لهذا لم أستسلم لخيالات لقاء أبي من جديد... ربما تركت ذلك للأيام، وعشت واقعي فحسب.

تسارُع الأحداث منذ آخر ظهور لي على التلفاز، ثم تجدد غضب الناس مما يحدث دائمًا لنساء بلدي، وبشارة جيني بقرب موعد رحيلي... كل ذلك لم يترك لي وقتًا كافيًا لترتيب أفكاري. ومن يفقد بصره لا يملك سوى

التفكير... وحين تكون أفكاره في حالة فوضى، يكون في ورطة حقيقية!"

كانت إينشا برفقة والدتها وجيني، ينتظرن ألطاف أمام مبنى الهجرة والجوازات في سرينغار، بعد أن أتممن جميع الإجراءات اللازمة لاستخراج جوازات السفر. قالت جيني:

- ستصدر جوازاتكم باسم نذير، لكن ما إن تستقروا في باكستان حتى تتمكنوا من تعديل جميع البيانات. سيستغرق ذلك بعض الوقت، لكنه ضروري لتعيشوا معًا بوثائق صحيحة.

هزت حميدة رأسها وقالت:

- هذا أكثر ما يشغل بالي، لكن كل مشكلة ولها حل بإذن الله.

خرج ألطاف بعد ساعات من الانتظار، وأخبرهم أن كل شيء سيكون جاهزًا في الغد. كان غياب هوية الأب، واستبدالها بهوية العم، سببًا في تأخير إصدار جواز سفر إينشا، ورغم محاولات المؤسسة تيسير الإجراءات، فإن الجهات الحكومية الهندية لم تنجزها بسرعة.

مضى اليوم ثقيلًا، فكل شيء كان معلقًا بصدور الجوازات سليمة. وفي اليوم التالي صدرت الجوازات وبدأت حميدة استعدادات الرحيل. أوكلت رعاية منزلهم إلى أم أنفال، ومنحتها حرية استخدامه طوال فترة غيابهم. ثم ذهبت إلى المؤسسة التي تعمل فيها، وأخبرت الخالة شاميما بموعد سفرهم، فلم تتمالك نفسها، وانهمرت دموعها، وودعت حميدة بحرارة. أما إينشا، فلم يفارقها الاضطراب وهي تجلس في انتظار عودة والدتها، لتذهبا معًا إلى

المؤسسة، حيث ستلتقي بالفتاة التي سترافقها في رحلة العلاج.

نهضت مستندة إلى الجدار، واتجهت نحو آلة برايل الخاصة بها. تحسستها، فلم تجد الورقة التي اعتادت الكتابة عليها. عادت إلى غرفة النوم، وأخذت تبحث في خزانة ملابسها، لتكتشف أنها استهلكت جميع الأوراق، ونسيت أن تطلب من والدتها شراء المزيد.

فتحت حميدة باب المنزل، فسمعت نشيج إينشا. هرعت إلى الغرفة وقد استولى عليها قلق شديد، خشية أن تكون ابنتها قد أصابها مكروه. وجدتها متكوّمة إلى جوار السرير، تضم رأسها بين ساقيها، كأنها تحاول أن تختبئ من شيء لا تراه. أسرعت لاحتضانها، وأخذت تهدئها. وحين عرفت السبب، وعدتها بأنها ستشتري لها أوراقًا جديدة في الحال.

هل كانت تبكي من أجل الأوراق؟ أم لأنها لم تعد قادرة على الخروج وشرائها بنفسها؟ أم لأن موعد الرحيل أصبح وشيكًا؟

ربما كانت هي نفسها تجهل السبب.

❊ ❊ ❊

٨٦

- هذه "آصـفة"، وهي في العاشـرة من عمرها. وسـوف تغادران معًا مطلع الأسبوع القادم.

ثم غادرت جيني لمتابعة عملها تاركة الفتاتين تتعرفان إلى بعضهما.

- اسمي إينشا.

قالت إينشـا ذلك ثم مدت يدها إلى الأمام، تتحسـس ملامح وجه آصـفة برفق. "إنها تبتسـم"، همسـت إينشـا في أعماقها بسـعادة، حين شـعرت بأن صديقتها الجديدة تبادلها فرحة اللقاء.

وعلى مقربةٍ منهما، جلسـت حميدة برفقة والدة آصـفة، تتبادلان أطراف الحديث، وتستبشران ما ينتظرهما من أيام بأملٍ وتفاؤل.

❊ ❊ ❊

٨٧

أواخر (حزيران) يونيو ٢٠١٧

كانت السـاعة تشـير إلى الخامسـة فجرًا في مطار شـيخ علام. وفي صـالة المغادرة، حيث كان الجميع ينتظرون الرحلة المتجهة إلى إسـلام آباد عند السـابعة صـباحًا، اجتمع الأهل والأصـدقاء لتوديع أسـرة واني. وأصـرّ رفيق شـاه على الحضـور برفقة ابنته وأسـرتها، رغم المرض الذي أثقل جسـده، وأوصاهم ببعض النصائح التي رأى أنها ستعينهم في موطنهم الجديد.

اقتربت ألفت من إينشا، ووضعت بين يديها كتابًا وهي تقول:

- هذه هديتنا أنا وعمك إقبال. اقرئيه خلال الرحلة.

أشرق وجه إينشا. مررت أصابعها على العنوان: "قصة حياتي" لهيلين كيلر. شكرت ألفت بامتنان، ثم ضمّت الكتاب إلى صدرها.

قالت حميدة مخاطبة ألفت:

- أخيرًا أحبت الكتب.

ابتسمت ألفت وقالت وهي تحتضن عمر:

- وسيأتي يوم تكتب فيه كتابها الخاص.

وصلت جيني برفقة الفريق الذي سيرافقهم إلى باكستان، ومنها إلى ألمانيا. توقفت أمام المسـافرين، وأوضـحت لهم موعد الانطلاق، مبيّنةً أن التوقف في باكستان تفرضه ضرورات الرحلة.

مرّ الوقت بطيئًا في انتظار اللحظة التي تصــدح فيها مكبّرات الصــوت بنداء الرحلة الأولى للتوجّه إلى الطائرة، وما إن دقّت الساعة السادسة والنصف، حتى تحرّكت الجموع المنتظرة نحو البوابات.

اســتدارت إينشــا ولوّحت بيدها للجميع. وفي تلك اللحظة، لم ترَ وجوه مودّعيها وحدهم، بل تخيّلت أطفال قريتها جميعًا واقفين على قمة الهضبة، بثيابهم الريفية المغبرة، وألعابهم الخشــبية في أيديهم، يبتســمون لها بالبراءة نفسها التي كانوا عليها يوم كانوا في العاشرة من أعمارهم.

❊ ❊ ❊

٨٨

"هبطت الطائرة بسلام... كنت متوترة جدًا ونحن على متنها؛ فصوت الهواء المضغوط في الداخل كان يضجّ في أذنيّ بشكلٍ مزعج حتى خُيّل إليّ أن المحرّكات تستقرّ في رأسي. سألت والدتي: هل تسمعين شيئًا؟ فأجابت بالنفي.

أعطاني عمي ألطاف سدادتين لأذنيّ، لكنهما لم تُجديا نفعًا. استسلمت لذلك الضجيج، وحاولت أن أتخيله طاحونةً تدور في حقلٍ فسيح، بينما أستلقي أمامها في هدوء.

ما إن هبطنا من الطائرة حتى شعرت بأنني أكثر الناس سعادة. كان من المقرر أن نمكث نصف يوم فقط، ثم نغادر مساءً إلى ألمانيا. وقد جئنا إلى باكستان ليشاركنا والدي الرحلة، أما عمي ألطاف فقد عاد في اليوم التالي لمغادرتنا.

كان أبي ينتظرني وهو يحمل باقةً من البنفسج. سألته: لِمَ اخترت البنفسج تحديدًا؟ فأخبرني أنه يداوي كل شيء، ثم اعتذر لأنه لم يستطع مرافقتي منذ البداية. كان الأسى واضحًا في صوته، فضحكت ليعرف أنني بخير، وقلت له إن رائحة البنفسج قد خففت عني صداع الرحلة. ضمني إلى صدره وقال: لقد كبرتِ".

❊ ❊ ❊

٨٩

عبّر نذير عن سعادته الغامرة باجتماع شمل أسرته من جديد، وأخذ يحدث حميدة عن الخطط والأنشطة التي ينوي أن يشاركهم فيها، تعويضًا لهم عن سنوات الفراق التي سُلبت منهم. سأل حميدة:

- ما أول شيء تتمنين فعله؟
- أود زيارة جدتي. أنا قلقة عليها.
- هي مريضة منذ أشهر، لكنها ما تزال صامدة وتنتظر عودتكِ.

ثم نظر إلى إينشا، التي كانت قد استسلمت للنوم بين ذراعيه، وقال:

- أخيرًا ستبدأ رحلة علاجها.

ابتسمت حميدة وقالت:

- لقد نامت مجددًا بين ذراعيك!

أجاب مازحًا:

- يبدو أن لي بعض الفائدة أحيانًا.

ضحكت حميدة وقالت:

- وهذا أمرٌ جيد. بالمناسبة، لم تحدثني جيني عن تكاليف العلاج، وقالت إنها ناقشت الأمر معك.
- ستتكفل المؤسسة الخيرية بتكلفة العملية وبجميع مصاريف العلاج.

تنهدت حميدة وقالت بأسى:

- لكن العينين الزمرديتين... لن تعودا أبدًا.

أطرق صادق برأسه، وتمتم بمرارة قائلًا: تبًا لهم...

ربتت حميدة على كتفه برفق وقالت:

- لقد سبقتاها إلى الجنة.

❊ ❊ ❊

٩٠

مرّ عامان على عودتي من ألمانيا... ولم يتغير شيء، سوى أن ملامح وجهي أصبحت مقبولة. هكذا قيل لي وهذا ما شعرت به من خلال تعاملي مع الآخرين.

ومع ذلك، فنحن نحب الحياة، ونحب الجمال، لكننا نخطئ حين نمنح المظهر قيمةً أكبر مما يستحق. لذلك، أشعر أنني لم أفقد شيئًا، سوى ذلك الخوف والقلق اللذين حاولوا زرعهما في قلبي، وقد استبدلتهما بثقةٍ كاملة في نفسي.

أما عن حلمي، فما زال كما هو. أخطط لأن أكون محامية، مثل والدي، وأن أساعده في تبرئة اسمه من التهم الباطلة التي لُفقت له، وأن أستعيد حق خالتي فاطمة ممن سلبها حياتها. هل سأحقق ذلك؟ لا أدري... لكنني سأعيش من أجل هذه الغاية.

أكتب هذه الكلمات من شرفة منزلنا. أخبرني والدي أن أمام عمارتنا حديقةً عشبية تتناثر فيها بعض الأشجار، ومنذ ذلك الحين وأنا أنزل إليها كثيرًا؛ أتلمس الأوراق، وألعب بالمراجيح، وأدع الهواء يروي لي ما لا أستطيع رؤيته... لكن كل هذا لا يعوضني عن ذكرياتي عند السفح.

هل سيأتي يوم أعود فيه إلى هناك؟ هل ما زالت أنفال تغري الأطفال الصغار بأفكارها المتهورة؟ كان ذلك منذ زمن... لعلها كبرت الآن، وصارت هي

من يصرخ في وجوههم حين يفكرون في زيارة البحيرة.

وماذا عن عمر؟ إنه يحدثني عبر الهاتف دائمًا، ويقول إنه لم يعد يتذكر ملامحي. أرسلت إليه صورتي، لكنه ما زال غير قادر على التذكّر. أما أنا فأذكره جيدًا؛ فقد كانت عيناه وأنفه ووجنتاه أول الملامح التي تعلمت أن أتعرف إليها بيدي.

إنها المرة الأولى التي أبتسم فيها وأنا أنهي كتابة مذكراتي هذه... ربما لأن ذهني أصبح أكثر صفاءً. لقد عشت في الأيام الماضية تحت ضغطٍ كبير، وأنا أحاول أن أستعيد تفاصيل أيامي، صفحةً بعد أخرى.

هل أحسنت روايتها؟

ربما لن أعرف الإجابة إلا حين أعود إلى قراءتها بعد عشرين عامًا.

لكنني أعلم يقينًا أنني لن أنسى شيئًا من تلك التفاصيل... فقد رحلت الصور من عيني، لكنها بقيت بكل ألوانها في أعمق مكانٍ من ذاكرتي.

إينشا صادق
باغ، آزاد كشمير
(شباط) فبراير ٢٠١٩

❊ ❊ ❊

إهداء أخير:

إلى الجميلة إينشـــا، ذات الأربعة عشـــر ربيعًا، التي فقـدت عينيهـا في اعتـداءات عيـد الفطر عـام ٢٠١٦، لكنها فتحت عينيَّ على بلدٍ من أروع البلدان، وشـــعبٍ من أعظم الشعوب.

خديجة بابطاح

❊ ❊ ❊

إينشا

بين قمم كشمير المكللة بالثلج، حيث يتجاور الجمال الأخاذ مع الخوف اليومي، تنشأ "إينشا"، فتاةً تحمل أحلامًا لا تختلف عن أحلام ملايين الأطفال. لكن لحظة واحدة تغيّر حياتها إلى الأبد، لتبدأ رحلة أخرى؛ رحلة البحث عن النور وسط عالم أثقلته الجراح. تحكي رواية "إينشا" لخديجة بابطاح، قصة أسرة، وحكاية شعب يناضل من أجل البقاء. أمٌّ تواجه الفقد بالصبر، وأبٍ يطارده الغياب، وأناسٍ يصنعون الأمل رغم الحصار والخوف. إنها رواية عن الحب حين يصبح مقاومة، والأسرة حين تغدو الملاذ الأخير، والإنسان الذي يصرّ على التشبث بالحياة مهما اشتدت قسوة الواقع. بأسلوب إنساني مشوّق، تنقل الرواية القارئ إلى تفاصيل الحياة اليومية في كشمير؛ إلى قراها ومدنها، وأسواقها ومدارسها، وثلوجها وجبالها، لتقدم صورة نابضة عن شعب لا يزال يحلم بالسلام والكرامة. "إينشا"، رواية عن ألم ينتصر وأمل لا ينطفئ، وبصيرة يدركها القلب حين يعجز البصر عن الرؤية.

خديجة بابطاح: باحثة دكتوراة في التفسير وعلوم القرآن في جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، لديها قصص قصيرة منشورة: "بحثاً عن الملاذ"، "كومة ورق" ونص مسرحي وروايات لم تُنشر بعد. روايتها "إينشا" من الروايات الفائزة بجائزة السرد اليمني- حَزَاوي في دورتها الرابعة 2025.

YKB
بنك اليمن و الكويت يلهم المستقبل
YKB Inspiring the future
yk-bank.com

حزاوي
HAZAWI
جائزة السرد اليمني